في ظلال الأنبياء

قصصهم في القرآن والأحاديث الصحيحة

محمد حمد عبدالله الصوياني



العبيكان
Obeikan

شركة العبيكان للتعليم، 1442هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر الصوياني؛ محمد حمد عبدالله

في ظلال الأنبياء./ محمد حمد عبدالله الصوياني، ط1؛ ـالرياض، ١٤٤٢هـ

ردمك: ٧ـ٣٩٢ـ٥٠٩ـ٦٠٣ـ٩٧٨

١ـ قصص الأنبياء أ. العنوان ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٤٢/٦٦٥٨

الطبعة العربية الأولى 1443هـ / 2022م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية-الرياض-طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: 4808654 11 966+، فاكس: 4808095 11 966+ ص.ب: 67622 الرياض 11517



الإهداء

إلى أخوي وصديقي العزيزين

أبي عبدالله محمد الفريح،

وأبي معاذ فواز المحرج

آدم صلى الله عليه وسلم جمال في الجنة

في الملأ الأعلى.. فوق السماوات.. في مكان لا يمكن وصفه، ولا لغة تبوح بجلاله وهيبته.. في مكان تجوبه الأنوار والأجنحة والملائكة والمشاعر، ويزينه التسبيح والتقديس لله تعالى.. تترقب الملائكة حدثًا عظيمًا، بعد أن تلقت أمرًا من الجبار سبحانه بالسجود لمخلوق جديد.. مخلوق ينتمي إلى تربة تلك اللؤلؤة السابحة في الكون، التي تسمى الأرض.. مخلوق ينتمي إلى تربة ذلك الكوكب الملون الصغير. وذلك بعد أن قال لهم الجبار سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾.

لم تعترض الملائكة على السجود والخضوع، لكنها دخلت في حوار مؤدب مع ربها سبحانه، حين أخبرهم بالمهمة العظيمة، التي كلف بها هذا المخلوق الجديد، وهي عمارة الأرض، والإبداع فيها بأمرين اثنين: (توحيد الله)، (والعدل)، فقال لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾. حينها قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾. فهل عاشت يا ترى في الأرض مخلوقات سفكت الدماء، ثم انقرضت قبل خلق آدم؟ أم أن الملائكة تتحدث عن الصراع الدموي من أجل البقاء، الذي تمارسه الحيوانات على الأرض؟ وإذ بالجبار الحكيم سبحانه يقول: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أدرك الملائكة أن وظيفة الإنسان سامية، فآدم نبي، والله يقول عن أول رسائله لأنبيائه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾. أما الرسالة الثانية فهي إقامة النظام، حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

حدث الأمر، وخلق الله آدم، وصوره في أحسن صورة.. صورة معجزة مذهلة، ثم تركه ساكنًا، كتمثال وسط عالم من الجمال المبهر، والمساحات الملونة، وسط الجنة.. ظل آدم دون روح.. دون حراك.. بين الثمار اللذيذة، والأنهار والأشجار والطيور والزهور، والمناظر الخلابة، والروائح المنعشة، وفي إحدى ساعات سكون آدم.. دب بين أشجار الجنة مخلوق ينتمي إلى عالم الجن.. عالم مختلف عن عالم الملائكة، فالملائكة خلقهم الله من نور، أما الجن فخلقهم الله ﴿مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾. انساب الجني الذي يحمل اسم (إبليس) في فضول بين الأغصان.. يريد اكتشاف هذا المخلوق، الذي أُمر بالسجود له قبل خلقه.. اقترب من هذا التمثال بارع الجمال، الذي ينتظر الحياة، ويشتاق للروح.. بدأ يطوف حوله.. يتأمله، وفجأة اجتاحه الفرح، فقد رأى شيئًا في آدم، أصابه بالزهو والخيلاء، بل أعلن تفوقه عليه.

لحظات السجود والتمرد

ظل إبليس يحدق بتكوين آدم الجميل، وبقامته الممشوقة.. تأمل عينيه الشاخصتين، وثغره الصامت، وشعره الجميل، وجسده الغض، وفجأة شعر بالتفوق على هذا الصامت، فقد اكتشف شيئًا، جعله يعتقد أنه أفضل منه.. اكتشف أن هذا البشر الطيني يحتوي فراغًا داخل جسده، وأنه (أجوف لا يتمالك) عندها أعلن ازدراءه له.. أعلن حربًا ضد شخص لم يتحرك.. لم يتكلم بعد، بل وليس به روح، ثم قال في نفسه: (ظفرت به خلق لا يتمالك)[1].

بدأت نار الحسد تتأجج داخله، حتى جاءت اللحظة الحاسمة، حين نفخ الله الروح في آدم، فإذ بالملائكة تضع أجنحتها خضوعًا لأمره.. كان المشهد مهيبًا، يأخذ بالمشاعر، لم يشوهه سوى غطرسة إبليس، الذي رفض السجود. انتهت لحظات السجود، واشتد غضب الجبار على عبده إبليس، الذي حوله الحسد من مخلوق جميل إلى شيطان رجيم.. لم يسحق الجبار سبحانه عبده الحقود.. لم يقذفه في جهنم، بل منحه حرية مسؤولة، وأعطاه فرصة ليرد، بعد أن سأله عن سبب تمرده، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وإذ بالحسود المتكبر يقول: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

لقد منحه الله سبحانه فرصة ليتراجع ويتوب، لكن إبليس كابر، وقال لربه معاندًا: (﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أصبح إبليس أول متكبر مفاخر بأصله.. احتقر آدم لأنه من طين، مع أنه لا ذنب لآدم، ولا فخر لإبليس في ذلك، فالأصل ليس إنجازًا.. هو هبة من الله، واختبار لشكر المخلوق أو صبره، لكن الكبر أعماه، فلم ير في آدم سوى الطين.. الصلصال، لم يدرك دقة خلقه.. عشرات المليارات من الخلايا، وعشرات الأميال من الشرايين والأوردة، تذهل العالم قبل الجاهل. أعماه الكبر حتى عن نعم الله عليه، فانشغل بالتنقيب عن عيوب غيره.. تناسى أن الله أكرمه، وجعله في الملأ الأعلى، لكنه الحسد.. يهوي بصاحبه من التحليق في السماء، إلى اللهاث خلف أحذية المحسود.

انتهت مرافعة إبليس، ثم سكت بانتظار الحكم، أما آدم فأنعم الله عليه بأنيس يشاطره الحب والحياة.. حواء: الفتاة الجميلة، التي ملأت قلبه، وآنست وحدته، ثم عرض عليهما شيئًا عظيمًا، هو الإرادة أو الأمانة. أمر اعتذرت السماوات والأرض والجبال عن حمله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾. قبل آدم وحواء تحمل الأمانة والإرادة، لذا جعل الله سكنهما الجنة دائمًا، لكنه مشروط بشيء يتعلق بإرادتهما، فما هو ذلك الشرط؟ أمام بوابة الخلود أو الوهم.

سكن الحبيبان الجنة، وبدأ اختبار إرادتهما، حين أباح الكريم سبحانه لهما كل شيء فيها.. كل شيء في الجنة لكما، عدا ثمار هذه الشجرة التي أمامكما. كان اختبارًا سهلًا للوهلة الأولى، بل إن الحق

سبحانه زاد من وعي الحبيبين، حين حذرهما الخروج من الجنة، ولن يكون ذلك إلا بالإنصات لوسوسة عدو لا يعرفانه، لكنه يعرفهما.. حذرهما من إغراء وإغواء (إبليس)، فقال: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾..

كسا الله آدم وحواء من ملابس الجنة الفاخرة، وظلا ينعمان في أجوائها الحالمة.. يتهاديان عبر المساحات الساحرة وبين أنهارها وشلالاتها.. تتضوع الأماكن بالعطور، وأنغام الطيور، والسعادة الغامرة.. لا يعكرها سوى وسوسة أو رؤية إبليس بين الفينة والأخرى، فتحذير ربهما منه جعلهما يتوجسان، لذا ظل إبليس يدرس سلوكهما، حتى أدرك نقطة قوة وضعف فيهما، وهي الشغف.. الطموح، لذا توصل إلى فكرة قد تنجح في طردهما من هذا النعيم.. فكَّر وفكَّر، وأخيرًا وجدها، حين وجد شغفهما يوقفهما أمام تلك الشجرة، وكأنهما يقفان أمام لغز مثير. اقترب منهما، ليقذفهما بأول أكاذيبه ووسوساته.. كذبة قال فيها: إن في ثمار تلك الشجرة سر الخلود، وأنهما سيصبحان ملكين خالدين، بمجرد تناولها، بل أقسم لهما: أنه ناصح، يريد الخير بهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾.

تأجج الشغف داخلهما.. أنساهما نصيحة خالقهما، فالطمع يعمي الإنسان عن الكثير الذي بين يديه، ليجعله يحدق بالقليل الذي عند غيره.. ظل فضول آدم وحواء يطوف حول تلك الشجرة، وكأنها الوحيدة في الجنة.. يتغافلان عنها لكن سرعان ما تعيدهما كلمات الشيطان. ظلا يترددان عليها، يتأملانها، ويتأملان الجنة الساحرة من حولهما.. لا يريدان مغادرتها، ولا يريدان للموت أن يأخذهما عنها، وفي إحدى المرات تهاديا نحوها.. اقتربا حتى وقفا أمامها، وكأنهما يقفان أمام بوابة الخلود.. ازدادت خفقات قلبيهما، وهما يمتلئان بالأحلام الزائفة، وفي لحظة ضعف بشرية عجزا عن المقاومة.. مدا أيديهما نحو ثمارها، وكأنهما يستلمان مفاتيح الخلود، وبعد تردد قبضا على ثمرها وقطفا، بينما كان الشيطان يراقبهما، وحقده يفرك يديه حماسًا.. يتحرق لرؤيتهما مطرودين.. قرب آدم وفتاته الثمرة الحلم من أفواههما ثم تذوقا منها.

رحلة الهبوط المريرة

أكل آدم وفتاته من الشجرة.. لم تكن حواء هي السبب.. كانا شريكين في الأمر.. ظل طعم الثمرة يجول في رأسيهما، وهما ينتظران سريان الخلود في جسديهما، وفجأة حدث شيء أذهلهما عن الثمار والخلود وعن كل أحلامهما.. لم تظهر لهما أجنحة، ولم تتحور أجسادهما، ولكن سقطت عنهما ملابس الجنة.. أصبحا عاريين.. أدركا أنهما لم يعودا ينتميان للجنة.. أدركا أنهما وقعا ضحية مكيدة شيطانية خبيثة.. مكيدة أنستهما ثمار الجنة، التي لا تعد ولا تحصى، وأشغلتهما بشجرة واحدة..

شجرة لن يضيرهما تركها.. مكيدة انتزعتهما من مساحات الحلال، التي لا حدود لها، ورمتهما في مستنقع صغير هو الحرام.

ذهل أبونا الشاب، وأمنا الشابة عن تلك الشجرة المحرمة.. انطلقا يركضان نحو الشجر الحلال، عله يسترهما بعد أن عراهما الحرام.. توجها نحو الأوراق الكبيرة منها.. بدأا ينتزعانها، ويلفانها حول جسديهما، بعد أن لفتهما الفاجعة، ثم توقفا وبقيا في حالة وجوم وخوف وندم قاتل، وانتظار لما بعد المعصية، وإذ بالجبار الكريم الذي منحهما الجنة، من أقصاها إلى أقصاها دون مقابل، يناديهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

لم يكابرا كما كابر إبليس.. اعترفا بخطئهما، وتحملا مسؤولية الحرية التي منحت لهما، و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، لكن إغواء آدم جعله يندم ويستغفر ربه، فـ ﴿ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، لكن هناك مقدمة، وهناك نتيجة.. هناك قدر لا مفر منه، فالأكل من الشجرة المحرمة معصية، لكنه لا يعني دخول النار، بل يعني الخروج من الجنة، فإلى أين؟ غادر آدم وزوجته النعيم والبذخ والثراء والساحات الغناء، والقصور الفارهة، والعوالم المدهشة، التي لا تعرف الكد ولا الشقاء، ولا الحر أو العراء.. تهاديا عبر أحد أبوابها، وهما يحملان حقائب الندم الثقيلة، ولكن إلى أين؟ إنهما الآن خارج بوابة الجنة، ينتظران وجهة السفر الآتية، والمحطة المقبلة.

خرجا من الجنة؛ لتبدأ رحلة الهبوط المريرة إلى الأرض، عبر مسافات هائلة، وسرعة اختفى فيها الزمن.. نزل آدم وحواء، ونزل معهما إبليس، ليستأنف ضدهما حرب الكراهية على الأرض.. حرب الحقد، التي بدأها في السماء، فأي مشاعر اجتاحت أبوينا، حين هبطا في العراء.. ما مشاعر أول يوم لهما على الأرض.

من مشاعر أول يوم على الأرض

قبل نزول آدم أراد الحكيم سبحانه أن يري الملائكة قدرات هذا المخلوق الجديد، فعرض عليهم أشياء يجهلونها.. ربما كانت من اختراع الإنسان المستقبلية، فسألهم عنها، فلم يعرفوا أسماءها﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ثم قال سبحانه لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أدرك الملائكة مهمة آدم وحواء وذريتهما العظيمة، ثم نزل آدم وحبيبته إلى الأرض.. لامست أقدامهما الحافية وجهها.. سارا على تربتها.. على صخورها.. صعدا جبالها، وهبطا عبر أوديتها.. آه كم يفتقدان إلى نعومة طرقات الجنة وجمالها.. استنشقا هواء الأرض النقي، فلم يجدا عبير تلك

العطور.. فارق مهول بين جنة رصفت بالأحجار الكريمة.. حصباؤها اللؤلؤ، وترابها الزعفران، وبين أرض يكسوها التراب والحجارة.. فارق بين أنهار وبحار وبحيرات صافية، قاعها منقوش باللؤلؤ، وبين أنهار قيعانها الطين والطمي.. ارتفع ذلك القرص المتوهج في السماء من جهة الشرق، فبدأت الحرارة بالارتفاع.. ما هذه القطرات التي يراها آدم، تنساب من جبهة حواء، وعلى صدره وذراعيه.. إنه العرق.. لأول مرة يعرقان.. ثم يشعران بالظمأ، بعد أن كانا في جنة، لا يظمأ ساكنها ولا يضحى. شربا من الماء، وشعرا بالارتواء والانتعاش، ثم مرت الساعات، فقرصهما الجوع.. دبا في أرجاء المكان، يبحثان عن تلك الثمار الدانية، والفواكه الملونة، التي لا حصر لها.

إنها أرض ابتلاء، لا تنال ملذاتها إلا بالكد والتعب.. حصلا على بعض الطعام، فأكلا وحمدا الله، ثم بدأ القرص المنير يميل نحو الجهة الأخرى نحو الغروب، ثم بدأ شيئًا فشيئًا ينغمس في الأفق الأحمر، حتى غاب، وشيئًا فشيئًا خيم ظلام موحش.. لم يعودا يريان شيئًا.. حتى إبليس اختفى، لا يستطيعان رؤيته، لكنهما يتذكرانه جيدًا، ويتذكران تهديده.. شعرا بالوحشة.. رفعا أعينهما للسماء، فإذا نجوم تتلألأ.. ظل قلباهما معلق بالله، ولساناهما يلهج بذكره، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه.. شعرا بالتعب والخمول، بدأت أجفانهما تثقل، ثم لم يعودا يقدران على فتحها، ثم استلقيا وغرقا في أول نومة لهما على الأرض.

التأقلم مع أجواء الأرض

أشرق الفجر، فنهض آدم وزوجته نشيطين.. ذهب ذلك التعب والنعاس، وشعرا بالحياة تسري من جديد في جسديهما وعلى الأرض.. طيور هنا، وطيور هناك، وحيوانات تمر، وأخرى تُطارِد أو تُطارَد.. بدأا يمارسان مهامًّا لم تكن في الجنة، فقد تغيرت الأحوال والظروف، ولم يعودا كما كانا.. أصبحا خاضعين لقوانين الأرض.. أجسام تتعب، تفرز، تعرق، تتسخ.. تحتاج لصيانة دائمة.. أمور لم يكونا بحاجة إليها في الجنة. إنه النظام الذي وضعه الله للأرض، والسنة التي سنها لساكنيها.. بدأا الإبداع البشري وعمارة الأرض فيها.. صنعا بيتًا يقيهما حرارة الشمس، والمطر، وبرد الشتاء.. صنعا ملابسهما.. تعلما تربية المواشي المستأنسة، وركوب بعضها.. تعلما الصيد والادخار، وإشعال النار، والشي عليها، والاستدفاء بها.. تأقلم الحبيبان مع الأرض.. يحدوهما الوحي والتوحيد والصلاة لله والشوق للجنة، وبعد مدة لاحظت حواء أن بطنها يستدير.. يكبر، وبعد أشهر، بدأت تشعر بآلام كالموت.. رزقت بعدها بمولود، ينسيها آلامها.. تلاعبه، ويؤنس وحشة الأرض من حولها، ثم ترزق بآخر، وأخرى وأخرى... كانوا ذكورًا وإناثًا.. بدأ الأنس البشري يزين الأرض، وغدت الأرض أجمل، ببراءة الأطفال وضحكاتهم وبكائهم، وابتساماتهم العذبة، وأجسامهم الغضة.. كبر الأولاد، وكبرت المسؤوليات، ونشأهم أبواهم على التوحيد، لكن خلافًا بين الأخوين حدث ذات

يوم، حول أمر من الأمور، فبدأ آدم يمارس ثاني مهمات الأنبياء وهي العدل.. طلب منهما أن يقربا لله قربانًا.

أحضر كل واحد قربانًا مما يملك، وأوحى الله لآدم صلى الله عليه وسلم أن الله تقبل قربان (هابيل)، ولم يتقبل قربان أخيه (قابيل). كابر قابيل وغضب، وتفاقم غضبه، وحرضته الأنانية على التخلص من أخيه، فهدده قائلًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فرد بهدوء وخوّفه بالله قائلًا: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فرقت الدنيا بين الأخوين.. أصبحت المسافة بينهما بعيدة، وفي أحد الأيام كان هابيل في مكان بعيد عن والديه وأخواته، وإذ بقابيل يتسلل نحوه، والشر في عينيه، ثم يضربه ضربة أسقطته أرضًا وهو ينزف. يتلبط في دمه.. يهتز جسده، ثم يسكن شيئًا فشيئًا، حتى صعدت روحه، وفارق الحياة. وقف القاتل يتأمل جثة أخيه.. تأمل نفسه، وقد أصبح بلا أخ.. تلفت ندمه، فوجد أرضًا فسيحة، تتسع لكليهما، بل لمليارات البشر.

القاتل الأول

وقف قابيل أمام جثة أخيه.. يتأمل الأرض، فإذا هي فسيحة، تتسع لكليهما، بل تتسع للمليارات من البشر. أصبح أتعس من على الأرض.. لم يكن الأمر يستحق كل هذا العنف.. أثقله الندم حتى عجز عن مغادرة المكان.. شعر بالشوق لأخيه الطيب، فحمله وسار به يشخب دمه.. دار به حتى تعب.. ضاقت به الحيل.. لا يدري أين يضعه، ولا إلى أين يتجه.. لم تعد الأرض فسيحة كما كانت.. لم تعد جميلة.. شوهتها الجريمة. جلس ابن آدم يقطر حزنًا وندمًا: هل يذهب به إلى والديه فيفجعهما، أم يتركه طعامًا للوحوش، أم ماذا يفعل؟ وفجأة شعر بحركة قريبة منه.

التفت فرأى مشهدًا أخذ منه كل حواسه.. رأى غرابًا ينبش تراب الأرض، وبجواره جسد غراب ميت.. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾، انتهى الغراب من النبش، بعد أن حفر تجويفًا في الأرض، ثم بدأ يزحزح جسد الغراب الميت بمنقاره، حتى وضعه فيه، ثم دفنه. حينها أفاق قابيل على إحدى كوارث الجريمة، فقال لنفسه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، ثم نهض، وبدأ بحفر شق في الأرض، يتسع لجسد أخيه المظلوم، ثم عاد وانحنى عليه، وحمله ووضعه داخل التجويف، وأهال عليه التراب، ثم أفاق مرة أخرى على عالم آخر.. عالم بلا أخ.. غاب ذلك الطفل، الذي كان يعدو ويلعب معه، ويسابقه نحو أحضان حواء الحبيبة، أو ذراعي آدم اللطيف.. رحل الصديق، الذي كان يؤنس وحشته، والفتى الذي كان يرافقه للصيد.. رحل من أجل ماذا؟ إنه الطمع.. الحسد، الذي جعل العالم أسود في عينيه.. نهض من عند قبر أخيه، ينفض يديه من ترابه؛ لتبدأ خطواته الثقيلة سيرها للمجهول.. هائمًا على

وجهه، تطوف به الأسئلة الباكية: ماذا ستقول لحواء الحبيبة، حين تسألك عنه؟ أي حزن سيحرق كبدها، حين تكتشف أنك قد حرمتها منه؟ من سيجيب آدم إن خيم الليل، وخرج عبر الأودية، ينادي حبيب القلب: أين أنت يا هابيل؟ ماذا ستقول لأخيك يوم البعث، حين يسألك: لم قتلتني يا أخي؟

وقبل ذلك، ماذا ستقول للجبار سبحانه، حين يسألك: لم قتلت عبدي؟ أدخلته الجريمة عالمًا معتمًا، وسن سنة القتل، فـ «لا تقتل نفس ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»[2].. سار قابيل هائمًا حزينًا حتى التقت عيناه بعيون أمنا وأبينا.

بداية الوثنية والشرك

سار قابيل هائمًا على وجهه من شدة الحزن والندم.. شُل تفكيره، حتى عجز عن التصرف بجثة أخيه هابيل، فكيف سيخبر والديه بجريمته.. الأمر فوق طاقته.. التقت عيناه بعيني أمنا حواء وأبينا آدم بعد مدة.. تنهدت حواء وأنَّت.. بكت، وارتفع نحيبها، وطال حزنها، وسافرت خناجر الحزن في قلب آدم، الذي فجعه الخروج من الجنة، وفجعه ابنه بابنه. وبكت الأخوات بكاء مرًّا.

أي حزن أدخلته يا قابيل على أسرتك الصغيرة والوحيدة؟ أهكذا يكون البر بأبوين، أسعداك ورعياك، أم هكذا يكون التعامل مع أخ لم تر منه سوءًا.. لم يأخذ مالك، ولم يمد يده لك بسوء، بل آثرك على نفسه، وحقن دمك؟ طال الحزن على هذه العائلة، وطال، ثم مر مع الأيام والأعوام، وكثرت ذرية أولاد آدم وحواء، وواصلت الأعوام مرورها، وكبر أبونا وأمنا عليهما السلام، وكساهما الشيب، وأنهكتهما الشيخوخة، ثم حانت ساعات الفراق للدنيا بأسرها.. بحلوها ومرها.. بذكريات الجنة، ومعاناة الأرض. رحلا فبكاهما الأولاد والأحفاد والأسباط، ثم مات الأبناء، ومات قابيل ورحل، وظل بعده أحفاد آدم وحواء وأسباطهما، يعمرون الأرض بالتوحيد، والبناء والتشييد والابتكار.. برعوا في الزراعة والصناعة الخفيفة، التي تجعل الحياة أيسر وأسهل.. ظلوا على التوحيد، لا يعبدون إلا الله وحده، لا شريك له. جيلًا بعد جيل، طوال عشرة قرون.. لم تعرف الأرض شركًا بالله خلالها.. لا عبادة لأحجار، ولا لأشجار، ولا لحيوان، رغم محاولة الشيطان المتكررة، التي أكسبته خبرة في فهم السلوك البشري.. بعدها لاحت له فكرة شريرة، وكأنه قد انتشلها من الجحيم.. فكرة سيغوي بها ذرية آدم؛ ليبعدهم عن التوحيد، دون أن يشعروا، فكرة غلفها بشعارات تحمل حب الله.

وسوس لهم الشيطان: أن يكرموا بعض الأموات من الأولياء الصالحين، من أمثال: (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر)، اصنعوا لهم تماثيل، تذكركم بعباداتهم وصلاحهم.. تماثيل إذا رأيتموها نشطتكم للعبادة، وبعد تردد. نفذ أحد الأجيال تلك الفكرة الشيطانية، فصنعوا تماثيل لإحياء الذكرى،

وتنشيط الذاكرة فقط، ثم جاء جيل آخر، فشاهد تكريم تلك التماثيل، فظن أن أرواحًا تسكنها، وتؤثر فيمن يخاطبها، ثم جاء جيل تعلق بالحجارة نفسها، وأغفل الخالق سبحانه.

هنا بدأت الوثنية لأول مرة، وكثرت الأصنام، حتى ولد وسط هذا العالم الوثني طفل سماه أهله (نوحًا).

نوح وعالم الوثنية الأول

بعد أكثر من ألف عام من التوحيد النقي لله سبحانه على الأرض.. بدأت الوثنية تحت شعار تكريم الصالحين، وتخليد ذكراهم، ثم انتشرت انتشارًا مخيفًا، حتى طغت على سكان الأرض قليلي العدد، وفي وسط ذلك الجو الوثني، ولد طفل سماه والداه بـ (نوح).. كبر نوح ونضج.. كان ذكيًّا حر التفكير.. تأمل أصنام قومه، فأدرك أن من البلاهة والحمق: أن يعبد الإنسان العاقل حجرًا أصم، صنعه بيده، بل صنعه بالأساس، لتخليد ذكرى بشر مثله، فاصطفاه الله سبحانه، وأنزل عليه الملاك جبريل عليه السلام، ليكلفه بتلقي الرسالتين، اللتين بشر بهما جده الأول آدم (التوحيد والعدل).

انطلق نوح يبشر بهما قومه، كلما أتيحت له فرصة.. في معابدهم.. في مجالسهم.. في أنديتهم، وبأي وسيلة ممكنة. بدأ الناس يتهامسون حوله، يشيرون إليه حتى اشتهر، فأثار غيرة الوجهاء، وسدنة الأصنام، لكنه لم يتراجع، فبدأ نجمه يعلو ويرتفع.. وهو يردد في كل مسمع كلماته الرحيمة الحانية العاقلة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، كلمات أثارت حفيظة سدنة الأصنام والتقاليد المنتفعين من بلاهة عابديها السذج.

أدركوا أن هذا الرجل يصرف الناس عنهم، ويصرف الأموال عن جيوبهم، وأن التوحيد سيكشف دجلهم واستغلالهم للبسطاء، فبدؤوا بتسفيه رأيه، حتى ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، لكن جدية نوح أفشلتهم.. خاطب عقولهم برقي، فقال: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، لكنهم لم يأبهوا، بل انتقلوا لتلفيق التهم له، والتحريض عليه، كي يسهل التخلص منه، بل واغتياله، لكن نوحًا عليه السلام تجاهل تلك العقول الخشبية لكبار القوم، واتجه للبسطاء والفقراء، الذين وجدوا فيه إنصافًا وعدالة وإنسانية، فثارت ثائرة الوجهاء مرة أخرى.. هاجوا وماجوا، ليحولوا بينه وبين العامة من الناس.. توجهوا للبسطاء يحذرونهم منه ومن التوحيد، بحجة غبية، ويقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، لكن نوحًا ظل مقنعًا يدعو بلا يأس.. هنا عقد كبار قومه اجتماعًا حاسمًا، وبعد المداولات قرروا أن ينصبوا له فخًّا.. قرروا القيام بخدعة يكسبون من خلالها كل شيء، ويخسر نوح معها كل شيء.

خدعة قوم نوح

قرر قادة الوثنيين تحطيم مصداقية نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم أمام أتباعه بخدعة، هي أن يطالبوه بطرد أتباعه المساكين، كشرط أول لإسلامهم، لأنه إن طردهم فسيكتشف الناس أنه حامل شعارات لا أكثر، ولا تهمه سوى مصلحته وهنا سيتركونه.. بعدها سيوجهون له ضربة قاضية برفض التوحيد، فيخسر الطرفين معًا.

وافق المجتمعون على تلك الخطة، ثم توجهوا نحو نوح ليقدموا عرضهم، واثقين أنه سيفضلهم، ويفضل وجاهتهم ودعمهم على أولئك الفقراء. قابلوه وصارحوه، ثم سكتوا بانتظار الرد، وإذ بنوح يصدمهم.. يبين لهم أنه مجرد حامل رسالة أمين، وأن كنوزهم لا تساوي عنده إسلام فقير واحد.

قال ثقة بربه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

جن جنون الصناديد.. أصيبوا بالذهول، وهم يرون الإسلام لا يفاضل بين الناس حسب موروثهم ولا أموالهم، بل حسب إنجازهم وقربهم من الله.. تهوروا، فأعلنوا القطيعة مع أي مجلس يتحدث فيه، لكن نوحًا واصل دعوتهم، فلم يزدهم إلا فرارًا، حتى بلغ السخف ببعضهم أنهم كانوا إذا سمعوه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، ومنهم من يقوم بحركة بالغة الوقاحة.. كانوا إذا سمعوه شوشوا عليه ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾، وغطوا بها رؤوسهم لإشعاره بالإهانة، لكنه ظل صابرًا محتسبًا متحملًا تفاهاتهم.

طال عمر نوح، وطالت معاناته، ويبدو أن معجزته كانت في طول عمره المديد.. تمر السنوات وهو صامد لا يتزحزح.. مسجلًا نفسه أول أولي العزم من الرسل.. ينوع أسلوب دعوته حسب الظروف والأشخاص، حتى وصف معاناته معهم قائلًا: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، أغراهم بمستقبل جميل قائلًا: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾، لكن صلفهم وعنادهم جعلهم يتحدونه أن يأتي بالعذاب بل هددوه بالقتل.. هنا نزل الوحي يأمره بأمر مخيف، فإذ به يتوجه إلى المؤمنين ويحولهم إلى شعلة من النشاط والحركة، وذلك حين طلب منهم أن يقوموا بتحويل أحد الأمكنة إلى ورشة ضخمة.. التف حولها الوثنيون جاعلين منها مسرحًا للضحك والسخرية والتندر.

الورشة المخيفة

لم يؤمن مع نوح صلى الله عليه وسلم سوى القليل، حتى تحدته الأكثرية قائلة: ﴿يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، فضاق به قومه، وهددوه بالقتل قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، بل إن إحدى زوجاته وأحد أبنائه خذلاه. ضاقت الأرض بهذا النبي الصابر، بعد هذا العمر المديد، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

هنا نادى نوح ربه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، دعا الجبار سبحانه دعاء مظلوم، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، ولا يلام، فعشرات السنين من العناد تخلق اليأس، فكيف بقرون، وفجأة نزل الوحي، يأمره بأمر أثار استغراب المؤمنين، بل فجر سخرية الوثنيين.

نزل الوحي يأمره بصنع سفينة ضخمة، لكن نوحًا لا يسكن أرضًا على البحر، ولا يعرف كيف تصنع السفن الضخمة، التي تسمى الفلك، لكن الجبار سبحانه أمره بصنعها بتوجيه من الوحي، الذي سيخبره بتصميمها، وقال له: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ . بدأ نوح بتنفيذ الأمر.. انطلق هو والقلة المؤمنة معه نحو الغابة.. بدؤوا بقطع الأشجار العملاقة، وتشذيبها، وإعداد الدسر، وهي المسامير الكبيرة.. حدد نوح مكان الورشة، فحملت تلك الأشياء إليها.

بدأت المناشير والمطارق عملها، حتى بدأ شكل الألواح الخشبية يتجسد شيئًا فشيئًا.. كان الوثنيون يمرون بنوح وفريق عمله.. يتأملون جباههم اللامعة، وسواعدهم التي تتصبب عرقًا، فيرفعون حواجبهم وكأنهم يقولون: لقد جن نوح، بل قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، تحولت الورشة إلى مسرح كبير مفتوح في الهواء الطلق.. يتحلق حوله الوثنيون.. يتهامسون.. يفرغون ما بأنفسهم من حقد وبذاءة.. تردد الغابة قهقات السخرية التي يطلقونها، بينما كان البيت الخشبي العملاق يرتفع شيئًا فشيئًا، وأصوات الاستهزاء ترتفع كلما ارتفع، وفي أحد الأيام توقف العمل. اكتمل البناء، وعيون الوثنيين المتلصصة تكاد تخترق جدرانه بنظراتها، ووجوههم المتطفلة تتلفت داخل غرفه، منذهلة من دقة الصنع وروعة التصميم، وفجأة بدأ أتباع نوح يقومون بعمل أثار جنون الوثنيين.

واهتزت الفلك

اكتمل بناء سفينة نوح صلى الله عليه وسلم، وسط قهقهات الوثنيين، التي آلمت نوحًا ومن معه، فلم يطق صبرًا ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، ظل نوح ينتظر بقية الأوامر، وفجأة رأى العلامة.. تلبدت السماء بالغيوم حتى حجبت السماء، وبدأ الماء يفور من باطن الأرض.. اقتربت ساعة الصفر، فجمع نوح أتباعه وأخبرهم بأن موعد الرحلة المخيفة قد حان، فانطلقوا إلى من آمن من أهلهم وأصدقائهم على الفور وأخبروهم.. تداعت آلاف الخطوات نحو السفينة، بينما كان نوح وبعض أصحابه يجمعون من كل حيوان من الحيوانات التي حولهم زوجين اثنين، لتتناسل في تلك الأرض البكر.

ربما لأنها سترسو على أرض ليس فيها حيوانات مستأنسة، يؤكل لحمها ويشرب لبنها، وتحمل الإنسان في تنقلاته وأسفاره، فقد أوحى الله لنبيه، فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، سيقت البهائم المنتقاة، وأدخلت حظيرة أعدت لها داخل السفينة، وهنا أطلق نوح النداء الأخير للمسافرين: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

اكتملت أعداد المسافرين وسط اتساع أعين المشركين، الذين ابتلعوا ألسنتهم، وتلاشت سخريتهم، ولم يبق سوى زوجة نوح وابنه المعاند. بدا المشهد مخيفًا ومرعبًا، حين بدأ فوران الماء يزيد، والوجوم يكسو وجوه الوثنيين.. ارتفع الماء شيئًا فشيئًا.. ارتفع إلى مستويات غير مسبوقة.

وفجأة اهتزت الفلك.. ثارت حولها براكين الماء المخيفة.. دب الهلع في المكان، وتفرق المتفرجون الوثنيون.. فروا يبحثون عن ملاذات.. عن مرتفعات لا يصلها الماء.. يركضون هنا.. يهربون هناك.. ينطلقون هلعًا في كل اتجاه، والنوافير العملاقة تتفجر تحت أرجلهم.. تطوح ببعضهم كالبراكين.. لم تكن الأرض وحدها غاضبة.. السماء بدأت تقصف.. انشق الغمام الأسود شلالات عملاقة وهائلة.. اختفت الأرض.. الأرض ماء، والسماء ماء، والأمام ماء، والخلف ماء، وكأن الكون ماء.. طفت السفينة العملاقة، والوثنيون صراخ.. بعضهم يتسلق شجرة، والبعض يتشبث بخشبة، وآخرون يركضون نحو الجبال، واليائس يحاول ملامسة السفينة، التي كان يسخر منها بالأمس، لكن الطوفان حوت يبتلع كل شيء، وفجأة صاح نوح من الألم.

نوح يصيح من شدة الألم

مخرت السفينة عباب السيل.. تشق أمواجًا كالجبال، بعد أن نزل الوحي على نوح صلى الله عليه وسلم يقول له: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، امتثل النبي الشكور، وامتلأت السفينة بحمد الركاب وتسبيحهم للجبار، وخلال اصطفاق الموج التفت نوح التفاتة خطفت قلبه.. فتى منعزل يصعد بصعوبة سفح جبل.. حدق به فإذا هو فلذة كبده، فاجتاحته عاطفة كالأمواج وصاح به: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، التفت الفتى ونظر لأبيه، وقد أخذته العزة بالإثم، و﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، فصاح نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، وقبل أن يجيب الابن المغرور ارتفع سد هائل بينهما.. جدار هائل من الأمواج ابتلع الابن ومضى بينما كان الربان على حافة السفينة يحدق.. ينتظر رد ابنه التعيس، لكن كل شيء قد اختفى.. اختفى الجبل والابن والكلمات، ولم يبق سوى الحسرات تمزق قلب الابن الحنون ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، موج هائل ابتلع الابن ومضى، فلم يعد نوح يرى ابنه.

نزف قلب النبي الحنون، الذي استنفد كل طاقته في إقناع هذا الابن العاق، الذي هوى مع بقية الوثنيين للقاع، بينما كانت السفينة ترتفع.. تعلو بالمؤمنين ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾، وهم يتمسكون بمقاعدها.. بسواريها.. بحوافها، وقبل ذلك بوعد ربهم، وهي تمضي بهم، متجاوزة أرض العناد، والأصنام التي غرقت، وغرقت معها صناديدها.

ذابت الوثنية في مياه الطوفان.. لم يعد فوق الماء سوى التوحيد وأهل التوحيد، وبعد مدة من السفر لا يعلمها سوى الله نزل أمر الجبار سبحانه: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾.

بدأ السحاب المحارب يغادر سماء المعركة، وتوقفت براكين الماء، وبدأ غضب الأمواج يهدأ، وقلوب الركاب تهدأ، وبعد مدة علت الابتسامات، وابتهجت النفوس، وفاضت دموع السعادة أمام مشهد ساحر.. ماء وسماء وسحابات متفرقة، تتخللها أشعة الشمس، وتصبغ الأفق بألوان الطيف.. بدأ منسوب الماء ينخفض، والسفينة تنخفض وتنخفض، حتى اقتربت من مكان يسمى الجودي، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾، ورست عليه، فارتفعت أصوات الشكر، وفاضت العيون، امتنانًا لله سبحانه.

توقفت السفينة، لكن مشاعر الأبوة لم تتوقف، ولهب الفقد لم تطفئه مياه الطوفان، فقلب نوح لا يزال يحترق على ابنه، فالله أمره بإركاب أهله في الفلك، وابنه من أقرب أهله، لذا توجه لربه حزينًا مناشدًا متسائلًا، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ماذا بعد نوح؟

احترق قلب النبي نوح صلى الله عليه وسلم على ابنه، وهو يتذكر وعد الله، لذا توجه لربه حزينًا مناشدًا متسائلًا، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وإذ بالجبار سبحانه

يصحح له معلومة خاطئة.. قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

أفاق نوح.. وفتح الوحي عينيه على مسؤولياته، فإرغام الناس على الإيمان ليست مهمة الأنبياء.. مهمتهم هي التعليم، ونشر الوعي، والقيادة. والقيادة لا تدار بالعواطف، ومتى ما حركتها العواطف أو الغرائز أوردتها المهالك، وبعد هذا العتاب الرباني، أدرك نوح أن الوثنيين ليسوا من أهله، وعلى ابنه تحمل ضريبة الحرية، التي أعطاها الله إياه، ودفع ثمن عناده.

هدأ نوح، وأدرك المسافة الشاسعة بينه وبين ابنه، فاستغفر ربه، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، ثم أفاق على كلمات ربه، تبشره بالنصر المبين، وتفتح عينيه على المستقبل، حين أمره الله بالنزول، وقال: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

هبط نوح، ولامست قدماه أرض التوحيد الجديدة، وهو يقول: ﴿رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، ظل نوح كثير الشكر والامتنان لربه، حتى امتدحه الله سبحانه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾، نزل الرجال والنساء والأطفال من السفينة آمنين مؤمنين، يرددون عبارات الشكر للكريم سبحانه، وتوجه البعض نحو تلك الحظيرة، وأخرجوا الحيوانات منها، ثم أنزلوها بطريقتهم من السفينة.. انتشر المؤمنون كالحب على تلك الأرض البكر، واستقروا فيها، وعمروها بالتوحيد، ورعوا فيها، وزرعوا، وصنعوا، وكثروا وكثرت بهائمهم، ومرت الأعوام تلو الأعوام توحيدًا وعدلًا، ثم شاخ نوح صلى الله عليه وسلم، وضعف ضعف الموت وآن الرحيل.

كان أحد أبنائه المؤمنين عند رأسه، فنظر إليه صلى الله عليه وسلم بعينه وقلبه، وأوصاه قائلًا: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع، لو وضعن في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن، ثم أوصاه بسبحان الله وبحمده، قائلًا: إنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء[3]. ثم نهاه صلى الله عليه وسلم عن أمرين خطيرين ومهلكين.

عودة الشرك بعد نوح

أوصى نوح ابنه وهو على فراش الموت، فقال: «آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع، لو وضعن في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء، وأنهاك عن الشرك والكبر»[4].

لم يكن نوح يقصد بالكبر لبس فاخر الثياب والأحذية، وسكن الفخم من المنازل، واقتناء أفخر المراكب، ولا أن يحف بالمرء خدم أو حشم أو أصحاب يجلسون إليه.. الكبر الذي حذر منه نوح هو باختصار: (سفه الحق، وغمص الناس)[5]، أي رفض الحق، واحتقار الناس.

بعد تلك الوصية البليغة بمدة فارق نوح الحياة، بعد عمره المديد بالنضال والدعوة ونشر الوعي، فبكاه أهله وأبناؤه وأحفاده، وبكته أمته، وظلت تحمل رسالته من بعده، جيلًا بعد جيل.. رسالة التوحيد والعدل، وكثر أحفادهم، حتى أصبحوا شعوبًا وقبائل، ثم تفرقوا في قارات الأرض.. يروون للأجيال قصة التوحيد والطوفان، الذي اجتاح أرض الأجداد.. تفرقوا فتشققت من لغتهم التي لا يعلمها إلا الله لهجات، ثم تطورت تلك اللهجات إلى لغات، ونشأت من بين تلك اللغات اللغة العربية، وقد انتشرت القبائل الناطقة بها في منطقة على شكل شبه جزيرة، سميت فيما بعد شبه الجزيرة العربية، ومن بين تلك القبائل قبيلة استقرت في جنوبها.. قبيلة يقال لها (عاد).. سكنت مناطق تتوافر فيها الواحات الشاعرية والعيون العذبة.. في مساحات تمتد من حضرموت إلى عمان.

منطقة جميلة، يقال لها (الأحقاف)، والأحقاف كثبان رملية، أقل من الجبال ارتفاعًا.. كثبان تتشكل بطريقة طولية ومائلة جميلة، ويمكن اليوم رؤية خطوط تلك الأحقاف الرملية البديعة عن طريق صور الأقمار الصناعية، وكان أهلها قد برعوا في بعض الحرف، حتى أصبحت بلادهم مضرب المثل في الإتقان.. اشتهروا بفن البناء، كما برعوا بصنع الخيام الضخمة، ذات العماد الطويلة.. يتفننون في صنع تلك الخيام وجاهة وترفًا.. إنها ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، مرت سنوات طويلة، وإرم على التوحيد، تزداد قوة ونهضة، لكنَّ وباءً خطيرًا بدأ ينتشر في تلك البلاد الجميلة، وبين تلك الأمة القوية.. وباء متى ما حل بأمة قوَّضها وجعلها آيلة للسقوط، حتى لو كانت عملاقة ومهابة بين الأمم.

هود بن إرم

تغيرت قبيلة (إرم) الموحدة، التي حكمت جنوب الجزيرة العربية.. تسلل الغرور إليها.. أصبحت مزهوة بقوتها.. خاصة عندما انتشر بين قادتها وأفرادها شيء يهدد وجودها.. الشرك بالله، والظلم.. مصيبتان تعلنان بداية النهاية للأمم القوية. أصبحت (إرم عاد) باطشة ظالمة، وتفاقم الظلم والزهو حتى تجاوز الحد، وفي أجواء الغرور والوثنية تلك ولد طفل سماه أهله (هود).

نشأ هود على توحيد الله، ليكبر فيزيده الإسلام وعيًا وإدراكًا بتفاهة عقول تعبد خشبًا، تنجرها بأيديها، أو حجارة تقدها من جبل.. ظل هود بعيدًا عن أصنام قومه.. مناجيًا خالقه، وفي أحد الأيام هبط عليه جبريل عليه السلام بالوحي، وأخبره أن الله سبحانه قد اصطفاه رسولًا، وأمره بالدعوة للتوحيد والعدل، فالله هو وحده الخالق والرازق ومالك الملك، وأعظم ذنب عنده هو الشرك.

امتثل هود صلى الله عليه وسلم، وبدأ يدعو قومه، فإذ بمأساة نوح تتكرر.. رماه قومه بالسفه، واتهموه بالكذب، فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾، لكن إرم ركبوا رؤوسهم.. رفضوا أن ينصتوا لنبي نشأ بينهم. حاول عليه السلام إنعاش ذاكرتهم بما حدث لأسلافهم قوم نوح، وقال: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

ظل يطوف بين سكان تلك العيون والواحات الساحرة والخيام المميزة.. يناشدهم التعقل، لكن صلفهم زاد، فلم يُسلم إلا قلة منهم، لكن هودًا لم ييأس.. ظل يحذرهم من الاغترار بما وصلوا إليه من قوة اقتصادية وعسكرية، ومظاهر عمرانية مبهرة، وأن عليهم شكر الله، فهو من أمدهم بأسباب القوة، وهو قادر على سلبها منهم في أي وقت، قائلًا: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وإذ بالحجة البليدة تتكرر: الأصنام تراثنا وميراثنا الثقافي، ولن نتخلى عنه مهما قلت، و﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.. مرت سنوات لكن عناد إرم لم يمر، بل ازداد وتفاقم، حتى ارتكبوا شيئًا محا إرم، وطوَّح بخيامها تلك الأحقاف.

حين تمطر السماء عذابًا

أصيبت إرم بالغرور.. استخفوا بكل شيء، حتى قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، تجاهلوا مناشدة ابنهم البار (هود صلى الله عليه وسلم) بالتعقل.. تجاهلوا تذكيره بعذاب الله للمتجبرين، الذي أصاب قوم نوح، لكن صناديدهم كرروا تهور صناديد قوم نوح، حين طالبوه أن يأتيهم بالعذاب قائلين: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

حينها اشتد غضب هود لهذا الصلف والاستخفاف بقوة الجبار سبحانه، ومن أجل ماذا؟ من أجل أخشاب وصخور يستطيع حتى الأطفال صنعها، لذا دعا عليهم، وقال: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾، لم يكترث أولئك المتغطرسون، بل كابروا وقالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، وفجأة نزل الوحي يخبره أن الوقت قد حان، وأن على المؤمنين المغادرة.

توجه هود لأتباعه فأمرهم بالاستعداد للرحيل المر، لينطلقوا بعدها نحو بيوتهم.. يجمعون أمتعتهم وما يحتاجونه، ثم شدوها على ظهور جمالهم، وودعت قلوبهم مراتع الصبا والذكريات، وعيونهم تفيض حزنًا على تلك العيون والواحات والذكريات، وما أقسا الرحيل عن الأوطان. أخذوا أزمَّة

مطاياهم عبر الواحات.. بين الخيام العملاقة والنخيل الباسقة، ثم بدأت أقدامهم تنقش خطوات الوداع على الرمال.. غابت قافلتهم.. ترفعها أحقاف، وتخفضها أحقاف، فتتنفس الطواغيت الصعداء، فلن ينغص الدعاة عليهم بعد اليوم عبادة أصنامهم ولا عبثهم، بل شعروا أن رحيلهم فأل حسن، فها هي السماء تحتفل معهم بسحاب، يحمل مطرًا، تتلمظ لقطراته الصحراء.. ابتهجوا، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

اقبل السحاب، ولما اقترب تغير.. أصبح داكنًا جدًّا.. أظلمت الأرض، وكأن الليل قد هبط قبل أوانه.. اقترب فإذا هو ليس بسحاب، بل إعصار يطاول السماء، يلتف حول نفسه.. يتلوى كقمع هائل، يكبر ويتضخم حتى سد الأفق.. خيم الليل في رابعة النهار، وتلاشى الحلم بالمطر.. بدأت حواف القمع تصل.. تملأ الأفواه والعيون والبيوت بالرمال.. فإذا هي ريح عقيم.. صرصر عاتية، تقتلع من في طريقها.. تقتلع الأعمدة الضخمة، وتجتث الخيام، تقل أطنانًا من الرمال، وكأنها تطوح بالأحقاف على إرم. كل شيء فوق الأرض يطير: الكثبان.. الجرائد.. الآلهة.. العسبان.. النخيل. وحتى الإنسان.

أسبوع بين السماء والأرض

إرم يبتلعها الإعصار.. أجساد الأحياء وجثث الأموات، تتطاير طوال اليوم.. طوال الليل. دخل اليوم الثاني في الظلام، وكأن الإعصار قد طوح بالشمس.. أقبل اليوم الثالث والرابع والخامس وكذلك السابع بلا شمس بلا طعام أو شراب، من لم يمت بالريح مات جوعًا أو عطشًا أو تحت الرمال.. لا الليل ليل ولا النهار نهار.. رعب لا يتوقف، ولا يستثني أحدًا، وفي اليوم الثامن بدأت الريح تخف شيئًا فشيئًا حتى توقفت، وكأنها لا تريد التوقف غضبًا للجبار سبحانه.

هبطت حبات الرمال الغاضبة على الأرض، وانقشع الظلام، وظهرت الشمس لأول مرة منذ أسبوع، فإذا الأرض غير الأرض.. لا عيون ولا آبار ولا واحات ولا نخيل ولا خيام ولا أصنام.. انطمرت تحت ملايين الأطنان من الرمال. أشرقت الشمس فإذا مدينة إرم بقايا مساكن.. امحت أمة أنساها الغرور قوة خالقها.. أصبحت كثيب رمل وقصصًا تروى، بينما أصبح هود وأصحابه عليه السلام على أرض أخرى آمنة برحمة الله.. يعمرونها ويعيدون الاستفادة من خبرتهم التقنية في التشييد والإبداع بالتوحيد والعدل، لتمضي السنون، وتمضي سنة الله، فيكبر هود ويشيخ، ثم يموت ويموت صحابته، فتتلوهم أجيال من بعدهم أجيال وقبائل على التوحيد.. انتشرت في الأرض، وقد رحل بعضهم ليسكنوا بلادًا في جهة الشمال.. راقت لهم تضاريسها، فتفننوا في التعامل معها، حتى حولوها إلى أغرب بلاد الأرض.. يدخلها المسافر فيحتار: أبيوت هي على شكل جبال، أم جبال على شكل بيوت، أم معارض فنية في الهواء الطلق؟

تلك كانت المدائن أو ما يسمى بـ(الحجر): جمال ورمال ونخيل وبساتين ومنحوتات أبدعتها. قبيلة عربية أخرى تدعى ثمود توحد الله، وتبرع في فن النحت.. تتفنن في تحويل الجبل إلى قصر.. إلى بيت إلى نسر إلى سبع.. يمر بها المسافرون، فتدهشهم وتبهرهم، حتى تسلل العجب إلى نفوس أهلها، بعد أن امتلأت رؤوسهم بالمديح، فظنوا أن لا أحد مثلهم.

زهو أنساهم فضل خالقهم عليهم. هنا بدأ الانحراف، فبدلًا من أن يشكروا الله، ويستمروا في الإبداع.. انصرفوا للابتداع في الدين.. لم يعد النحت فنًّا فقط.. تعلقت الأجيال الجديدة منهم بالمنحوتات، فكسوها بالأساطير والخرافات، حتى غدت أصنامًا وآلهة يعبدونها، لتقربهم إلى الله، ثم تعلقوا بها ونسوا خالقهم سبحانه، وفي وسط هذه الثقافة بالغة التخلف، ولد طفل اسمه (صالح).

الآية المخيفة

كبر صالح على التوحيد.. مدركًا أن هذه المنحوتات مهما بلغ جمالها، تظل صماء، لا تنفع ولا تضر، فاصطفاه الله، وأنزل عليه الوحي؛ ليعيد قومه للتوحيد. حاول صلى الله عليه وسلم تفعيل عقولهم، قائلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾.

كان يذكرهم بنعم خالقهم سبحانه، والناس تحب من يحسن إليها بالقليل، فكيف تتنكر لخالقها ومانحها النعم، التي لا تقدر بثمن. استبد الغرور بقوم صالح، فلم يؤمن معه إلا قلة، أما الأكثرية فأعمت العادات والتقاليد عقولها وقلوبها.. تكرر الأقوال السائدة والنمطية، التي كررها قوم نوح وهود، وتقول: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، لكن صالحًا بين لهم أن دعوته ليست اختراعًا منه قائلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾، ظل يدعو وهم يكذبون، حتى أشرق ذلك اليوم المخيف.

يوم صمت فيه الجميع.. الشوارع والمارة.. اتسعت الأعين، وقطع المتحدثون أحاديثهم، وترك النحاتون تماثيلهم، والباعة بضائعهم ودكاكينهم.. تحولوا إلى تماثيل.. شلت المدائن.. شل كل شيء فيها أمام مشهد أخاذ.. نبي الله صالح صلى الله عليه وسلم يدخل المدينة، يتهادى في شوارعها، ومعه مخلوق مخيف، وكأنه يقتاد ديناصورًا ضخمًا.

ناقة عملاقة لا مثيل لضخامتها وطول رقبتها، ولا لارتفاع سنامها. من أين أحضرها؟ هل سيمزقهم بها، أم ستطحنهم بأخفافها، التي تهز الأرض.. نظرات السكان خائفة زائغة، لكن صالحًا صلى الله عليه وسلم طمأنهم، وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ثم ذكرهم بالنعم التي أغدقها خالقهم سبحانه عليهم، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي

ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

سكنت مخاوفهم من الناقة، لكنهم لم يستفيدوا من ظهورها، فظهورها آية على صدق نبوة صالح، لكن الجشع والوسوسة والمناكفة بدأت تقلقهم تسألهم: ما الذي سيكفي هذا المخلوق العملاق من طعام وشراب؟ وقبل أن يفصحوا عما بأنفسهم، بين لهم صالح طريقة التعامل مع الناقة.. طريقة أثارت تسعة مجرمين منهم.

الناقة والمجرمون التسعة

قدم النبي صالح صلى الله عليه وسلم لقومه الناقة آية من عند الله.. كانت ناقة وحيدة، وليس صحيحًا أن لها ولدًا (فصيلًا)، لكن منظرها الهائل جعل المشاعر حولها، تتحول إلى حكايات وقصص، تتزين بها مجالسهم، أما صالح صلى الله عليه وسلم فأرشد قومه أهل الحجر إلى طريقة التعاطي معها، وهي أن يتناوبوا على ورود العين، بحيث يشربون يومًا، ثم يتركوا لها العين، لتشرب هي في اليوم الذي بعده.

ثم كرر صلى الله عليه وسلم تحذيره من المساس بها، قائلًا: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، فهي آية على صدق نبوته، وهم من طلب آية تدل على صدق نبوته، لكن كل من يختلف معك قد يتفق يومًا، إلا المعاند والحاقد، وهؤلاء المعاندون شعروا أنهم تورطوا بهذه الآية، ووجودها بينهم يحرج بقاءهم على الوثنية.. وجودها يثبت صحة نبوة صالح، وهو أمر يثير جنونهم، لا سيما وهم لا يعلمون مدة بقائها، فكلما طالت مدة بقائها طال إحراجهم، لذا انقسم أهل الحجر حول الناقة، ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

قسم مع الحق مع التوحيد والعدل.

وقسم آخر مع الفوضى والوثنية وتقديس العادات والتقاليد.

أما الناقة فظلت تجوب الحجر، وتدهش المدائن.. يتمايل سنامها الضخم في الطرقات، وهي تدب دون قائد في اليوم المحدد لشربها، ثم تتوقف أمام العين، فتخفض رأسها، وتحني رقبتها العملاقة، لتعب من الماء حتى ترتوي، ثم يحلبونها بكميات هائلة، تزيد يقين المؤمنين، وشكر الشاكرين، وتثير حقد الوثنيين، وتُشعرهم بالهزيمة فيزدادون صلفًا.

مرت الأيام والحقد يتورم، كسرطان في نفوس الوثنيين، وكان من أشرسهم ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، تسعة أشقياء يعرفون الحق، ويصرون على حربه، فالحقد ينغص عليهم طعامهم وشرابهم، ويقض مضاجعهم.. لهم وشوشة في الطرقات، كلما رأوا صالحًا وما جاء به..

بدؤوا يعقدون الاجتماعات علهم يصلون إلى طريقة، يتخلصون بها منه، فلن يطيب لهم عيش، إلا بالتخلص منه، ولن يطيقوا الحجر، وهو يمشي على ثراه.. طفح كيلهم، فعقدوا اجتماعًا أخيرًا.. تداولوا الأفكار الشريرة، وبعد التداول والتشاور انتهى الاجتماع، وتفرق الأشرار التسعة بعد أن اتفقوا على أمرين: أحدهما أسوأ من الآخر.

أمران أقسموا على عدم التراجع عنهما مهما كانت الأسباب.

من هو قدار بن سالف؟

عقد الوثنيون الأشرار التسعة اجتماعًا حاسمًا، اتخذوا فيه قرارين: الأول: القضاء على صالح صلى الله عليه وسلم وأسرته، ثم القسم على إنكار أن لهم يدًا في المجزرة، وقد حكى القرآن ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

أما الأمر الآخر، فهو القضاء على آية صالح، ودليل صدقه، وهي (الناقة)، لأن بقاءها وترددها بينهم يعني المزيد من الإحراج، وقد تطوع للقيام بالجريمة الثانية شقي يميل لونه للحمرة، اسمه (قدار بن سالف). انفض الاجتماع بحماس شديد، بينما كان الشر يفرك يديه فرحًا.

مرت الأيام وجاء موعد الغدر بصالح وعائلته، لكن العملية أجلت، ربما لصعوبة المهمة وكثرة المستهدفين، لذا تم الانتقال للخطة الثانية، وهي عقر الناقة، لأنها هدف واحد، وهدف سهل.

حدد الأشقياء موعد التنفيذ، وتصدى الأحيمر (قدار بن سالف) للمهمة، وفي اليوم المحدد تسلل المجرمون الثمانية: كالحيات لرصد الطرقات المؤدية إلى مكان الناقة.. يتلفتون، يرصدون، ويتهامسون، حتى خلت لهم الطرقات، وصفت الأجواء، وأصبحت الناقة لوحدها، وإذ بقدار يتعاطى رمحه أو سهمه، ويقبل كالشيطان نحوها.. وضع سهمه القاتل في كبد القوس، ثم شد الوتر إلى منتهاه، ثم أطلق السهم قذيفة، شق أزيزها الهواء، حتى اخترقت جوف الناقة.

دوى في الحجر صوت رغاء هائل.. رغاء رددت الجبال صداه، فانقشع الجناة من الطرقات، وفروا من مكان الجريمة كالفئران، لكنهم تركوا بصماتهم عند علام الغيوب. انفجر جرح الناقة العملاقة شلالًا من الدماء، وبدأت تترنح، ورقبتها تتمايل، ورغاؤها الحزين يذيب القلوب.

فتحت الأبواب، وخرج أهل الحجر من البيوت فزعين.. نزفت الناقة ونزفت، ثم هوى جسدها الضخم بالأرض، وارتطم ببحيرة الدماء، فتطاير الدم حولها، وكأنه يستنجد.. ظلت رقبتها تتلوى، تتلون بالدم من الألم، ورغاؤها يخفت شيئًا فشيئًا حتى اختفى، وسكنت الناقة سكون الموت، وكأن قلب المدائن قد توقف.. صعق المارة ببركة الدم، وركض البعض يصيح.. يخبر صالحًا بما جرى..

صُدم صلى الله عليه وسلم بالخبر، فأقبل مفجوعًا، ثم توقف أمام الساحل الأحمر.. يتأمل الناقة الغارقة، يتأمل آية الله بعينين غارقتين، وإذ به يأمر أتباعه بأمر مخيف.

تمتعوا ثلاثة أيام فقط

أقبل النبي صالح صلى الله عليه وسلم نحو الناقة مفجوعًا، ولما توقف أمام بحيرة الدم، تأمل آية الله بعينين تفيضان.. أوجعه صلف الوثنية، وغطرسة طواغيتها.. انتهت المدائن بالنسبة له، ولم يعد في الحجر الحبيبة متسع، لذا توجه نحو عيون أصحابه الدامعة حزنًا، وطلب منهم التأهب للرحيل، فانطلقوا على الفور نحو بيوتهم وبساتينهم، يجمعون أمتعتهم وطعامًا يبلغهم في سفرهم، ثم التفت صالح بحزن إلى قومه المتكبرين، الذين أمضى معهم عشرات السنوات من التنوير والدعوة للتوحيد.

حدق بوجوههم الصفيقة المبتهجة بقتل حيوان، كل ذنبه أنه دليل على صدق التوحيد، وصدق نبيهم، وأنه يمدهم بالغذاء، لكن صالحًا ليس هو من سيغادر رغم رحيله.. هم من سيغادر رغم بقائهم. تأمل عيونهم، التي يتطاير منها الشرر، وتصفح تقاسيمهم المتشفية، ثم نطق بأحرف كالموت: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾.

سارت قافلة المؤمنين خلف نبيهم، الذي اعتصر قلبه حزنًا، وهو يودع دياره.. ساروا بين الجبال المنحوتة، وقلوبهم تعصف بها لوعة فراقها.. تركوا المدائن للوثنيين، الذين اختلطت مشاعرهم: منهم الفرح بمغادرة المؤمنين، حتى تخلو لهم أجواء الفساد والوثنية، وهناك الإمعات التي تقاد.. لا تعرف معروفًا، ولاتنكر منكرًا.. إمعات تتساءل: لماذا ثلاثة أيام. ها قد غابت شمس اليوم الأول، ثم طلعت شمس اليوم الثاني ثم غابت، ثم طلعت شمس اليوم الثالث وارتفعت، فارتفعت معها مشاعر الترقب والقلق، ثم غابت، وفي صبيحة اليوم الرابع صحا الوثنيون من نومهم المضطرب.

وفجأة فتحوا عيونهم لكنهم لم يغلقوها.. دوت صيحة هائلة في سماء المدائن.. صيحة صدعت الجبال، وارتجفت منها الأرض، وخلعت القلوب، وانتزعت الأرواح ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

أصبحت ثمود متحفًا مهجورًا للتماثيل والجثث.. اكتسحتها غزوة بلا غزاة، فإذا هم قتلى بلا سيوف بلا رماح، فالدم المسفوح كان دم الناقة فقط.. جثث هنا وجثث هناك.. جثث في الغرف والممرات والأبواب وعلى الأسطح وفي البساتين والطرقات والساحات، وغربان هنا ونسور هناك.. تنقر الجماجم والعيون، وتبقر البطون، وتلتهم الأحشاء.. لم تعد المدائن جميلة.. لم يعد أحد يريد النزول بها، ولا الشرب من مائها.. كل الذي يفعله العابرون هو تغطية الأنوف، فرائحة المدائن تزكم الأنوف عفنًا.

إبراهيم في العراق

لم تعد مدائن صالح جميلة.. لم تعد نظيفة.. تناثرت على أرضها الجثث.. تنهشها الحيوانات الرامة والنابشة، وازدحمت السماء بالغربان والنسور.. كان ساكنوها يتطيرون، ويتشاءمون بصالح وصحابته المؤمنين، ويقولون له: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾، فحولتهم الغطرسة إلى مدينة مشؤومة.

المدائن الفاتنة أصبحت مدينة أشباح، تجوبها الغربان والرعب، أما صالح صلى الله عليه وسلم فعلم بما جرى، وأن قومه ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، صاعقة دمدمت عليهم حتى أفنتهم، فخاطبهم من بعيد بعد أن تولى ﴿عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، حل المؤمنون في أرض جديدة، فعمروها بالتوحيد والإبداع والعدل، ومرت القرون تلو القرون، والحجر مهجورة تبكي التوحيد.. تبكي صالحًا وأصحابه الطيبين، ويبث صمتها شوقًا للأحبة لا يطاق.. عاد التوحيد للانتشار، لكن الشيطان ظل يوسوس للبشر.. يغريهم بالشرك.. بعبادة الحجر والشجر وحتى البقر.. بعبادة أي شيء.

المهم عند الشيطان أن لا يعبدوا الله وحده، ومن العبادات التي انتشرت.. عبادة الكواكب خاصة في العراق والشام، وكان في العراق رجل وثني اسمه آزر، وقد رزق بعدة أبناء، من بينهم طفل سماه إبراهيم.. نشأ الطفل في تلك البيئة، لكن عقله كان أكبر من أن يكون وعاء للتقاليد البالية.. تزوج من فتاة عاقلة، بارعة الجمال تدعى سارة.. كان كثير التأمل لهذا الكون وكواكبه، فأدرك أن له خالقًا ليس كمثله شيء، لذا فهو وحده سبحانه يستحق العبادة، أما تلك الأصنام فليست سوى حجارة، لا تصلح حتى للزينة، فاصطفاه الله لرسالته، وأنزل عليه الوحي، وأمره بإيقاظ قومه.

بدأ إبراهيم صلى الله عليه وسلم بالأقربين.. بدأ بأبويه. خاطب والده بأسلوب عذب ولطيف، فقد كان إبراهيم متعلقًا بأبيه.. يحبه ويجله، ويتمزق قلبه وهو يراه على الوثنية لذا خاطبه، قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾، العقل يقول ذلك، والوحي يؤكده، وأن ما سوى التوحيد هراء وتخاريف، فلا الأصنام تنطق أو تتحرك أو تمنح أو تمنع.. كان إبراهيم متعلقًا بأبيه.. يحبه ويجله، ويتمزق قلبه وهو يراه على الوثنية. قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾، لكن يبدو أن قلب الوالد قد قسا، كتلك الحجارة التي يعبدها.. انفجر في وجه ابنه البار، وهدده برجمه بالحجارة إن لم يكف عن دعوته للتوحيد.

حوارات إبراهيم

لم يتراجع النبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم عن دعوة والده، وكيف يتراجع ورؤية والده عاكفًا على الأصنام كالخنجر في قلبه، وهل هناك أقسى على قلب ولد بار من رؤية والد مشرك يعبد غير خالقه سبحانه، لذا توجه إلى أبيه آزر، وأخبره عن الشيطان، الذي لن يقنع من ذرية آدم إلا بالركوب معه للجحيم، وقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾.

انتفض آزر.. فقد صوابه.. أخذته العزة بالإثم: كيف لطفل الأمس أن يوجه أباه الذي وخطه الشيب.. غلا تعصبه للموروث على العقل، وقدم التقليد على التفكير، فطلب من ابنه إبراهيم عدم التحدث معه في هذا الموضوع، بل هدده قائلًا: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾، شعر إبراهيم بحزن شديد على أحب الناس إليه.. والده الذي يريده أن يكون من أهل التوحيد والجنة.. نظر إليه بعينين تفيضان رحمة، وخاطبه بكلمات تقطر برًّا، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾.

خرج صلى الله عليه وسلم من عند والده مجروحًا، لكن النبوة أمانة، والتوحيد رسالة، ولا بد أن يوصلها لكل فرد من قومه، وخسارته لوالده لا تعني إهمال غيره.. توجه لقومه في أنديتهم وأسواقهم وشوارعهم وبساتينهم، وحتى في بيوتهم.. لم يترك وسيلة ناجعة إلا استخدمها، ولاحجة إلا أفحمهم بها.. يخاطب عقولهم: كيف يقارنون خالقهم العظيم بجذع نخر أو صخرة صماء، ﴿قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا ﴾، نبههم إلى أنهم عائدون إلى الله، فبم سيجيبونه غدًا؟ وقال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾.

انتفض الوثنيون انتفاضة والده آزر.. طلبوا أن يكف، ففي تراثهم الوثني ما يكفي، قائلين: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، ثم أخبرهم أنه حامل رسالة، ولا طموح له بمنصب أو جاه أو مال، حتى يتهموه.

ذكرهم بشيء مفزع.. ذكرهم بمصير الأمم الطاغية قبلهم، قائلًا: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾، كانت غربة إبراهيم مرة.. لم يؤمن به سوى زوجته وابن أخيه (لوط)، ولا يسليه سوى ذكر ربه، حتى إنه طلب منه سبحانه يومًا طلبًا غريبًا.

إبراهيم والطيور الأربعة

كان الرسول إبراهيم صلى الله عليه وسلم يعيش بين قومه في غربة، لا يذهبها سوى مناجاة ربه وحبيبه سبحانه، حتى إنه طلب من ربه طلبًا غريبًا، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾، فقال له الجبار: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِن ﴾ فقال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾، فأوحى إليه: أن يأخذ أربعة طيور، ثم يقطعها

كيفما شاء، وقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أخذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم الطيور الأربعة، ثم ذبحها وقطعها قطعًا، ثم خرج حتى أصبح بين مجموعة من الجبال. انطلق نحو جبل، فصعده ووضع قطعة على قمته أو سفحه، ثم اتجه نحو ذاك الجبل، وكرر فعله.

ظل إبراهيم يصعد هذا الجبل، وينحدر من ذاك، حتى انتهت القطع، ثم مشى حتى أصبح في نقطة تحيط بها كل تلك الجبال، ثم توقف، وقلبه يخفق بانتظار معجزة خالق السماء والأرض، وما بينهما من مجرات ومخلوقات.. الجبار الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، ثم رفع صلى الله عليه وسلم عقيرته، وصاح بالأوصال.. هتف بمزع اللحم يناديها.

وفجأة اقشعر بدنه، وزاد خفقان قلبه، وسبح ربه، وهو يشاهدها تلتئم، ترفرف في السماء، ثم تقبل عليه؛ لتستقر بين يديه اللتين قطعتها قبل قليل.. آية شحنته يقينًا ومعنويات، لا حدود لها، فتناسى عناد قومه، وعاد لدعوته بطاقة لا حدود لها.. ظل يدعو باللطف بالحسنى، فلم يجد إجابة، لا من بقية عائلته، ولا من قومه، بل تفاقم عنادهم، وتعاظم تعصبهم، فالتقاليد والموروثات أمست كالجرح المتعفن، وتطهيرها سيثير ألمـًا لا يطاق، ويحتاج إلى عزم، وإبراهيم من أولي العزم، لذا قرر صلى الله عليه وسلم القيام بصدمة، قد توقظهم من هذه البلادة والغباء، فاختار للقيام بذلك وقتًا ملائمًا، وهو ليلة احتفالهم بمناسبة وثنية، يقدمون فيها طقوسًا أو طعامًا وقربات لأصنامهم.

نظر إبراهيم للسماء، وحدق بالنجوم.. إنه الموعد، وها هم في طريقهم لاحتفالاتهم وبعض قومه ينادونه للمشاركة. اعتذر إبراهيم، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فانصرفوا وتركوه، وفي أثناء انصرافهم همس صلى الله عليه وسلم قائلًا: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

سمعه بعضهم، لكنهم لم يأبهوا، بل توجهوا لمعبدهم، وقاموا بطقوسهم، وقدموا قرابينهم لأخشابهم وحجارتهم، التي يسمونها آلهة، بينما كان صلى الله عليه وسلم يراقب من بعيد.

انتهت الطقوس، وبدأ الكهنة والزوار بالمغادرة، حتى خلا المعبد، وساد فيه الصمت، ولما خلت الطرقات تسلل إبراهيم نحو المعبد يحمل فأسًا.

القبض على إبراهيم

دخل النبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم المعبد بعد انصراف الوثنيين.. يحمل بيده اليمنى فأسًا، أو أداة معدنية، تستخدم لتحطيم الصخور أو الاحتطاب. وقف الخليل أمام مدخل المعبد.. جال بصره بداخله، فلم يجد فيه حركة، سوى انتفاض ألسنة لهب المشاعل.. تهادى بين الأصنام البليدة، ثم وضع

الفأس على الأرض، ثم مد يده والتقط طبق طعام تركه قومه بعد احتفالهم، ثم تهادى به حتى وقف أمام أحد الأصنام، ومده نحو فمه.

حدق بوجهه، الذي تلونه أضواء المشاعل، ثم خاطبه وخاطب غيره من الأصنام، قائلًا: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟، لم تتحرك تلك الشفاه الصخرية، وساد الصمت، فصاح في وجوهها: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟، ولو رآه أحد عابديها لقال: لقد جن إبراهيم، كيف يخاطب حجارة؟ لكن الوثني لن يسأل نفسه: كيف أعبدها؟ طاف إبراهيم بينها، فلم يجد إجابة، فوضع الطبق على الأرض، فاليوم ليس يوم طعام، ثم انحنى نحو فأسه، والتقطه بيمينه، ثم عاد لإكمال حواره.

وإذ بالفأس ترتفع في الهواء، ثم تهوي كالقذيفة على هاماتها البليدة، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، ضربة بعد أخرى.. تتوالى الضربات، والجدران تردد صدى الضرب، وارتطام الحطام بين بقايا الطعام، والأصنام تترنح.. تتشقق.. تتحول إلى شظايا ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ثم وقف أمام أكبر الأصنام فلم يحطمه.. تركه شاهد عيان، ثم ألقى الفأس عنده، وغادر المعبد بعد أن حول الآلهة إلى نفايات.. منتظرًا نتيجة الصدمة، التي ستدوي غدًا؟

ارتفعت الشمس، واستيقظ كهنة الدجل، ثم توجهوا نحو معبدهم، ومصدر رزقهم.. دخلوا ببطء، لكنهم خرجوا بسرعة، للشوارع، للميادين، يصرخون، يولولون. لم يستغيثوا بآلهتهم. كانوا يستغيثون لآلهتهم.. لشظايا آلهتهم.

علا الصراخ واللطم والعويل في الطرقات، ففتحت الأبواب والنوافذ، وأطلت الرؤوس تتلفت.. تبحث عن مصدر الصوت.. انطلقت عشرات الأسئلة، فانتشر خبر التحطيم، فخرج الوثنيون مذهولين.. أطلقوا سيقانهم نحو المعبد، ولما دخلوا اتسعت أعينهم، وتعالى الصياح: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، امتلأ المعبد بالضجيج.

وفجأة صاح الذين سمعوا إبراهيم، وهو يهدد الأصنام، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، أجل.. إبراهيم، ومن غيره؟

صدر أمر الكهنة بالقبض عليه، و﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾.

اتركوا إبراهيم فالجاني أمامكم

انطلقت مجموعة من الوثنيين تبحث عن رسول الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فلم يجدوا صعوبة في العثور عليه، فتم اقتياده مخفورًا نحو مكان النفايات، وهو في غاية السكينة، كان يتهادى بهدوء،

عبر سرادق من الوجوه المكفهرة.. تكاد تحرقه بنظراتها وشتائمها، حتى أوقفوه أمام كبار الكهنة المتاجرين بعقول البسطاء، ليبدؤوا استجوابه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾؟.

تأملهم، فقرر كشف حجم عقولهم.. رفع يده، ومدها نحو أكبر الأصنام، فالفأس تحته، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾.

اضطرب المعبد، ونظر الوثنيون إلى بعضهم، وتعالى الضجيج واللغط، بل هناك من اعترف، وأيد إبراهيم قائلًا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، نجح إبراهيم في تفعيل تلك العقول الخشبية، فتساءلت: كيف نلومه، والفأس بين يدي صنمنا الأكبر؟ ألا يمكن أن يكون هو الفاعل؟ أو ليس هو إلهنا؟

لكن، ألسنا نحن من قطعه من الغابة، أو قده من الصخر؟

شعروا بالخجل.. بالغباء، لأنهم لا يستطيعون طرح سؤال قصير ومباشر على الصنم، مع أنهم يدعونه، ويستغيثون به ليل نهار، ويقدمون له القرابين؟ سؤال من عشرة أحرف (أأنت فعلتها؟) لن يكلفهم طرحه شيئًا، لكنهم سينكشفون إن هم فعلوا.. يا لها من ورطة! وضعهم فيها الخليل صلى الله عليه وسلم.

فكروا وفكروا، فقرروا الفرار إلى الأمام.. إلى العناد: أجل إنهم سيعبدونها، حتى وإن كانت بكماء صماء. هنا وصف الله انتكاسهم وصفًا مذهلًا، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ نكسوا، وكأن عقولهم تحولت إلى أحذية ليست للتفكير، بل للتبرير.. تبرير العادات، فقال صلى الله عليه وسلم: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾.

تأفف إبراهيم من تفاهة العقول، وأدرك أن قومه أعداء للتفكير، قائلًا: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، ثم أعلن المفاصلة ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾، ثم كشف لهم الفارق بين الانحطاط والسمو.. وبين أخشابهم وبين خالق الكون سبحانه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾، كلمات أصابتهم بالجنون، فتشاوروا، وقرروا القيام بعمل أسوأ من الجنون.

محاكمة بلا قضاة

زلزلت كلمات إبراهيم صلى الله عليه وسلم المعبد والأصنام والوثنيين.. كلمات تفيض تمجيدًا وعرفانًا للخالق سبحانه.. كلمات تقول: لو أنكم عرفتم الله حقًّا لما عبدتم حجرًا أو خشبة من خلقه.

عجزوا عن الرد، فلجؤوا لحيلة الفاشل.. قرروا محو ملف إبراهيم تمامًا، فهو إن استمر في طرح أدلته العقلية، ووحي ربه المقنع، فسيكسب أتباعًا، ويسقط دينهم المزيف، لذا حبسوه، ريثما يقررون طريقة للتخلص منه، ثم عقدوا اجتماعًا تداولوا فيه كيفية ذلك، وبعد المداولات قرروا ما يلي:

أولًا: حرق إبراهيم حيًّا.

ثانيًا: تكون عملية الحرق مؤلمة لإبراهيم ورادعة لغيره، وذلك ببناء برج مرتفع، يوضع إبراهيم على قمته، ثم يرمى وسط نار عظيمة تحت البرج، ليشهد الجميع مصيره. قالوا: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾، تم إصدار الأمر بالبناء، فانطلقت سواعد العمال والبنائين تقد الصخر وتبني، وكلما وضعوا حجرًا دنا الموت من إبراهيم، وبعد أيام ارتفع البناء ارتفاعًا، يمكن الجماهير من رؤيته، وهو يهوي في النار.

تم تحديد يوم الإعدام، فانطلقت مجموعة من الحطابين، تحمل الفؤوس تجتث الأشجار اليابسة، ثم تحملها نحو البرج، حتى توافرت أمام مقدمته أكوام هائلة من الحطب. مرت الأيام وإبراهيم محتسب في زنزانته، ثم طلعت شمس يوم الإعدام على المدينة.

فتحت أبواب المنازل، فلم تنطلق الخطوات نحو الدكاكين والأسواق، ولا نحو المزارع.. خرج الرجال والنساء نحو البرج، مكان الإعدام. منهم من يمشي، ومنهم من يركض.. تسكنهم مشاعر مختلفة.. منهم الفرح كالكهنة وبقية الوثنيين، ومنهم من تختلط داخله مشاعر الحزن بالغضب كوالد إبراهيم، ومنهم ينفطر قلبه مثل والدته وسارة ولوط، اللذين أمضوا ليلة حزينة، وفارقهم فيها النوم، فلن يروا حبيب القلب بعد اليوم.. احتشدت المدينة خلف أكوام الحطب الهائلة، وقام بينهم وبين الحطب جلادون يحملون مشاعل اللهب، وسط صيحات الرعاع وحماسهم.

حضر كهنة المعبد، وقادة المدينة، وكبار القوم، ومن بينهم آزر والد إبراهيم، يسحب خطاه.. مد الجلادون المشاعل الملتهبة، نحو أكداس الحطب، فامتدت ألسنتها حريقًا هائلًا، واللهب يعلو، يلفح وجوه الحشود، ويتطاير منه الشرر، فيتراجعون اتقاء شره.

وفجأة دبت حركة لوت أعناق المتفرجين، وأدارت رؤوسهم.. خليل الله صلى الله عليه وسلم يسوقه الزبانية نحو البرج، وهو يرسف في قيوده، ثم بدأ يصعد نحو القمة، وهو في قمة الهدوء.

دعوة مظلوم على منصة الإعدام

جلبة وأصوات وحركة، لوت أعناق المتفرجين، أمام البرج وحول أمواج الجحيم.. وأدارت رؤوسهم.. حدقوا، فإذ بخليل الله صلى الله عليه وسلم يحيط به الجلادون.. يسوقونه نحو منصة الإعدام. أوقفوه وراء البرج، الذي تتأجج النيران أمامه، ثم بدؤوا يصعدون به، وإذ بمشاعره ترفرف

قبلهم نحو السماء نحو الله.. غير آبه بمن حوله من همج، يهتفون للأصنام والظلم، ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

كان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يلهج بذكر الجبار.. يلوذ به ويحتمي.. يستغيث به سبحانه، فاختفت أمامه قوى الأرض، فلم يعد يرى سوى قوة خالق السماوات والأرض، وفجأة أطبقت عليه قبضات الجلاوزة.. رفعته في الهواء، ثم طوحت به نحو ألسنة اللهب، وهو يردد الكلمة الملاذ.. الكلمة المعجزة، حين تخرج من القلب: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، فإذ بالكلمة الخالقة تقول للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

تعالى الضجيج وإبراهيم يطير في الهواء، ثم ينغمس بين أمواج النار، فيتطاير شررها وجمرها، ويزداد حسيسها. اختفى إبراهيم تمامًا خلف أسوار اللهب، وسط حماس الغوغاء، لكن حماسهم خفت شيئًا فشيئًا حتى اختفى. كانوا ينتظرون صراخه، أو استغاثته، أو حتى أنينه، لكنهم لم يسمعوا، ولم يروا له تخبطًا أو تلبطًا، ولم يشموا رائحة شواء.. انحبست أنفاسهم، وشلت ألسنتهم، لا يدرون ما الذي يجري داخل قلعة النار، ولا يستطيعون الاقتراب منها للتحقق.

وفجأة اتسعت أعينهم، وفغروا أفواههم، وتحنطوا أمام مشهد مخيف. ما هذا؟

إبراهيم يتهادى فوق الجمر وبين الشرر.. يخرج سليمًا بين أقواس اللهب، التي تقله وتظله، وكأنه يتنزه بين أغصان حديقة باردة الأنسام. لا حروق، ولا جروح، ولا حتى شعور بالحرارة.. ارتفعت التأوهات، وفاضت عينا سارة، وتهلل وجه لوط، وهما يريان قدرة الجبار، وضعف الطغاة، الذين شعروا بالجمر، ينتقل من قلب اللهب إلى صدورهم.

حدق إبراهيم في وجوه القوم، وكأنه يقول لهم: هل تريدون دليلًا أقوى من هذا على صدق نبوتي، وتوحيد ربي سبحانه، ثم غادر المكان تاركًا الجموع حطامًا كأصنامهم بالأمس.

توجه نحو ربه، الذي اصطفاه وابتلاه ونصره، فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، وإذ به وهو في أوج الانتصار يتلقى عتابًا من الله.

محطات خطيرة في الطريق للقدس

كان حب إبراهيم صلى الله عليه وسلم لأبيه حب الابن البار، الذي يحدب على شيخ عنيد قاس القلب، لكن الله كان أرحم بهذا القلب الطيب من أن يذهب من أجل عدو لله، لا يريد أن يرحم نفسه، لذا أمره أن يكف عن الاستغفار له، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ

إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، فهذا الشيخ المعاند لا يريد رحمة الله، ولا يأبه بها، ولا يقيم وزنًا لمن خلقه، وأعطاه السمع والبصر.

امتثل إبراهيم، ثم طلب من سارة ولوط الاستعداد للرحيل، فلا مكان لهم بين الوثنيين، فقال لوط لوالديه وأهله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

هاجر الثلاثة عليه السلام، مثقلين بوجع الفراق، فالأهل قساة، والأقربون تحولوا إلى أعداء.. امتطوا رواحلهم نحو الديار المقدسة في الشام.. يقطعون الفيافي والقفار.. بين الأودية والجبال، حتى مروا ببلاد يعبد أهلها الكواكب. ربما كانوا متأثرين بفلسفة ما، فبعض الفلاسفة يرون أن الكواكب والنجوم أطياف خالدة، أرقى من الإنسان، ولها تأثير على روحه، بل ليست ترابًا وصخورًا، كما اكتشف العلم الحديث.

حط المؤمنون بتلك البلاد،، فرآها الخليل فرصة للتنوير، ونشر الوعي. وكعادته اختار التوقيت المناسب، لتعرية التخلف. الليل، حيث تنتثر الكواكب، فتلهب المشاعر، وحين تلتهب مشاعر ضعاف العقول، يصبحون كتلة من العواطف المندفعة، التي تتأثر بأشياء، فتتخيلها على غير حقيقتها، لذا أراد تفعيل عقولهم وإيقاظها، فتقمص شخصية من يتأثر بالشيء فيعبده. اجتمع بهم بعد الغروب ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

نظر الوثنيون إلى بعضهم.. صدمهم إبراهيم بكلماته الواعية، وهو يريهم كيف أن الوثني بلا عقل، حين يعبد جمادات مسيرة، لاتستطيع حتى تغيير مسارها.. كان كلامه واضحًا، فعلى أي أساس عقلي يُعبد كوكب دون كوكب، أو حجر أو حتى بقرة؟ بقي الدعاة الثلاثة مدة، ثم واصلوا نحو الديار المقدسة. مروا ببلدة يحكمها أحمق، يدعي أنه رب، فلم يترك إبراهيم الفرصة؛ لإثبات دجله أمام شعبه.. وقف بين يديه، فسأله الطاغية: من هو ربك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾. فهون الطاغية إجابة إبراهيم، وقال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾. فصعقه إبراهيم بطلب سهل إن كان ربًّا حقًّا.

القبض على سارة

أجاب الطاغية إجابة ملتوية، فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، ويعني بذلك: أن أحكم بالإعدام، أو أعفو عن محكوم بالإعدام.

هنا صدمه إبراهيم حين قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

كان الحكام الظلمة منتشرين في ذلك الزمان، وقد دعا إبراهيم الكثير منهم أو حاورهم، فبعد مغادرته ديار ذلك الطاغوت مر ببلدة يحكمها وثني، سيطرت عليه غرائزه، فأصبح بلا أخلاق، وكان له أعوان على درجة متدنية من الانحطاط.. يفتشون له عن أي فاتنة، حتى لو كانت متزوجة، وما إن لمح بعضهم سارة، حتى سال لعابهم لأعطية في مستوى جمالها، فسألوا عنها، فعرفوا من تكون. ومن زوجها، ثم انطلقوا نحو ملكهم؛ ليبشروه بالصيد الثمين، ولما وصلوا استأذنوا للدخول، والفرحة تلون وجوههم، فلما أصبحوا أمامه سألهم: هل من جديد؟ في مهمتهم النبيلة، فقالوا: «دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء»[6].

تضعضع الحاكم الغرائزي أمام الوصف.. تناسى حرمة الضيف، ولم يرحم غربة الغريب، ليفاجأ إبراهيم وسارة بالحرس يدخلون عليهما النزل، ويقبضون عليه.. كانت تهمته هي أن زوجته جميلة. اقتادوه نحو القصر، فاستأذنوا، فأذن لهم، وما إن رآه الملك حتى سأله: «يا إبراهيم من هذه التي معك؟» تحير إبراهيم ما يقول؟ خاف على حبيبته، وفي النهاية «قال: أختي»[7] لعل وعسى، لكن الطاغية قرر الظفر بسارة، حتى وإن كانت أخته، فأمر بإحضارها، فشعر صلى الله عليه وسلم بالحزن، وعاد بصحبة الحرس، الذين سينتزعون سارة منه.

دخل إبراهيم صلى الله عليه وسلم على حبيبته سارة،، وما إن رآها حتى قرأ الخوف في عينيها، والتساؤل عما جرى له؟ سألته وقلبها يرتجف عن سبب استدعائه، فأخبرها أنها السبب، فالجمال تهمة في هذه البلاد، وحاكمها يريدها حالًا، وحرسه في الخارج سيأخذونها، لذا رجاها أن لا توقعه في حرج، حتى لا تتعقد الأمور، قائلًا: «لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي»[8]. «إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام»[9].

ارتبكت عليها السلام.. ارتجف قلبها رعبًا.. شعرت بمشاعر العفيفات بين الذئاب المتسلطين.. قلت حيلتها، فلا تدري ما تفعل، ولا إلى أين تفر، والبيت محاصر؟ أغلقت الأبواب في عينيها، إلا باب الجبار، فرأت من خلاله زوجها، وهو يخرج بالأمس من النار بسلام، فعادت إليها طمأنينتها، فروح هذا الطاغية وجسده وكل حواسه بيد الجبار سبحانه.

صغر الظالم في عينيها، فتوجهت لمكان في البيت، فأخذت بعض الماء، وتوضأت وصلت لربها، واستودعته عفافها.. فاضت عيناها، تناجي الملاذ حين يعز الملاذ.. تناجي ملك الملوك وخالق الملوك.

سارة في معية الله

فاضت عينا سارة الخائفة تناجي ملاذها وحاميها، ثم أخذت بعض الماء وتوضأت وصلت لربها واستودعته عفافها.. ناجت الملاذ حين يعز الملاذ.. ناجت الجبار وقاصم الجبابرة وملك الملوك وخالقهم قائلة: «اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، فلا تسلط عليَّ الكافر»[10].

ثم ودعت حبيبها بقلب واثق وعينين لامعتين، وخرجت من مكان إقامتها، وسلمت نفسها لشرطة الطاغية الوثني، فاقتادوها وعينا زوجها وقلبه تلاحقها، حتى غابت عن ناظريه، ثم توجه لربه يصلي.. يدعوه أن يحمي حبيبته ويعيدها إليه.

تهادت سارة مع الحرس حتى وصلت القصر، وما إن وصلته حتى سُمح لها بالدخول.. أدخلوها مجللة بالوقار والحياء، ثم أوقفوها بين يدي الظالم، الذي فقد صوابه حين رآها، فأنساه جمالها وقار الملوك.. نهض من كرسيه، ودب نحوها كالذئب، ولما اقترب منها مد يده نحوها، وفجأة صعق يده ألم شديد شلها.

أدرك الطاغية أن في هذه الفاتنة الطاهرة سرًّا.. نظر إليها فزعًا، وناشدها قائلًا: «ادعي الله أن يطلق يدي، ولا أضرك». فشعرت سارة بمعية الله.. بعظمته تحيط بها.. تحميها، وأدركت ضعف من يقبض على يدها، فدعت ربها أن يطلق يده، وما إن دعت حتى استعاد الرجل يده، وبدأ يحرك أصابعه بارتياح، وينظر إليها وسط دهشة حاشيته وهلعهم، لكن نزوته الشيطانية عاودته، فمدها مرة أخرى، فإذ بألم يشل يده أشد من الألم الأول.

شعر بضعفه وهو ينظر لحاشيته، لكنه اضطر صاغرا لتكرار طلبه أن تدعو الله، فدعته فتحررت يده، لكن العزة أخذته بالإثم، وكأنه يقول لحاشيته: إنه ما زال يسيطر على الأمر، فمد يده، فإذ بألم لا يطاق، يحرق يده، حتى جعله يصيح مستنجدًا: «ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أن لا أضرك»، ففعلت، وأطلقت يده، وما أن تحررت يده، حتى صاح بالموظف المسؤول عن تلك المهام الهابطة، ولما جاء صاح به غاضبًا: «إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي».

خفق قلب سارة شكرًا لله، لكن قبل أن تغادر القصر شعر الطاغية بالخوف، فطلب من أحد موظفيه أن يمنحها إحدى خادماته المميزات، وهي فتاة مصرية مؤدبة. اسمها هاجر، فقال: (أعطها هاجر).

ذهب الحرسي، وأحضر الفتاة، وطلب منها الالتحاق بهذه المرأة الصالحة، خادمة لها. خرجت سارة من القصر، وكلها ثناء لله، ولما أقبلت على النزل، كان إبراهيم يصلي، يناشد ربه ويناجيه. فلما رآها

إبراهيم انصرف، فقال لها: «مهيم؟ قالت: خيرًا، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادمًا»[11].

اطمأنت العائلة الصغيرة، لكن ذلك لم يدم طويلًا فقد عاد الحرس مجددًا، فأبلغوه أن الملك يأمره بمغادرة البلاد هو ومن معه فورًا. حمل الزوجان متاعهما، وركبا وغادرا البلاد، ومعهما لوط وهاجر.. فيا لخليل الله، ما أقسى حياته وحياة زوجته، لكن إلى أين هذه المرة؟

هاجر لم تعد خادمة؟

سافر إبراهيم ورفقته الطيبة عليه السلام، ومعهم الفتاة هاجر، التي دعاها الخليل للتوحيد، فرأت نقاء العقيدة، ورقي السلوك النبوي، فأسلمت. تمايلت رواحلهم نحو الأرض المقدسة، ولما وصلوها اتخذوا بيتًا، واستقروا هناك، يدعون للتوحيد والإسلام. ومرت سنوات فكبر لوط، فأنزل الله عليه الوحي، وأمره بالتوجه نحو قرية وثنية سيئة السمعة، يسكنها قطاع الطرق واللصوص الشاذون، يقال: إن اسمها (سدوم)، فانطلق صلى الله عليه وسلم إليها، وبدأ يدعو أسوأ قوم على وجه الأرض.

مرت الأيام والسنوات، وكبر إبراهيم، وبلغت سارة سن اليأس دون أن تنجب، فجلست يومًا تفكر في حال زوجها صلى الله عليه وسلم، وحلمه بطفل، يبهج حياته، وتتأمل جمالها الأخاذ، الذي بدأ يذبل، وخصلات شعرها، التي بدأ الشيب يلون بعضها: الشباب ولى يا سارة، والعمر يمضي، والزوج لا يزال يحلم.

خفق قلبها لإسعاد زوجها بفكرة مريرة على النساء، فتحاملت على نفسها، وتفوقت على غيرتها وطبيعتها الأنثوية، فتنازلت عن ملكية هاجر، ووهبتها لإبراهيم علَّ الله يرزقه بذرية منها. وافق صلى الله عليه وسلم وبعد تسعة أشهر، انطلقت صرخة بريئة، بين جدران ذلك البيت الجميل. ابتهج إبراهيم ابتهاج الكبير بالمولود، وملأت السعادة قلب هاجر.. حتى سارة كانت سعيدة بهذا الصغير العذب، الذي طالما تمنت أن يكون منها. فحمله وشمه وضمه وقبله، وشكر الله الذي لا تحصى نعمه، وسماه (إسماعيل). كان من فرط حبه، يعيذه بربه كل يوم، ويقول: «أعيذك بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»[12].

لكن سعادته بطفله لم تدم طويلًا. سرعان ما ابتلاه الله بفراقه، فهذه الأسرة لم تعرف طعم الرفاهية والاستقرار. حيث دخل إبراهيم صلى الله عليه وسلم ذات يوم على هاجر، فأمرها بالاستعداد للرحيل، فنهضت عليها السلام، وجمعت ثيابها ومتاعها، ووضعتها على راحلتها، وحملت رضيعها، وودعت سارة التي ودعت ذلك الرضيع بالدموع.

انطلق إبراهيم وهاجر مغادرين الأرض المقدسة نحو الجنوب، وعبروا الفيافي والقفار.. ارتفعوا وهبطوا، وبعد أسابيع احتضنهم واد صامت، تحفه الجبال. توقفت راحلة الخليل تحت دوحة عند

جبلين صغيرين، هما الصفا والمروة، فنزل صلى الله عليه وسلم، ومدت له هاجر رضيعها، فأخذه منها فنزلت. لم يكن في ذلك الوادي شيء.. لا بئر ولا زرع ولا حياة.. لا شيء، سوى الجبال وبعض الأشجار والانتظار. أنزل المسافران ما معهما من ماء وجراب تمر، ثم ارتاحا من عناء السفر، ثم أخبرها الخليل: أنها في مكان يقال له بكة، وأن تلك الرابية المرتفعة التي أمامها، ستكون مكان بيت الله المحرم، وبعد يوم أو يومين تلفتت هاجر فلم تجد حبيبها إبراهيم صلى الله عليه وسلم. فانطلقت مذهولة تركض علها تسترده.

لماذا تتركني يا إبراهيم؟

نزل رسول الله إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل عليه السلام في واد، يقال له بكة.. خال من السكان والزرع والحياة.. بين جبلين صغيرين، سميا فيما بعد (الصفا والمروة). مر اليوم الأول، وهما يأنسان بذكر الله، وقرب بيته الذي كان مجرد رابية مرتفعة.

غابت الشمس فانتثرت النجوم، تحدق بالغرباء، وشمخت الجبال كالحرس حولهما، وفي الغد أو بعده حدث شيء أذهل هاجر: إبراهيم يقبل طفله ويودع حبيبته، ويتركهما عائدًا للأرض المقدسة الأولى بالشام! كيف يحدث هذا؟ ما مصيرها وسط هذا الوادي القاحل؟ ما مصير رضيعها المسكين؟ أهذه هي الفرحة بالوليد بعد هذا العمر الطويل؟

أسئلة خائفة، لا تدرك معاناة الأنبياء، وثقل أمانتهم. انطلق الخليل الحزين، فشعرت هاجر بالخوف من سباع الوادي وضواريه.. من الجوع والعطش فيه.. من الوحدة، فلم تستطع البقاء إلى جانب صغيرها الذي يحبو. وضعته على الأرض وانطلقت تركض خلف حبيبها، علها تثنيه عن رحلته.. تستعطفه: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي؟! الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟»[13] تناشد أبوته وهو لا يرد.. تلتف حوله تريد رده، أو حتى صده، وهو ماض كالخنجر في قلبها. لم يلتفت إبراهيم، وكأن الحزن يمنعه من الالتفات، وهي تتوسل تريد إجابة مقنعة لتركها: «أين تذهب؟» ترى هل اشتاق لسارة، أم يريد التخلص منها؟

وفجأة أفاقت هاجر.. أدركت أنها رفيقة نبي، فقالت لنبيها: «آلله الذي أمرك بهذا؟»[14] هنا فقط نطق إبراهيم، وهو صابر محتسب، فقال: «نعم»، وهنا توقفت هاجر. لم تعد بحاجة إلى أحد مع الرحمن الرحيم.. أدركت أن رحلتها وحي، وأن رحيله وحي، وأنها بمعية الجبار ورعايته سبحانه، فودعته بكلمات أرسى من الجبال، التي تحيط بها، وقالت: «إذن لا يضيعنا»[15].

اخترقت كلماتها قلب إبراهيم فنزف رحمة بطفله الرضيع وأمه. سار حتى توارى عنهما، وكأن عينيه لا تطيقان النظر إليهما ثم توقف، والتفت نحو البيت واستقبله، ودعا بقلب منفطر: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ

أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

أما هاجر فانثنت، وألم الفراق يعصف بقلبها.. عادت لطفلها، عادت لهذا الجميل، الذي يحبو لهفة عليها، فانحنت عليه، وأخذته وضمته، وأغمضت عينيها عليه، فسالت الدموع رحمة به وشوقًا لأبيه، واسترحامًا لمن أودعها هذه الأرض القاحلة.. لم تدر أنها ستكون أمًّا لشعوب وقبائل عظيمة تتدفق من هذا الوادي، وتسيح في أرجاء الجزيرة، وتتردد عليه.

لم تنته أحزان هاجر.. فجأة استبد بها رعب أشد من رعب الأمس، وركض أشد من ركض الأمس.

الموت يجول في الوادي

ظلت هاجر مع رضيعها إسماعيل يومًا أو اثنين.. تلاعبه مرة، وتهدهده مرة، وترضعه أخرى.. عاشت ساعات من الخلوة مع الله عند بيته المحرم.. لحظات من لذة المناجاة، وصفاء الروح، طالما بحث عنها الأولياء في أجواف الليالي.. في البراري.. في الخلوات بعيدًا عن أعين الخلق، حيث يشعرون بصفاء يغمر القلب، وأنوار تعرج بالروح. إذا اشتد عطشها أخذت جرعة من قربتها، وإن جاعت مدت يدها لجراب التمر، فتناولت تمرة أو تمرتين، تمضغها ثم تضع شيئًا منها في فم الرضيع، الذي يتلمظ لسانه الصغير فرحًا بحلاوتها، وتهتز أطرافه حماسًا، فيزين واديها بمناغاته ونظراته البريئة العذبة، لكن التمر بدأ يقل، والماء بدأ ينفد، وقد يجف صدرها إن نفد الماء والتمر.. ظلت قلقة، ثم تحول قلقها إلى هلع.

جفت شنة الماء، فكادت تفقد صوابها.. ناولت رضيعها صدرها، لكن شفتيه لم تتبلل بشيء، ينظر إليها يبكي، فينفطر قلبها، ويستبد الرعب بها، وتشعر بالموت يدنو من صغيرها الحبيب، فتفقد صوابها، وتتركه على الأرض، وتنطلق وهو يبكي يتلبط.

تركض بلا وعي نحو جبل الصفا علَّها ترى أحدًا قادمًا يسعفها. صعدته. حدقت. استشرفت فارتد طرفها حسيرًا، فانحدرت تركض ركضًا شديدًا نحو جبل المروة المقابل وبكاء رضيعها عن يسارها يرتفع.. يمزق قلبها وهو يحبو نحوها يريدها، فتصعد المروة علَّ مسافرًا من الجهة الأخرى يقبل بجرعة ماء.. تاهت عيناها الغارقتان بالدموع، ثم عادت للصفا تركض وبكاء الصغير يزيد حزنها وعطشها.. ظلت تركض بين هذا الجبل وذاك، حتى أنهكها الركض، وفقدت الأمل، فانحدرت بعد المرة السابعة من المروة منكسرة حزينة، وقد سلمت أمرها لربها، وفجأة توقفت.. صه:

هناك صوت.. حفيف يشق السماء والهواء.. أنصتت تحاول التقاطه بين سكتات رضيعها.. ما هذا الصوت؟ صاحت في الوادي: (قد أسمعت إن كان عندك غواث)، ثم التفتت عن يمينها نحو طفلها،

فإذ بالمشهد يذهلها: جبريل كبير الملائكة صلى الله عليه وسلم قائم بجانب الرضيع.. يضرب كبير الملائكة بعقبه الأرض، فتتصدع من ضربته، كما يتصدع الزجاج، وإذ بالماء ينساب من كل الجهات، نحو مركز الضربة، ثم يبدأ بالنبع من موضع الضربة يترقرق، ثم يفيض بئرًا ليس كالآبار.. نبعت أول قطرات زمزم، فاجتاحت الفرحة هاجر، وحمدت الله، وركضت نحو الماء الذي بدأ يسيل على وجه الأرض.

مدت يديها نحو التراب المبلل بالماء، وصنعت منه جدارًا صغيرًا لتحجز الماء، ثم نهضت نحو قربتها وأحضرتها، وضمت كفيها كالمغرفة، وأدخلتهما الماء، وبدأت تغرف، وتملأ الشنة، والماء يفور يترقرق، ثم رفعت قربتها الملأى، فشربت منها، فكانت أول امرأة تشرب من زمزم.

الوادي ينبض بالحياة

بللت هاجر ثغر رضيعها بالماء، وعادت الحياة لها ولصغيرها الحبيب، فكانا أول من يشرب من هذه البئر المعجزة، ثم تأملت هذا الملاك المهيب، الذي يقف إلى جوارها، وقبل أن تشكره هتف كبير الملائكة وطمأنها قائلًا: «لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله»[16]، وأشار إلى الرابية المرتفعة أمامها، وآثار السيول عن يمينها وشمالها، ثم حلق الملاك في السماء، بعد أن دبت الحياة في الوادي المبارك.

حتى السماء سرت فيها الحياة، بدأت الطيور تحلق نحو نبع الماء.. تحوم وتهبط قربه.. تؤنس وحشة هاجر، وتزيد من فضول الرضيع الذي يحبو نحوها.. يناغيها، وبعد أيام انحدرت من جبل كداء قافلة يمنية من قبيلة جرهم، فشدها شيء في السماء لم تره من قبل.. طائر يحوم. حدق المسافرون بطريقة طيرانه، فأدركوا بحكم خبرتهم أنه طائر عائف، والعائف هو الذي يحوم على الأمكنة التي فيها ماء، لكن ماذا يفعل هذا الطائر، وليس في هذه المنطقة ماء؟ إنها مجرد أودية جافة تتعطش للمطر.

توقفت القافلة على غير العادة، فالقوافل عادة تمر فلا تتوقف هنا.. قرروا اكتشاف أمره، فقال بعضهم لبعض: «إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء»[17].

طلب كبيرهم ملاحقته، فانطلق رجل أو رجلان وعيونهم تتردد بين السماء والأرض.. بين الطائر والهدف، وفجأة توقفوا.. اتسعت أعينهم.. فوجئوا بشابة وطفل ونبع ماء. لم يفعلوا شيئًا.. لم ينادوها. اكتفوا بثني أزمة مطاياهم، والعودة نحو قافلتهم، التي أدركت أنهم عثروا على السر، وما إن وصلوا حتى زينت الابتسامات الوجوه، وعلت الأصوات تبشر وتستبشر.. غمرت المسافرين فرحة عارمة، فانطلقت القافلة نحو الماء، ولما أقبلوا أدهشهم المشهد فتوقفوا.

كان اليمنيون مؤدبين جدًّا.. تقدموا نحو أم إسماعيل.. تبادلوا التحايا بطريقة ما.. قد يكون بالإشارة، لأن القافلة عربية جرهمية، أي من العرب العاربة، أما هاجر فلم تكن هي ولا زوجها إبراهيم عليهما السلام من العرب. استأذنوا أن ينزلوا ويجاوروها حول هذا النبع الرقراق، فوافقت، لأنها كانت متعطشة للأنس البشري، ولكنها اشترطت أن الماء ليس من حقهم، وأنهم مجرد ضيوف كرام عليها: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس»[18] وأسعدها ثم أناخ المسافرون مطاياهم، ونزل الرجال والنساء والأطفال.. اغتسلوا وشربوا، ودب الأنس في المكان.

نصبوا خيامًا مؤقتة.. تبادلوا مع أم إسماعيل الزيارات، وأهدوها من طعامهم، كما أهدتهم ماءها.. يحملون طفلها.. يلاعبونه، وهو يحبو بينهم حتى كبر، وتعلم لغتهم، وأصبح يرعى الغنم معهم، وفي أحد الأيام تعرض إسماعيل لأمر بالغ الخطورة.

زمزم يحول الوادي إلى مدينة

بدأ الرضيع إسماعيل يقف على قدميه، ينتفض ثم يسقط.. يخطو خطوة، ويعثر خطوتين ويسقط.. يتراكض نحو أمه هاجر، وابتسامته تسعد قلبها، وضحكته تزين الوادي.. تحول المسافرون اليمنيون إلى عائلة كبيرة لهما.. طاب لهم المقام بين إسماعيل وزمزم، ثم أصبحت مكة محطة للمسافرين، ثم مكانًا للإقامة، قد السكان الجدد الصخور من أطراف الوادي، وشيدوا البيوت هنا وهناك، وبدأت استجابة الله لدعوة إبراهيم تتشكل على أرض مكة، فتحولت من واد إلى قرية تجارية مفعمة بالنشاط.

زمزم المعجزة الربانية.. حولت مكة من واد صامت إلى قرية تنبض بالحياة.. كبر فيها إسماعيل.. بدأ يلعب مع صبيان القبيلة اليمنية.. يرعى الغنم معهم.. يتكلم لغتهم ولغة أمه هاجر التي ربته على التوحيد، ثم أصبح الطفل مراهقًا يفوق أقرانه أدبًا وخلقًا.

وذات يوم من تلك الأيام كان السراب خلف جبل المروة، يتماهى بطيف قادم من بعيد.. يتهادى شيئًا فشيئًا، وينفصل عن السراب شيئًا فشيئًا، ولما اقترب المسافر أدهشه المشهد، وخفق قلبه وقد تحققت المنى، فها هو الوادي يعج بالحياة والأنس كما تمنى، وها هي الأفئدة تهوي إليه، ويطيب لها العيش فيه.. تساءل شوقه كيف غدا حبيب القلب إسماعيل وأمه؟ توجه نحو بيت الله فوجد الماء والحياة وحبيبيه هاجر وإسماعيل.

عانق الشيخ ابنه بشوق، وفاضت عينا هاجر وهي ترى إبراهيم صلى الله عليه وسلم بعد هذه السنوات.. أمضى الثلاثة أيامًا سعيدة، واختلط إبراهيم بالسكان، وبصَّرهم بالتوحيد رسالة الأنبياء، وزادهم وعيًا بأمور دنياهم برسالته الثانية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، فالعدل مكمل للتوحيد، لتتناغم الدنيا بالآخرة، والسماء بالأرض، فلا عمارة حقيقية للأرض دونهما.

ظل إبراهيم ينير القلوب والعقول، ويبدو أن لهاجر وزمزم دورًا في إيمان تلك القبيلة الطيبة، وفي أحد أوقات الإيمان والوعي تلك.. وفي مكان كالخيال كان إسماعيل مستلقيًا، وإذ بوالده إبراهيم يقترب منه فجأة، ويمسك برأسه، ويسل سكينًا فينحر رقبته.. تفجر الدم، فأفاق إبراهيم من نومه حزينًا من هذه الرؤيا المخيفة.. كيف ينحر فلذة كبده في مكان مقدس، يحرم سفك الدم فيه.. مكان يقول الله عنه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

ومما زاد حزنه هو أنه لا بد من تنفيذ هذه الرؤيا، فرؤيا الأنبياء وحي. ولن يتردد الخليل في تنفيذ الوحي.. يا له من اختبار صعب.. أي ابتلاء أشد على النفس من هذا؟ ما أكثر ابتلاءات إبراهيم وأثقلها. نهض صلى الله عليه وسلم من مرقده وهو مهموم بتنفيذ أمر ربه: هل يصارح ابنه، أم ينحره وهو نائم، أم ماذا يفعل؟

إسماعيل يودع هاجر

بعد تلك الرؤيا أخذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم ابنه الحبيب بعيدًا عن أمه، حتى لا يفجعها، وما إن اقترب منه، حتى قال له بصوت يتهدج حزنًا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟.

ارتجف قلب إسماعيل خوفًا، لكن سرعان ما تماسك.. لم يقل: لماذا، وكيف، وما ذنبي؟ سلَّم أمره لله سبحانه، بل حثّ والده على تنفيذ وحي ربه، فقال صلى الله عليه وسلم: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، قدم الفتى إرادة ربه على إرادته، ورضي أن يكون قربانًا لله، والحزن يفطر قلبه على فراق أمه.. كأني به بعد ذلك يجلس قربها.. يطيل النظر إليها، والتأمل في طيفها الحبيب، وهي لا تدري ما سر تلك النظرات؟ لا تدري أنها نظرات مودع.. تقدم له طعامًا فيعتذر.. لا حاجة لي بالطعام يا أماه.. النظر إليك أول وآخر وجباتي، فهل سيتحمل قلبك رحيلي، وكم من الدموع ستذرفينها بعدي.. يتذكر طفولته وغربته معها.. ينفطر قلبه وجدًا عليها، فلن تناديه بعد اليوم، ليحضر لها ماء من زمزم، أو يحلب شاتها.

دنت الساعة.. نهض الفتى مع والده، ومشى حتى غاب عن ناظريها.. مشى ثقيلا حزينا.. حتى مر بملاعب رفاقه حول زمزم، فيزداد حزنه.. لن يلعب معهم بعد اليوم، ولن يسابقهم، كلما أقبلت قافلة أو أقفت.. إنه الآن يسير بجانب والده الحزين، الذي يحمل سكينًا حادة، لن تأخذ منه وقتًا في تغييبه عن هذا الوادي الجميل، بل عن الدنيا بأسرها، وبعد خطوات ثقيلة وحزينة، توقف الوالد، فهل تعانقا، وسالت دموعهما؟

أضجع إبراهيم ابنه على الأرض، وكأنه لا يريد لعينيه أن تلتقي بعيني فيضعف ويتراجع، لذا تله للجبين، وأدار وجهه نحو الأرض.. بدأت دقات قلب إسماعيل تتسارع، وأنفاسه تتصاعد، والتراب يبتل بقطرات دموعه، ويلتصق بشفتيه المرتعشتين.. قرب إبراهيم سكينه من رقبة ابنه الصغيرة،

وإذ بصوت مهيب يقاطعه.. يوقف يده وسكينه، ويقول له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾، رفع إبراخيم رأسه، وفاضت عيناه، وتنفس الصعداء، وألقى السكين، واستعاد ابنه وضمه، وانهمرت دموع الفرح والشكر لله، وقبل أن ينهض الاثنان، التفتا على صوت وحركة قربهما، فرأيا كبشًا بالقرب منهما. معجزة أخرى لهذا النبي الصابر، يقول الله عنها: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾.

نهضا نحو الكبش، وأخذاه نحو مكان النحر، وقرباه لله، وأهدوا من لحمه، وتصدقوا، وأكلوا، وابتهجوا، ومرت الأيام على قصة الفداء والابتلاء، لكن الحزن عاد.. ها هو إبراهيم يودع أحبته، فلديه مهمة في الشام.. سافر الخليل المبتلى، لتمر على فراقه سنوات وسنوات، كبر خلالها الفتى، وبلغ مبلغ الرجال، والجميع يجلونه، ويجلون أمه.. كان إسماعيل مهوى أفئدة العذارى، فمن هي التي ستفوز بأمير مكة، وسيد زمزم؟

ورحلت هاجر

كانت أُسر قبيلة جرهم اليمنية تحب الفتى إسماعيل صلى الله عليه وسلم وتجله.. خاصة بعد قصة الفداء، فعرضوا عليه الزواج من إحدى فتياتهم، فوافق، وابتهجت هاجر، وزفت عروس ابنها، وامتلأ الوادي الجميل بالأفراح، لكن تلك الأفراح لم تدم طويلًا لآل إبراهيم، فالحزن لم يغادر الوادي.. إنه يختبىء لهذه الأسرة بين الجبال.. الحزن مجددًا يعصف بقلب إسماعيل، فها هو عند فراش حبيبته هاجر، والمرض يفتك بجسدها الشاب.. يأخذها شيئًا فشيئًا، حتى أسلمت الروح، وفارقت الحياة. ذرف الشاب الدموع حزنًا عليها وشوقًا إليها، لكنه لم يكن وحده الحزين. الوادي كله حزين، ونساء الحي ورجاله يبكون بحرقة السيدة الكريمة.. السيدة المضيافة.. يبكون أميرتهم وسيدة مكة عليها السلام، وابنها البار يضعها في قبرها، ويهيل التراب والدموع عليها.

رحلت أول امرأة سكنت مكة، وأول امرأة شربت زمزم.. رحلت من اصطفاها الله، لتكون أما لإسماعيل، وأما لقبائل عظيمة من العرب.. رحلت المناضلة التي لم تهنأ بشبابها.. تقاسمته الغربة والمعاناة والبذل لله.. لم تهنأ بحبيبها إبراهيم.. ماتت والشوق إليه يملأ قلبها.. أصبح إسماعيل في غربة.. أم تحت التراب، ووالد لا يدري متى سيراه.. ما أقسى حياة آل إبراهيم عليه السلام.

مرت سنوات لتفاجأ مكة بحبيبها إبراهيم على مشارفها.. يتهادى وقلبه يخفق حزنًا على هاجر.. تذكره مكة بها، فتحت هذه الدوحة نزلت عن دابتها، وهنا لحقت به ونادته: «أين تذهب يا إبراهيم، وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟» وهنا هتفت به: «آلله الذي أمرك بهذا؟»، وهنا تهدج صوته حزنًا، وهو يقول لها: «نعم». مشى صلى الله عليه وسلم حتى أصبح أمام باب إسماعيل، فاستأذن فخرجت له فتاة، حيته وحياها، فعرف أنها زوجته، فسألها عنه؟ فقالت: خرج

يبتغي لنا، ثم سألها عن أحوالهم المعيشية والمادية، فوجد إجابة تطفح بالطيش والتذمر. قالت: «نحن بشرٍّ. نحن في ضيق وشدة»[19]، وبدأت تتلو عليه قائمة من التذمر، لا تليق ببيت نبي.

أنصت صلى الله عليه وسلم لها، ولم يقاطعها، وحالما انتهت اكتفى الشيخ بكلمات قليلة غير مفهومة. ثم ودعها وكلها حيرة. عاد إسماعيل، ولما دخل سأل زوجته: «هل جاءكم من أحد؟» قالت: «نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته: أنا في جهد وشدة»، قال: «فهل أوصاك بشيء؟» قالت: «نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك»[20].

خفق قلب إسماعيل صلى الله عليه وسلم حزنًا وشوقًا، وأدرك مغزى الوصية، فنظر إلى فتاته المتذمرة بحزن، وقال: «ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك. الحقي بأهلك»[21] فطلقها، ثم بقي مدة أعزب، حتى لاحت له فرصة للزواج من فتاة أخرى أطيب.

إسماعيل لا يناقش أوامر الله

مرت أسابيع وربما أكثر، فإذ بإبراهيم صلى الله عليه وسلم يستأذن مرة أخرى على باب إسماعيل، فتفتح فتاة بشوش، تحييه وترحب به.. عرف أنها زوجته، فسألها عنه، فقالت: «خرج يبتغي لنا»، فأعاد طرح السؤال قائلًا: «كيف أنتم؟» وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: «نحن بخير وسعة»، وأثنت على الله.

شعر صلى الله عليه وسلم بارتياح من إجابتها، التي تليق ببيت النبوة، وأحب تلك الفتاة المستعدة لتحمل مسؤولياتها، فواصل الحوار معها، وقال: «ما طعامكم؟» قالت: «اللحم؟» قال: «فما شرابكم؟» قالت: «الماء». قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء»، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حب دعا لهم فيه» ثم قال: «فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه»[22] ثم ودعها ورحل. فحياته صلى الله عليه وسلم ترحال ودعوة. فلما عاد إسماعيل أخبرته، فملأت السعادة قلبه بتلك الوصية، فقال لزوجته: «ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك»[23]، وبعد مدة كان إسماعيل مقبلًا من مكان ما، وهو يحمل مجموعة من الأغصان انتقاها بعناية، ثم اتجه بها نحو دوحة قريبة من زمزم، ولما وصلها توقف، وجلس تحت ظلها، ونثر ما معه من أعواد على الأرض، ثم أخرج سكينًا، وبدأ يكشط تلك الأغصان غصنًا غصنًا.. يبريها بعناية، ليصنع منها أسهمًا للصيد، (وكان صلى الله عليه وسلم راميًا[24]) ماهرًا، وبينما كان منهمكًا في عمله.. فوجىء بطيف حبيب يقبل عليه.. حدق به إسماعيل، وكلما اقترب زاد ارتجاف قلبه.. ألقى إسماعيل سكينه وأسهمه، وفز نحو الشيخ الحبيب.. تعانقا، وخنقت العبرات العبارات، (فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد)[25]، وتداعت ذكريات هاجر في القلوب،

وبعد أن جلسا وهدأت المشاعر.. نظر إبراهيم إلى ابنه الشاب، وكأنه يبشره بإرهاصات النبوة، وقال له: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر». قال إسماعيل: «فاصنع ما أمرك ربك؟» قال: «وتعينني؟»

لم يتردد الشاب ولن يتردد، فقد وافق يومًا على أن يكون قربانًا لله. لذا قال: «وأعينك» فمد الشيخ يده، وأشار نحو الأكمة القريبة المرتفعة على ما حولها، وقال: «فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتًا»[26].

اجتاحت السعادة إسماعيل بالمهمة، وأخذ والده نحو بيته وزوجته الطيبة، ليمضي معه أسعد أيام حياته.. يوم بلسم جراح الغربة، وفقد هاجر الحبيبة.. تناولا اللحم، وشربا من ماء زمزم، وأشرق يوم جديد على العالم.. وزع إبراهيم المهام بينه وبين حبيبه، ثم انطلق نحو تلك الرابية، ليخط الخليل على الأرض مكان بناء قواعد البيت وأساساته وجدرانه، أما الفتى فانطلق بحماس نحو المكان، الذي تقد منه الصخور.. ظل إسماعيل يجلب الحجارة، وإبراهيم يحفر ويبني، وهما يرددان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [27].

كيف كان شكل البيت عند بنائه؟

أصبح إسماعيل نبيًّا منذ بدء لحظات بناء الكعبة، وطُلب منه كما طلب من والده عليهما السلام: أن يطهر البيت من أي مظاهر للشرك، وأن يهيئاه للمصلين والطائفين، فقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

ارتفعت جدران الكعبة أمتارًا، فجاء إبراهيم بحجر أسود، فوضعه في الزاوية الشمالية الشرقية من الكعبة، ووضع للكعبة بابًا من جهة الشمال قرب الحجر، وبابًا يقابله في الجهة الجنوبية قرب الركن اليماني، ولم يبنيا للكعبة سقفًا.. بدأا يطوفان حوله، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

اكتمل بناء الكعبة، ولم يجعلاه مربعًا كما هو اليوم، بل كان على شكل الحرف الإنجليزي (D)، أي أن جدار حجر إسماعيل المقوس كان جزءًا من جدرانها. هذا هو أول بيت لله على الأرض، والذي يقول سبحانه عنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

كانت قبيلة جرهم اليمنية الطيبة تستمتع بمشهد البناء، وتتلقى التوحيد طريًّا من الوحي.. من فم إبراهيم، فلم يعان منها كما عانى من أهله وقومه.

وبعد أن اكتمل البناء، فنزل الوحي على إبراهيم، يأمره بأن يدعو الناس للحج، فقال له تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

بدأ صلى الله عليه وسلم دعوته للحج في مكة.. يعينه إسماعيل، وصحابتهما من قبيلة جرهم.. لم تعد مكة أهم مركز تجاري في الجزيرة العربية.. أصبحت منارة وعي.. يمر بها التجار والمسافرون الوثنيون، فيتغيرون.. يصبحون موحدين.. يحملون ثقافة التوحيد وعيًا نحو بلدانهم.. يحملون أخلاق الإسلام، وأمانة الإسلام، حتى بعد رحيل إبراهيم.. ينهلون من إسماعيل دروسًا في الأمانة والصدق، حتى أثنى الله عليه، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

ظل إسماعيل في مكة، فرزق ببنين وبنات وأحفاد وأسباط.. أصبحوا فيما بعد قبائل وشعوبًا عظيمة، ينشرون التوحيد، ويترددون على البيت، لكن ماذا عن إبراهيم بعد بنائه الكعبة؟ أين ذهب بعد أن دعا للحج؟

لقد ودع ابنه وصحابته، وتوجه مجددًا نحو القدس.. حيث سارة التي اجتاحتها السعادة.. بقي إبراهيم سنوات ينشر التوحيد، فيزداد المؤمنون والمؤمنات، وبعد أن تجاوز الثمانين، أمره الله أن يبني ثاني مسجد على الأرض، وهو المسجد الأقصى.

ما الذي أضحك سارة؟

أمر الله سبحانه رسوله إبراهيم صلى الله عليه وسلم أن يبني ثاني مسجد على الأرض (المسجد الأقصى)، وذلك بعد بناء الكعبة بأربعين عامًا، فبناه وأعانه صحابته، وصلوا فيه، وأخبرهم أنه قبلة المؤمنين، وفي أحد الأيام فوجيء الشيخ الثمانيني بغرباء على بابه.. نهض صلى الله عليه وسلم نحو الباب، فحياهم، وأدخلهم رغم أنه لا يعرفهم، بل ولا أحد من أهل المدينة يعرفهم.. لم يسألهم ما الذي أتى بهم؟

انطلق مباشرة نحو الحظيرة، فأخرج وخدامه عجل بقر سمين، وسمَّى الله وذكاه، بينما كانت النار تتوهج في مكان معد للشواء، فحُمل لحم العجل، ووضع على النار، وبدؤوا بتقليبه حتى تغير لونه، وطاب طعمه، ثم حُمل الشواء اللذيذ، ووضع أمام الضيوف، ورائحته تتضوع في المكان، وتثير الشهية، بينما كانت سارة قائمة خلفهم لخدمتهم.. حدق الضيوف بطبق الحنيذ اللذيذ، وأيديهم مكفوفة.. طالت مدة الصمت، فشعر صلى الله عليه وسلم بالقلق، وهو يتصفح وجوههم.. ارتاب من سلوكهم، فقال لهم: «ألا تأكلون؟» لم تمتد أيدي الضيوف نحو الطبق، لكنهم قرؤوا الخوف في عيني إبراهيم، فطمأنوه، وكشفوا عن هويتهم، وقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. كانوا مجموعة من الملائكة مكلفة بمهمة تجاه قوم ابن أخيه لوط. هنا ضحكت سارة، فما الذي أضحكها؟

هل هو تحديقهم بالشواء دون أكل؟ أم تضحك على مجهود زوجها الذي ضاع هباء، أم على خوفه منهم، ونظراته المتشككة، أم تذكرت تلك الأيام الغابرة، حين قدم الطعام لأصنام قومه، وقال الكلمة نفسها: ألا تأكلون؟ الاحتمالات كثيرة، لكن الضيوف لم يتركوا لسارة مجالًا لمواصلة الضحك.. سرعان ما قلبوا ضحكها صياحًا، حتى صكت وجهها بكفيها.. رفع أحدهم رأسه نحوها، وقال: إنك ستنجبين ابنًا، هو إسحاق، وإسحاق سينجب يعقوب.

صعقت سارة، كما تصعق العجائز بمثل هذا الخبر.. استغراب ممزوج بفرح بخوف بخجل.. صرخت ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، لكنهم بشروها بالرحمة وقالوا: (﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

أما إبراهيم صلى الله عليه وسلم فشعر أن العمر يوشك على انقضاء، وأن فرحته بالطفل لم تعد كما كانت، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، أين البشرى هنا؟

قرية للأنذال وقطاع الطرق

بعد أن بشر الملائكة إبراهيم صلى الله عليه وسلم بطفل وقد تجاوز الثمانين.. شعر أن العمر يوشك على الانقضاء، وأن فرحته بالطفل لم تعد كما كانت، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾، وإذ بإجابتهم تبين له أن البشرى أبعد من الحصول على مجرد طفل.. إنه الاصطفاء.. إنها النبوة التي ستتسلسل في ذريته.. ذرية ستواصل نشر توحيد الله، فالوثنية والجحود لنعم الله ينتشر كالوباء بين الأمم، ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾، فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾، بعدها أثنى إبراهيم على ربه، وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾.

ثم انتقل الحديث بين الملائكة وخليل الله إلى المهمة الثانية (قوم لوط)، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾، هنا بدأ إبراهيم يجادل حول هلاكهم، وإذ بالملائكة توقفه وتقول له: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾، ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾.

سأل إبراهيم صلى الله عليه وسلم عن مصير ابن أخيه، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾، اطمأن إبراهيم ثم استأذنه الضيوف، فلديهم رحلة مرعبة نحو قرية سادرة في غيها وشذوذها، وما هي إلا ثوان، وإذ بالضيوف يتهادون بوقار عبر شوارع لا تعرف الوقار.

قرية سدوم التي دخلها لوط قبل سنوات.. جاء داعية لهذه القرية المجرمة الشاذة عن بقية القرى.. كانت بالغة السوء سيئة السمعة.. يتجنب المسافرون الطرق المؤدية إليها، لأن أغلبية رجالها من الإرهابيين وعصابات قطاع الطرق، أما ممارساتهم داخل البلدة فبالغة البشاعة.. أقاموا ناديًا يمارسون فيه طقوس الشرك والشذوذ، أو ما يسمى المثلية المنحطة بلا خجل.. ضاق لوط بانحطاطهم، لكن الأرض ضاقت به حين رأى الضيوف ببابه، شعر بالحرج فقومه لم يكتفوا بأعظم الذنوب عند الله وهو (الشرك)، بل انحطوا لدرجة أدنى من البهائم، فلا كرم ولا كرامة لضيف عندهم، ولا حتى للمار بديارهم، بل اغتصاب للمارين بديارهم وللضيوف والغرباء ولأموالهم.

كانت بلدتهم وكرًا لعصابات السطو والسلب والنهب، وسوقًا للبضائع المسروقة.. لا رجولة ولا نخوة ولا نجدة للمستجير.. فضلًا عن الأدب مع خالقهم سبحانه. مصطلحات تصبب منها لوط خجلًا، وغلا منها غضبًا.

لوط في غاية الإحراج

قرية يقال لها سدوم وثنية جاحدة لنعم الله، تحولت إلى وكر للصوص وقطاع الطرق، فلا كرم فيها، ولا كرامة للضيف أو للمسافر المار بديارهم، بل لا رجولة ولا نخوة ولا نجدة للمستجير.

أرسل الجبار لهم رسوله لوطًا، فدعاهم سنوات بلطف ولين.. يتودد إليهم.. يبشرهم بالجنة تارة، وتارة ينذرهم عذاب الله.. يذكرهم بزوال الأمم السابقة قوم نوح وهود وصالح، لكنهم لم يرعووا.. تقرب منهم.. صاهرهم، فتزوج امرأة منهم، ورزق منها ببنات، هن زهرات حياته.. رباهن على التوحيد، فنشأن مؤمنات، لكن أمهن ظلت على شركها، وهو ما زال يحبها، ويتمنى هدايتها، لكن يبدو أن الأمر قد فات.

هاهم الملائكة يجوبون الآن يجوبون شوارع المدينة بثقة، وكأنهم يحددون إحداثيات القصف المميت.. يمشون عبر شوارع سدوم، وسط نظرات مقززة من قوم بالغي الانحطاط.. تدهشهم ثقة الغرباء بأنفسهم، وتخيفهم معرفتهم بالطرقات.. كيف عرفوا بيت لوط، وهم لم يروه من قبل. وقف الضيوف عند الباب ثم استأذنوا، فسمع لوط الاستئذان، فنهض لفتح الباب، وما إن فتحه حتى اتسعت عيناه من هول الصدمة.. لم يعرف من هؤلاء الغرباء، بل لا يريد أن يعرف.. ضاق صدره، وكأنه يقول للغرباء: ما الذي أتى بكم إلى هذه المدينة الغبية؟

تغيرت ملامح وجهه وتكدر.. لم يبش بهم كما بش إبراهيم رغم كرمه.. شعر بالإحراج منهم، وهو يرى نظرات القوم المخجلة من بعيد، لم يسألهم ما يريدون.. أدخلهم مباشرة، وهو يتصبب حرجًا وخجلًا قد ضاقت به الأرض، و﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، ارتبك.. كيف سيتصرف الآن، وبعض قومه خلف الباب كاللصوص؟ أي قرية قذرة ابتلي بإصلاحها هذا النبي؟

شل تفكيره.. ذهل عن تقديم أي شيء لضيوفه، ولم يُجر أي حديث ودي معهم.. أصبح مشغولًا بالتفكير في حمايتهم. كأني به يدور في البيت لا يدري ما يفعل، وفجأة أفاق على طرق شديد، وكأنه محاولة اقتحام.. مشى لوط نحو الباب، وهو في غاية الغضب والحزن، ثم فتحه، وإذ بوجوه قومه وعيونهم المتلصصة. ومباشرة بدأ يرجوهم.. يتوسل إليهم ألا يحرجوه. ويقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، فردوا بكل وقاحة: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أو لم نحذرك من إيواء الناس؟ ناشد ما تبقى لديهم من قيم، لكنه لم يجد شيئًا، وكأن البخل واللصوصية والشذوذ عنوان الشرف عندهم.

وخرج لوط من زنزانته

ناشد لوط صلى الله عليه وسلم ما تبقى لدى قومه من حياء، لكنه لم يجد شيئًا داخل وكر العصابة المسمى سدوم.. حاول إعادتهم إلى آدميتهم.. إلى التناغم مع الطبيعة البشرية: لم لا تتزوجون كبقية البشر.. هؤلاء بناتي وبنات قومي، ألا تشعرون بمعاناة النساء في هذه المدينة التعيسة، كيف يعانين من تخلف الذكور وإهمالهن. قال لوط: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

نزف قلب لوط حزنًا، وأنَّ من أعماقه.. من قلة حيلته، متمنيًا لو أن لديه قوة تردعهم، أو عشيرة تحميه من اقتحام بيته، كلما حل عليه ضيف، حتى أصبح يكره قدوم الضيوف. زفر بكلمات كالجمر، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

لم يكن يدري عليه السلام أنه (كان يأوي إلى ركن شديد)[28]، وأن جنود السماء قد اصطفوا داخل بيته، بل خلف ظهره بالضبط. وفجأة، وفي أشد حالات الضعف والإحباط وفقدان الأمل، دوَّى صوت، رفع معنويات لوط للسماء. نطق أحد الضيوف بأول كلمة.. نطق بصوت كاستلال السيف من الغمد: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، حلقت معنويات لوط.. لم تعد سدوم من أقصاها إلى أقصاها تحرك شعرة من رأسه، أو تستحق خفقة خوف من قلبه.. لقد كان حقًّا يأوي إلى ركن شديد، ومن أشد قوة من الجبار سبحانه، ومن أقوى من المظلوم حين يستشعر قدرة خالقه جلَّ وعلا. اخترقت الكلمة أذنه، فخرج من الباب، وكأنه يخرج من زنزانة.

خرج نحو اللصوص لا متوسلًا ولا راجيًا، بل مهددًا ومانحًا فرصة واحدة.. فرصة واحدة، أو هو العذاب.. تصفح تلك الوجوه، التي ليس فيها قطرة دم، ولا تعرف معنى للحياء أو الوقار أو الذوق.. صاح فيها وجهًا وجهًا، وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾، حدق بنظرات تقول لهم: أنتم مستحقون لبطش الجبار، فما من أمة سبقتكم في جمع كل تلك الصفات.. أنتم تفسدون نظام الحياة، وتجعلونها بائسة من حولكم.. تتسببون في انقراض البشرية، وانتشار الأمراض، فأي عالم يمكن أن يستقر، حين تنتشر فيه بلاد مثل بلادكم، التي تشرعن الإرهاب، وقطع الطريق، والسطو، وتحتفي بالمتحرشين والشاذين.. أي قرية مقززة تلك، التي تهين ضيوفها، وتستدرج المسافرين؛ لتغتصب أموالهم، وتنتهك أعراضهم.. هي بلدة فريدة في الانحطاط تدعى سدوم.

هل طارت مدينة سدوم؟

كانت مدينة سدوم الوثنية نموذجًا لمدن الشيطان، التي تشرعن الإرهاب، وقطع الطريق، وانتهاك الأعراض.. مدن لا تستحق البقاء، فلو انتشرت ثقافتها لأباد العالم بعضه بعضًا، لذا انتهرهم لوط للمرة الأخيرة، فردوا تحديًا وصلفًا ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وإذ بدعوة النبي المكروب تنطلق: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أغلق لوط بابه، وعاد لضيوفه الكرام، فإذ بالضيوف يأمرونه وأهله بمغادرة المدينة الليلة، وفي جنح الظلام، بل أمروه بعدم الالتفات في أثناء الرحيل مهما جرى.. قالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ثم ودعوه وودعهم، وما إن أغلق الباب حتى أخبر بناته فقط، فبدأن بجمع ما يمكن حمله من أغراض السفر.

خيم الظلام على سدوم، ففتح لوط باب بيته، وتسلل هو وبناته تاركين زوجته الوثنية.. تسللوا عبر الطرقات المظلمة، وبين جدران البيوت، وقهقهات السكارى.. كانت قلوب البنات تتمزق حسرة على الأم القاسية العنيدة، ومصيرها المجهول، ولما بدأت خطوط الفجر تتمدد في الأفق، كانوا خارج أسوار سدوم، وفجأة سطع في السماء ضوء مخيف، دوَّت معه صيحة هائلة تفجر الآذان، فارتفع صياح سكان المدينة، وأفاق السكارى على جدران تتصدع وبيوت تنهار، انشقت الأرض فابتلعت سدوم، حتى أصبحت أسطح مبانيها في أسفلها، فلم يعد من جدران، ولا أبراج، ولا سطوح.. كل شيء كان يعلو أرض سدوم انغمس تحتها. امحت مدينة الإرهاب، وقطاع الطرق، والشذوذ، في غمضة عين، ثم بدأ القصف بقذائف السجيل، التي يصفها الجبار، فيقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

امحت سدوم التي لم تكتشف إلا حديثًا، وهلكت زوجة لوط مع من هلك، وبينما كان الموت يخيم عليها، كانت الحياة تشرق في مكان آخر في القدس.. هناك حيث تئن سارة، ويتصبب عرقها، ويشتد ألم الطلق بها، وبعد ساعات كالموت، زيَّنت صرخة المولود منزلها، فخففت آلامها، وامتلأ قلب إبراهيم بالسرور، فضم الطفل وقبله، وعوَّذه بما كان يعوذ به أخاه إسماعيل: «أَعُيذك بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ»[29].

هلك قوم لوط، وولد بنو إسرائيل

تزين ذلك المهد بطفل جميل، بين شيخ طاعن في السن، وعجوز لم تعد عقيمًا.. كانت ولادته معجزة.. طفل سيصبح له شأن عظيم كوالده.. سيصبح جدًّا لعشرات الأنبياء، ولقبائل كثيرة.. كبر الرضيع شيئًا فشيئًا، فعلمه والده التوحيد، ثم أصبح رجلًا، فتزوج في حياة والديه، كما بشر الملائكة في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فرزقه الله بابن سماه يعقوب.. وكان ليعقوب اسم آخر هو إسرائيل.

سعد إبراهيم وسارة بحفيدهما، كما سعدا بإسحاق، وبعد عمر طويل توفيا.. عمر طويل أمضياه في نشر التوحيد والعدل.. عانى خلاله إبراهيم التكذيب والقسوة من قومه، وعانى هو وأهل بيته مرارة التشرد والغربة والشوق للذرية، ولما رزقه الله إسماعيل امتحنه الله بالبعد عنه، وتركه في وادي بكة وحيدًا مع أمه.. كانت سنوات قاسية جدًّا على قلب هذا الشيخ النبي، لكن ذلك يهون في سبيل نشر توحيد الله ونشر العدل.. بنى المسجدين الحرام والأقصى، وها هو اليوم يموت قرب الأقصى، فيبكيه أبناؤه وأحفاده وأتباعه.

يكون نبيًّا لم يذق طعمًا للترف ولا للاستقرار، فكافأه الله بمنزلة عظيمة، وأمر العالم بالسير على منهاجه في الإخلاص له، وعدم الشرك به، أو التعلق بغيره من البشر أو القبور أو الشجر أو الحجر أو الكواكب، فقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾، استلم راية التوحيد بعده ابنه إسحاق، ثم ابنه يعقوب، وبعد سنوات غادر يعقوب الأرض المقدسة، وسكن البادية، ورزقه الله ببنات، وعشرة بنين، وكانت آخر زوجاته بارعة الجمال جدًّا، بل هي أجمل نساء الدنيا.

شعرت تلك الزوجة بأعراض الحمل، وبعد تسعة أشهر أشرق في بيت يعقوب طفل ليس كالأطفال.. أشرق جمال على هيئة طفل.. حمله يعقوب بين يديه، فرأى جمالًا لم ير مثله أحد.. شغف قلبه وسماه (يوسف)، وتعلق به كما يتعلق قلب الكبير عادة بأصغر أبنائه رحمةً وحبًّا، فكيف بطفل كأنه من أطفال الجنة.. طفل قال عنه صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسْنِ»[30]. ما أعذبه، وهو يحبو بين يعقوب وأمه راحيل! وما أجمله وهو يحاول المشي بينهما! فيسقط في حجرها أو حجره، لكن هذا الجمال كان يثير نارًا للحسد، لا تطاق في قلوب بعض أخوته.. حسد جعلهم يعقدون اجتماعًا، يمحون به ذلك الجمال إلى الأبد.

قمر بين الكواكب

كان الطفل يوسف يسحر القلوب بجماله وبراءته.. تتخاطفه أيدي النساء والفتيات، حين يزرن أمه، أو حين تزورهن أمه.. ظل يوسف وحيد أمه، حتى رزقها الله بشقيق له، سموه (بنيامين).. كان الصغيران قرة عين إسرائيل، لكنهما جمرتان في قلوب أخوتهما العشرة، الذين يشعرون أنهم أولى بالاهتمام من هذين الصغيرين، فهم أقوياء أشداء، يعينون أباهم، وينفذون أوامره.

تفاقم الحسد، حتى تمنوا زوالهما، خاصة يوسف الذي يرونه يخطف قلب والدهم، حتى قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، أعمتهم الأنانية عن رؤية المساحات الخلابة، التي يحتلونها في قلب أبيهم إسرائيل الطيب، الذي يحبهم، لكنه طيش الشباب، الذي يفسر أي التفاتة من الوالد على أنها صدود عنه، وبينما كان الأخوة منشغلين بيوسف.. كان يوسف منشغلًا بالسماء.. يحلق عاليًا بين الكواكب، وإذ بحركة تدهشه، وتثير استغرابه.

دنا منه أحد عشر كوكبًا، حتى سجدوا له، بل سجدت الشمس معهم أيضًا والقمر. انتبه الطفل من نومه، الذي ربما كان يستلقي بالقرب من والده، فنظر إليه يوسف بعينين بريئتين ساحرتين، فأخبره برؤياه، وقال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴾.

استنار وجه يعقوب، لكن خاف على طفله، فهمس به قائلًا: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، قد يسخرون منك، وقد يدركون معناها، فيخططون لإيذائك،

ثم طمأن قلبه الصغير، وقال وحيًا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، أي سينعم الله عليك بمعرفة تفسير الرؤى، والنعمة الأعظم هي: أنك ستكون رابع نبي من سلالة جدك إبراهيم.

طوى الطفل سره، وخبأه في مكان قصي داخل صدره، لكن مؤامرة كانت تحاك ضده في الخارج.. حيث يعقد أخوته اجتماعًا حاسمًا للخروج بموقف من هذا الطفل، الذي احتل قلب والدهم.. تكلم بعضهم، فقال: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾. تناسوا أن يوسف مجرد طفل بريء.. حدق حسدهم بما معه من نعم الله، كما حدق إبليس بما مع آدم، وكما حدق قابيل بما مع هابيل.

انتهى وقت اللعب يا يوسف

تطرف بعض أخوة يوسف، فاقترحوا اغتيال أخيهم الصغير، أو رميه في البرية، حتى يهلك أو تأكله السباع قائلين: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾، لكن أحدهم خفف من هذا التطرف، قائلًا: ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾، فلا فائدة من قتله. يكفيكم إزاحته كي لا يحول بيننا وبين أبينا.

راقت الفكرة لهم، فحددوا يومًا للتنفيذ، وقبل الموعد بيوم، دخلوا على أبيهم فحيوه، وجلسوا حوله، وناشدوه قائلين: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، نظر يعقوب إلى عيونهم.. تأمل وجوههم. أنصت للغتهم الجديدة، وقلبه يرتجف، خشية أن يفقد تلك العينين البريئتين، فقال: ﴿ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾، ألم يدر بخلد يعقوب أنه لم يكن ثمة ذئب في الخارج، وأن الذئاب كلها في الداخل، ترمق طفله بعيون مخيفة.. تريد خطف أحب الناس إليه، لترميه في قعر بئر مظلمة، قد يفقد حياته داخلها، وقد يذهب عقله رعبًا بين طيها.

نطقت ألسنتهم بإجابة ممتلئة بالهياط: ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾، نحن عصبة.. تلك هي الكلمة الفخ، التي أغرتهم وغرتهم.. وافق الشيخ على مضض، ولما أشرقت الشمس كان العشرة والطفل في طريقهم للبرية.. ساروا لا يفتشون عن مراتع للطفل، بل عن بئر ملائمة على طريق السيارة، عل قافلة تعثر عليه فتلتقطه، وتريحهم منه. وبعد مسير وبحث، عثروا عليها. ربما كانت جافة، أو كانت كبيرة، وفيها مساحة تكفي لجلوسه أو وقوفه، ككثير من الآبار، وفجأة وبينما كان الطفل يلهو ببراءة.. لا يدري ما الذي يحاك له.

أطبقت عليه أيد غليظة.. تعال. انتهى وقت اللهو يا يوسف.. قامت تلك الأيدي بخلع قميصه، ثم رفعته عن الأرض، وعيناه زائغتان، لا يدري ما اسم هذه اللعبة المخيفة، ويناشدهم التوقف..

لم يتوقفوا، بل أخذوه نحو حافة البئر، ثم أنزلوه كدلو في غيابة الجب، وهو يناشدهم.. يصرخ. يستغيث، ثم ألقوا عليه نظرة أخيرة، ليتأكدوا من عدم موته. رفع الطفل رأسه، وتعلقت عيناه الدامعتان بدائرة البئر، التي تطل منها عشرة رؤوس، وفجأة انقشعت الرؤوس، وظلت عيناه معلقتين بالسماء، فأيقن أن أخوته قد تخلصوا منه، وأنه لن يرى راحيل ويعقوب الحبيبين.

مسيرة اللطم والنواح

في قاع البئر المظلمة، كان يوسف عاري الجسد خائفًا.. يناشد عشرة رؤوس تطل من فوهة البئر وتحدق به، ولها ثرثرة، وفجأة انقشعت الرؤوس، وقبل أن يستبد به الخوف، أو يذهب عقله من الرعب.. أنزل الرحمن الرحيم على قلبه السكينة، وأوحى إليه بالطمأنينة.. كلمات تقول له: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، انقشع المتآمرون عن البئر، بينما كان أحدهم يمسك بقميص يوسف ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ فلطخوه بذلك الدم الذي قد يكون دم طير أو دابة. وبذلك انتهت المهمة، ولم يبق سوى تسليم الدليل للوالد، ليتأكد من فناء يوسف.

غابت الشمس فتحولت فوهة البئر المضيئة إلى دائرة سوداء، تشع خلالها بعض النجوم، وكأنها نهاية نفق مخيف، ولما دخل وقت العشاء كان الشباب الطائشون يقبلون على الديار بتثاقل.. يتظاهرون بالحزن والبكاء، كلما قابلهم أحد، ولما اقتربوا من البيت، بدأ مستوى التباكي والنواح يرتفع.. دخلوا على أبيهم، فرفع الشيخ رأسه وحدق بمسرحية الحزن والمناحة التي تعرض حوله، حين جاءوا ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

وقبل أن يسأل يعقوب أو يستفسر. مد أحدهم القميص لوالده، فأخذه الشيخ وبدأ يقلب ويتأمل قميص حبيبه، ويتأمل الطريقة الغبية لصبغه بالدم، فبكى قلبه حزنًا وشوقًا، واستودع الله صغيره، ثم تأمل دموع التماسيح في عيون الممثلين أمامه، فزفر بكلمات كالجمر. كلمات كشفت هزال مسرحيتهم، ثم قال صلى الله عليه وسلم لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فاضت عيناه وبكى، وأقبلت أمه (راحيل) ملهوفة مفجوعة، تسأل عن سبب هذا البكاء والعويل.. نظرت إلى الشباب، فلم تجد يوسف بينهم. أين ابني يا يعقوب؟

أراها قميصه الذي يدين أخوته، فصرخت وناحت واحترق جوفها: كيف يأكله الذئب، وأنتم حوله. أين هياطكم وتعهدكم بحمايته؟

لم تجد إجابة، ظلت تبكي طفلها طوال الليل، وأشرقت الشمس وهي تبكي.. لم تذق طعمًا للنوم ولا للطعام.. مرت الأيام والعبرة تخنقها، كلما وقعت عيناها على فراشه، أو قلبت ملابسه، أو جمعت ألعابه.. يرتفع شهيقها كلما تذكرت جماله وبراءته، التي تزين البيت والحي، ويزيدها يعقوب حزنًا حين يؤكد أن الذئب لم يأكله، فهل باعوه أم تركوه عاريًا جائعًا خائفًا.. أسئلة لا إجابة لها سوى الدموع.

الطفل والقافلة

أمضى يعقوب صلى الله عليه وسلم وراحيل ليلتهما يبكيان طفلهما.. لم تجد الأم طعمًا للنوم، ولا لذة للطعام، وطفلها لم يعد بينهما.. ترى أين هو؟ حتمًا يوسف ليس في جوف ذئب.. هذا ما كان يعقوب على ثقة منه. فطفلهما في بئر مظلمة.. يهتز جسده الصغير كلما نعس.. ينتفض كلما أعياه البكاء والتعب، حتى أشرقت الشمس.

رفع الطفل رأسه نحو فوهة البئر، فإذا هي قد عادت لتنير شيئًا فشيئًا، مرت الساعات، وفجأة سمع حركة وأصواتًا في الأعلى. لعلهم إخوتي ندموا، فعادوا لأخذي.. لم يكن الصوت صوت إخوته.

كانت سيارة أناخت عند البئر ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾، لجلب بعض الماء.. خفق قلب الطفل فرحًا، فمد يديه نحو الدلو والحبل، فشعر الوارد باهتزاز الحبل، وانجذاب الدلو قبل أن يمتلىء. حدق بقاع البئر، فإذا هو بطفل يمسك بدلوه، وينادي.. صاح الوارد برفاقه؛ ليروا ما لا يمكن تصديقه، وهتف: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾، نظر المسافرون بعضهم إلى بعض مستغربين، وأقبلوا نحو البئر وأطلوا، فطلبوا من الطفل التمسك بالحبل، أو نزل أحدهم لرفعه. بدؤوا بسحب الحبل برفق خوفًا عليه.

وفجأة أشرق القمر من ظلمة الجب.. طفل لم يروا مثل جماله.. تبدو عليه آثار الجوع والسهر والتعب.. ترى هل سقط، أم أسقط؟ ومن يجرؤ على رمي طفل، فكيف بطفل بهذا الجمال؟ أخرجوه وسقوه وأطعموه وألبسوه ثيابا فغدا كالقمر.. سألوه عن اسمه وقصته، فعرفهم بنفسه، وأنه ابن يعقوب النبي، وأن إخوته ألقوه في الجب، ولم يتركوا له حتى قميصه الذي يستره. لم يأبه المسافرون به، ولا بنبوة أبيه.. ما يهمهم هو أنهم حصلوا على عبد، يدر عليهم دراهم.. حولوا ابن نبي الله إلى سلعة، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، فهو لا يصلح للخدمة، نظرًا لصغر سنه.

أخبرهم بشوقه لأمه.. لأبيه، لكنهم لم يبالوا، بل أركبوه فوق إحدى مطاياهم، ثم تحركت السيارة متجهة نحو مصر، التي كان يحكمها آنذاك ملوك، يقال لهم (الملوك الهكسوس)، وبعد أيام دخلوا مصر الجميلة. تهادوا عبر شوارعها، وهدفهم سوق النخاسة، وبعض المارة يتأمل هذا القمر الحزين، فتخفق قلوبهم. توقفت السيارة في السوق، فأنزلوه وعرضوه للبيع. كانت عيناه البريئتان تتلفت أمام تحديق المتطفلين، وتفحص التجار والمشترين، تتلفت وكأنها تبحث عن حضن راحيل، أو طيف يعقوب، وفي أثناء تلفته رأى رجلًا أنيقًا، يبدو عليه الثراء.. يتهادى نحوه.

أجمل عبد على الأرض

كانت التساؤلات تعصف بقلب يوسف الصغير.. عيناه البريئتان تائهتان، وهو يعرض للبيع في سوق العبيد بمصر، وإذ برجل أنيق يقترب منه.. ينظر إليه فيرق له، ويسكن قلبه، فيلتفت للبائع ويسوم الطفل، فلم يتردد أصحاب السيارة في بيعه، ﴿بِثَمَنٍ بَخۡسٍ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾.

أنزله الرجل العزيز من منصة البيع، وأخذ بيده الصغيرة نحو منزله، وقد ملأ الرحمن قلبه برحمته.. تهادى معه في الطرقات، أو ركب معه إحدى العربات الهكسوسية، والطفل الحزين لا يدري ما مصيره، فالحياة تتقلب أمامه بشكل سريع وصادم ومفاجيء.. كان بالأمس في حضن راحيل ويعقوب، ثم أصبح وحيدًا في قعر بئر مظلمة، لا أنيس فيها سوى الله، ثم تحول إلى بضاعة تجلبها القوافل، وها هو اليوم لا يدري أنه عبد، ولا إلى أين سيؤخذ، ولا ما سيفعلون به.. هواجس لن يزيحها سوى رؤية راحيل ويعقوب الحبيبين.

توقف العزيز عند أحد المنازل الفخمة، ثم دخل وبيده أجمل عبد على الأرض.. هتف بزوجته فأقبلت.. فتحت عينيها على طفل كالصباح، فتأوه قلبها من جماله، فبشرها زوجها، وقال ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾، عانقت جماله، ونادت خدمها، فأمرتهم بتنظيفه، وإلباسه ثيابًا جميلة. غسلوا جسده الصغير، وسرحوا شعره الناعم، وألبسوه ثيابًا زادته فتنة وجمالًا.. تلألأ كألماسة، ثم أطعمته وسقته، واعتنت به حتى ملأ حبه قلبها يومًا بعد يوم.. كبر الطفل، وكبر حزنه على أمه وأبيه، اللذين يبكيانه منذ رحل عنهما.. تجاوز يوسف سن المراهقة، فازداد جماله، وازداد شوقه لأهله، رغم أنه يتقلب في الدلال.. كان مؤدبًا عفيفًا.. يزداد وفاءً لسيده الذي أكرمه، ويزداد رجولةً وأخلاقًا، يزداد جماله حتى بلغ مستوى فردوسيًّا، هو (شطر الحسن)[31].

كان فتنة للنساء أينما حل وأشرق.. حتى زوجة العزيز تغيرت، منذ أن بدأ يوسف يخطو أولى خطوات الرجولة.. غيَّرها جمال لا يُرى إلا في الجنة.. خلت منه الأرض، فاستقر في بيتها، فأنساها أنه ذلك الطفل، الذي اشتراه زوجها قبل سنوات.. في البداية كانت تخاف عليه، ثم أصبحت تغار عليه.. أمسى في نظرها معشوقًا لا تطيق فراقه، ولا تريد لأحد أن يعلم أين تخبئه في قلبها، أما ما زاد افتتانها به، فهو تعففه ورجولته، التي تترفع عن الخيانة لسيده.

حصار عاشقة

أصبح يوسف في نظر زوجة العزيز معشوقًا لا تطيق فراقه، وزاد من افتتانها به تعففه ورجولته، التي تترفع عن خيانة سيده، والنساء لا يحلمن بشيء كحلمهن بالعفيف الجميل.. حاولت العاشقة أن تظهر له أنها تغيرت.. وأنها لا تمت له بصلة قرابة.. شعر الفتى بذلك، وشعر بفداحة الخيانة، لمن فتح له بيته، وأكرمه وعامله كابنه.. كان يخشى الله في مال سيده وعرضه، لذا كان يتجاهل كل قوائم

الإغراء، ولوحات الأنوثة، التي تُعرض عليه، وفي أحد الأيام كان يوسف في البيت لوحده.. خلوة لا يمكن إلا لمن عصمه الله من الأنبياء والأولياء أن ينجو منها.

مشت المرأة نحو الأبواب، تقفلها بابًا بابًا، لتطمئنه أن لا أحد يراه، أو يدخل عليه.. أقبلت على الفتى الطاهر، فإذ به يصدم بخطواتها ومآربها، ذكرها أن لها زوجًا، وأن لزوجها عليه معروف، لن يتنكر له، لكنها لم تتراجع، فالخلوة حالة سكر.. يغيب فيها العقل والتفكير في العواقب، فكيف إن كانت الخلوة بأجمل البشر.. الخلوة بيوسف كمن ينظر إلى الشمس في رابعة النهار.. تغيب لحظتها كل الكواكب والنجوم والأجرام.. دنت منه ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لكن المرأة لم تعد تبالي سوى بمعشوقها.. أصبحت الدنيا بأسرها مختزلة في هذه اللحظة.

اللحظة التي طالما هدمت بيوتًا، وضيعت أسرًا، وورثت أطفالًا.. لا يدرون من رمى بهم إلى هذه الدنيا.. لقطاء، كلما رأوا طيفًا يشبههم بكت قلوبهم، وقالت: ترى هل هذا هو أبي، هل هذه هي أمي؟ وفي لحظة ضعف بشرية همَّ بها يوسف.. تحرك قلبه، وما إن همَّ قلبه، حتى شع في قلبه الضوء، الذي أناره، وهو يقبع في قعر البئر.. شع في قلبه برهان ربه، ودليله على أنه نبي وابن نبي، ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، أفاق يوسف.. التفت إلى أحد الأبواب، ثم ركض نحوه ليهرب منه، فركضت المرأة خلفه، حتى أمسكت بقميصه من الخلف ثم جذبته، فإذ بصوت القميص ينشق، فينكشف ظهره، ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾، ظل يوسف يركض بقميص ممزق نحو الباب الخارجي، وقبل أن تقبض يده على العروة فُتح الباب.. فتحه شخص من الخارج، فصعقه المشهد.

يوسف يتلقى الطعنات

فتح الباب، فتوقف يوسف، وتوقفت المرأة خلفه، وهي تمسك ببقايا القميص.. اتسعت الأعين، وارتجفت القلوب لهول المفاجأة.. إنه زوجها العزيز.. هو من فتح الباب.. تحنط الثلاثة.. حنطتهم المفاجأة.. ارتجفت المرأة، وتساءل صمت العزيز: مم يهرب يوسف، ولِمَ تقف زوجته خلفه، وصدرها يعلو وينخفض؟ ولماذا تمسك بقميصه المشقوق.. هل تريد أن ترقعه مثلا؟ وقبل أن يحلل المشهد، وقبل أن يتكلم.. نطق الكيد.

ضحت بمعشوقها.. ضحت بحب يوسف، وجمال يوسف، وفتنة يوسف، من أجل إنقاذ نفسها، حين ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، فيوسف هذا متحرش شرير، وهي تركض خلفه، لأنها كانت تريد تأديبه وضربه حفاظا على شرفك، لذا فهو يركض خوفا منها وهربا من العقوبة.

ذهل يوسف.. اتسعت عيناه من وقاحة المرأة وجرأتها.. ذهل من تحولها من متحرشة إلى سيدة للعفاف.. من حمل إلى لبؤة تمزق من يقف أمامها، وذهل العزيز أيضا فلم ينطق بحرف.

هنا نطق يوسف المسكين فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

تحول المشهد إلى خنجر، يسافر في قلب العزيز.. أسكته الحزن والحيرة بين الزوجة والابن، لذا استشار شخصًا حكيمًا من أهلها، فإذ به يقول له: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، لأنها مزقت القميص، وهي تدافع عن نفسها، وتقاوم اعتداءه. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ، لأنه قد أعطاها ظهره وولى عنها.

عاد العزيز لبيته وتأمل القميص، فإذ بقميص يوسف هو الدليل كالعادة، لكن بما أن شيئًا لم يحدث، وأن المسألة مجرد نوايا، قام العزيز بتوبيخها، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ثم قال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾، ثم التفت إلى يوسف طالبًا منه أن يتناسى الأمر، وكأن شيئًا لم يحدث، وقال له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾.

تناسى يوسف المرارة، لكن المرأة لم تتناسى هزيمتها.. قررت الانتقام لأنوثتها من معشوقها، فقد انتشر خبر التحرش في المدينة، ربما من ثرثرتها، فبدأ بعض النسوة اللواتي كن يحسدنها على يوسف بالتشفي منها.. يسخرن من استعلاء الفتى وترفعه عن إغوائها وإغرائها وتمريغه لأنوثتها ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وصلت وشوشة المجالس إلى مسامع العاشقة المنكسرة، فقررت أن يعشن شيئًا من معاناتها.. قررت أن تلقنهن درسًا كي يبتلعن ألسنتهن.

درس للشامتات

أرسلت زوجة العزيز بعض خدمها ببطاقات دعوة شفهية، لجاراتها وصديقاتها اللواتي شمتن بها. خرج الخدم نحو بيوت النساء بيتًا بيتًا.. يدعونهن لوليمة خاصة. لم تتردد النساء الفضوليات في تلبية الدعوة.. إنها دعوة لا يمكن رفضها، كيف لا، وبعض الحديث سيكون عن يوسف الفتان، وفي بيت عاشقته.. كيف لا، وهناك سبق من المصدر نفسه.

أشرق يوم الاحتفال، فهيأ الخدم المكان حسب أوامر سيدة الحفلة، ووزعت المقاعد، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾، في اتجاه يخدم هدفًا، ووضعت المشروبات، وصفت أطباق الفواكه اللذيذة بشكل أنيق، أما المدعوات فارتدين الملابس الأنيقة والحلي، واكتحلن وتعطرن، فاليوم يوم التنافس أمام أجمل أهل المدينة.. تداعت الخطوات نحو بيت العاشقة. تبخترت الأنيقات، علها ترى طيف يوسف.. سرن

وضربات القلوب تسابق الخطوات، ولما وصلن كانت امرأة العزيز وخدمها في استقبالهن.. رحبت، ودعتهن للجلوس، فأخذن مقاعدهن، وتبادلن أحاديث المجاملة، والابتسامات الصفراء، وبعد ساعة قدم الخدم الفاكهة، ونهضت سيدة القصر، ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، حادة، ودعتهن بلطف، لإكمال حديثهن في أثناء تناولها، ثم تهادت بخبث نحو أحد الأبواب، التي تؤدي إلى مكان يتواجد فيه يوسف، منتظرًا أوامرها الصارمة. أقبلت نحوه بحزم، وأمرته أن يدخل على ضيفاتها، وأن يقف أمامهن دون أن يتكلم.. تقدمت، ثم قالت: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

أشرق البدر من الباب، وأفواههن منشغلة بالمضغ أو الثرثرة، وسكاكينهن منشغلة بالفاكهة.. أشرق يوسف، فارتجفت القلوب، وتوقفت الثرثرة، حتى الأفواه ظلت مفتوحة.. تاهت الأحرف منها.. شخصت الأبصار، والأيدي تحرك السكاكين دون وعي حتى جُرِحَتِ الأيدي.. كانت امرأة العزيز بجواره، لكن أحدًا لم يأبه بها، أو يخجل منها.. غابت المجاملة والشعور بالألم في حضور جمال الجنة.. جمال الجنة، الذي أذهلهن عن كل شيء.. عن الطعام والكلام والآلام وتعديل الملابس وخصلات الشعر.. ذهلن أمام هذا الفاتن، الذي لا يفصلهن عنه سوى خطوات.. ينتزع قلوبهن قلبًا قلبًا، وإذ بزوجة العزيز تصدمهن، حين أصرت على تمريغ هذا الجمال في الوحل.

انتقام عاشقة

لم تقل النساء عن يوسف: إنه أجمل شباب المدينة.. لم يقلن: إنه أجمل أهل الأرض.. لم يجدن لجماله قاموسًا بشريًّا، فهذا الحسن لا ينتمي لعالم البشر، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وقف الملاك لا يدري ما يقول.. وقف بين سيدة متسلطة متحرشة، ونساء منهارات، لم يأبهن لنزيف أيديهن، فيوسف جمال لا يوصف، ولا لغة تعبر عنه سوى لغة القلوب.. بدأت سيدة القصر تلملم كرامتها من أحرفهن المرتبكة، ونظراتهن الزائغة.. شعرت بالزهو.. بالانتصار.. بالشماتة بالشامتات اللواتي لن يجرؤن على تناول سيرتها بعد اليوم بسوء.

هتفت بهن تعلن نصرها عليهن، ومعترفة بنصر يوسف عليها، فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، لكن العزة أخذتها بالإثم.. قررت إذلالهن، وإذلال يوسف معهن، ويبدو أن لتلك السيدة علاقات ببعض المتنفذين، لذا قامت بتهديده أمام النساء بلا خجل، قائلة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، فهي لم تعد تهتم لشماتتهن بعد أن رأت انهيارهن أمامه، أما الفتى فشعر بالحزن، وهو يتلقى التهديد.. شعر بالضعف أمام جمال ألقاه في بئر.. جمال حوله من (الكريم ابن الكريم بن الكريم بن الكريم)[32] إلى عبد ذليل، بين نسوة لا يستطعن السيطرة على غرائزهن.. شعر بقلة الحيلة، لكنه أدرك أنه في معية الله، الذي لم يخذله في مواقف أشد.. تناسى الأرض، وتعلق بالسماء، وتوجه إليه سبحانه، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أدركت السيدة أن عبدها أكثر حرية منها، وأنه أرقى منها بسماوات.. فعبدها فضَّل أن يكون حرًّا في السجن، على أن يكون عبدًا للمعصية خارجه. استطاعت المرأة استصدار أمرًا بسجنه، فقرروا ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، بعد أن قضى من عمره أكثر من خمس عشرة سنة من الرق والغربة ومرارة الذل بتهمة الجمال والحب، وها هم السجانون يقتادونه، لتبتلعه الزنزانة مدة لم يحددها قضاء، بل يتحكم بها مزاج سيدة متحرشة.. ظلت مصرة على إبقائه داخل السجن، ما دام مصرًّا على العفاف.

نسيته المدينة، وتناسته النسوة، وحتى العزيز نسي أمره.. اثنان لم ينسياه يومًا، ولم يتوقفا عن البكاء عليه. يعقوب وراحيل.

أصبح نبيًّا في السجن

في اليوم الذي ابتلعت فيه الزنزانة يوسف دخل ﴿مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾،) وثنيان.. اقتسم الثلاثة الزنزانة، وأمضيا مدة، تعلم الفتيان خلالها من سمت يوسف وعبادته الكثير.. كان متواضعًا رغم ما حباه الله به من جمال، فكم من فتى جميل ضيعه جماله، وكم من جميل أنساه جماله فضل الله عليه، وفي السجن بدأت نبوة يوسف.. بدأت حين قال لزميليه في الزنزانة: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

أدرك الفتيان أن يوسف فتى ملهم، وأنه ابن نبي وحفيد نبي، فبدأا يستشيرانه، ويستنيران برأيه، وذات يوم أفاق أحدهما من رؤيا غريبة، فطلب من يوسف تفسيرها، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾، فتذكر الآخر رؤيا رآها، وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. وقبل أن يفسر الرؤيا لرفيقيه.. أحب أن يقدم لهما أهم رسالة يحملها الأنبياء وأتباعهم، وهي (التوحيد)، رسالته ورسالة والده وجده، ورسالة كل الأنبياء قبلهم وبعدهم، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، ثم خاطب عقلي صاحبيه، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، ثم بين لهم أن الوثنيين ضحايا العادات والتقاليد، وأن الآلهة التي يعبدونها مجرد أخشاب وصخور، يشكلونها بأيديهم.. أنتم أرقى منها، وأنتم من يتحكم بها، ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ثم التفت لصاحب الرؤيا الأولى فبشره، وقال: إنك ستكون ساقي رجل مهم، وأخبر الآخر أنه سيحكم عليه بالصلب، وسيبقى مصلوبًا حتى تنقر الطيور الرامة رأسه، وهو مصلوب. قال يوسف:

﴿ يَصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾، وبعد أيام أو أشهر سمع المسجونون أصوات خطوات السجانين، وهم يقفون أمام الزنزانة.. فتحوا بابها. ثم حدقوا بأحد الفتيين.. بادلهم النظرات، وهو يرتجف.. إنها اللحظة المحتومة، التي تحدث عنها يوسف.. الصلب.

يوسف في ممرات النسيان

أخذ السجانون رفيق يوسف.. ساقوه نحو ساحة الإعدام، ثم صلبوه، وبعد مدة فاحت رائحة جثته، فإذ بالطيور الرامة تحلق فوقها، وتحوم، ثم تهبط على الخشبة، وعلى رأسه فتنقره، وتأكل منه، وقبل ذلك أو بعده أقبل الحرس؛ ليأخذوا الفتى الآخر، ولكن بطريقة ودية، وقبل خروجه استوقفه يوسف، وناشده أن يحرك قضيته عند سيده، لأنه يبدو أن الناس قد نسوه، ونسوا قضيته، وقال له: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾.

خرج الفتى من السجن، ثم تدرج في الوظائف، حتى أمسى ساقي الملك الهكسوسي، فانشغل بما هو فيه من نعمة، وأنساه الشيطان والانشغال بالخمر يوسف، الذي اقترب من الثلاثين من العمر.. لا أحد يأبه به، فهو عبد مقطوع الصلة بالمجتمع، حتى أولئك النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وتمنين وصاله ولو لساعات، لم تتحرك ضمائرهن لمناشدة السيدة المتسلطة، أن تعفو عنه.

لم يكن في الزنزانة ما يسلي سوى القرب من الله سبحانه، والأنس بذكره في روحانية شفافة، لا يعكر صفوها شيء.. تتماهى روحه بأنوار الحب لله، فيتلاشى الشعور بالحبس.. ظل يوسف في عبادة، وكأنه ملاك في زنزانة تتضوع بذكر حبيبه ومناجاته سبحانه، أما خارجها، وبالتحديد في قصر الملك، فقد كان هناك مشهد مخيف.. سبع بقرات عجاف، قد بدت أضلاعهن من الهزال والضعف، يهجمن على سبع بقرات سمان، تتفجر ضروعهن لبنًا.. دنت الهزال من السمان، وفتحن أفواههن، ثم بدأن يلتهمن السمان، وكأنهن من السباع الضواري.. كان هذا المشهد يحدث وسط اهتزاز أربع عشرة سنبلة.. سبع خضر، وسبع يابسة.

أفاق الملك الهكسوسي من رؤياه فزعًا.. جلس على سريره متضايقًا، ولما غادره، واغتسل ولبس حلته الملكية وحليه، وخرج محاطًا بحرسه.. ظل يمشي في ممرات القصر مهمومًا، حتى وصل عرشه الذي اصطفت حاشيته حوله، وانحنت له، ثم جلس على العرش، وقدم له الساقي شرابه.. نظر الملك لمن حوله، والحيرة تلون وجهه، وأخبرهم عن رؤياه، قائلًا: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴾، كانت الرؤيا رموزًا مخيفة، ورغم أن الملك هو من رآها، إلا أن الحاشية عجزت، حتى

عن صبغ رموزها بألوان التفاؤل.. عجزت حتى عن رفع معنويات الملك، وإذ بالساقي يتذكر رفيق الزنزانة يوسف صلى الله عليه وسلم.

يوسف يرفض مغادرة السجن

تمنت الحاشية أن يتجاهل ملكهم هذه الرؤيا، التي أقلقته قائلين: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾، هنا تذكر الساقي رفيق الزنزانة.. تذكر الفتى صادق التعبير، الذي تحققت نبوءته فيه، وفي زميله المصلوب، فنظر للملك بحماس، وقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾، للسجن، ففي إحدى زنزاناته شخص لا يكذب تفسيره للرؤيا. طلب الملك فورًا تمكين الساقي من دخول السجن، فانطلق بصحبة الحرس.

فتحت البوابات للساقي، فتهادى في الممرات، التي تومض فيها المشاعل.. ممرات مخيفة، وكأنها بنيت من الآلام والذكريات المريرة.. ظل يمشي حتى أصبح أمام الزنزانة، ففتح الباب ودخل الساقي، فتأمله يوسف صلى الله عليه وسلم وعرفه رغم السنوات.. نظر إليه وفي عينيه عتاب.. تبادلا التحايا، ثم قال الساقي: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ثم سكت. نظر إليه يوسف، ثم نطق وحيًا، فأنصت الساقي لتأويل الرؤيا باهتمام، ثم ودع يوسف وعاد للملك، والخوف يملأ قلبه. وما إن أصبح أمامه حتى أخبره: أن الصديق فسر له الرؤيا، وضمنها نصائح ستفيد الدولة، رغم أنه في السجن، فيوسف يقول: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، ذهل الملك من دقة التفسير، وزاد الساقي ذهوله، عندما أخبره أن يوسف سبق أن فسر له رؤياه ورؤيا صاحبه، فتحقق التفسيران.

هنا أصدر الملك أمرًا بإحضاره للبلاط فورًا. انطلق الرسول، ولما دخل على يوسف بشره بالعفو الملكي، وطلب منه بشكل لطيف أن يصحبه مكرمًا إلى الملك. ظن الرسول أن يوسف سيسابقه إلى القصر، لكنه لم يتزحزح من مكانه، ولم يأبه بالإفراج عنه.. نظر إلى رسول الملك، وحمله شرطًا للخروج، قائلًا: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، عاد الرسول فأخبر الملك الذي كان خائفًا على اقتصاد دولته وأمنها، لا سيما وهو من الهكسوس، وهم يخشون من عودة الفراعنة.. كان متلهفًا لرؤية الصديق، لكن قصته المجهولة مع النساء شدته، فأمر بالبحث عنهن، وإحضارهن إلى البلاط.

وأصبح العبد أميرًا

انطلق الحرس نحو امرأة العزيز، التي استغلت سلطة زوجها، وعلاقاتها في تلفيق التهم، لأصدق وأطهر وأجمل من يمشي على الأرض، فدلتهم على أبواب النساء.. تم استدعاؤهن واحدة واحدة، وهن يرتجفن.. لا يدرين ما جريمتهن، حتى أصبحن جميعًا أمام الملك.

شعرت امرأة العزيز بتلاشي علاقاتها بالمسؤولين، أمام حزم الملك، الذي استأمنهم، فاستغلوا ثقته. وقفت أمام حاكم لا وقت لديه؛ ليضيعه على ثرثرتهن وكيدهن.. حدق بوجه امرأة رمت غرائزها فتى في السجن لأكثر من سبع سنوات، لمجرد أنه جميل عفيف. صاح الملك بالنساء: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، فارتجفن، و﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

هنا انهارت امرأة العزيز، التي كانت بالأمس تهدد وتتوعد.. انهارت أمام ملك حازم، تسقط أمام حزمه سلطات من دونه، فاعترفت مباشرة، وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، خرجت النساء من القصر خجلات بعد أن تم إثبات براءة الفتى المظلوم، الذي أمضى أزهى أيام عمره في السجن ظلمًا، أما الملك الحكيم فلم يملك نفسه من شدة الإعجاب برجولة يوسف وأمانته ووفائه وصدقه وعفافه.. مباشرة أصدر أمره بتعيينه مستشارًا خاصًّا له، قبل أن يخرج من زنزانته، وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

انطلق الرسول، ولما دخل على يوسف أخبره بشهادات النساء، واعتراف امرأة العزيز بذنبها وظلمها، فتهلل وجه الصديق، ولمعت عيناه فرحًا، وامتدحه نبينا صلى الله عليه وسلم على موقفه، فقال: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[33].

ملأت السعادة قلب يوسف صلى الله عليه وسلم وخرج للحياة مجددًا، كما خرج من الجب، وتوجه نحو القصر معززًا مكرمًا، ولما وصل كان الملك بأحر الشوق للقائه. وصل يوسف، فأشرقت النبوة الوسامة والأدب والصدق على مجلس الملك.. تكلم فذكر لمن حوله سبب رفضه الخروج من السجن. وهو أنه يريد أن يعلم سيده السابق ثبوت براءته تمامًا. قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم تكلم الملك مطمئنًا يوسف، ومصدرًا أمره بتعيينه في أرقى المناصب، فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أدرك يوسف ثقل الأمانة، فاجتهد في الإخلاص لدولته، رغم أنها دولة وثنية.

نبي وزير في دولة وثنية

أصبح النبي الأمين يوسف صلى الله عليه وسلم مخيرًا.. ينتقي من المناصب ما يريد، فنظر إلى مصلحة دولته، حتى وإن كانت وثنية.. لم يضيع وقتًا بالرفاهية، ولم ينشغل بالإثراء على حساب وزارته.. لم يطلب من الملك شيئًا لنفسه.. لا مرتبًا ولا قصرًا ولا خدمًا، بل لم يقدم التماسًا يرجوه فيه البحث عن والديه وأخيه، الذين يشتاق لهم منذ قرابة ربع قرن.. أصبحت الدولة والشعب والملك همه الأول والأخير.. شعر بحاجة الدولة لمشروعات وخطط مستقبلية للأمن الغذائي المهدد بالخطر، لذا أخبر الملك بأهم قدراته التي قد تعود على الوطن بالنفع، فقال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

صدر أمر ملكي بتعيينه مسؤولًا عن الاقتصاد.. أصبح العبد أميرًا.. أصبح مسؤولًا عن إطعام الأيتام والفقراء والعبيد، وحتى الأغنياء. مباشرة أمر الوزير الجديد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بإنشاء ما يشبه صوامع للغلال للادخار، وشجع زراعة القمح تحسبًا لأيام كساد وجفاف مخيفة متوقعة، فغير بنزاهته وعدله ومشروعاته الناجحة حال بلاده، والبلاد المجاورة لبلاده إلى الأفضل.. غيرها برسالة الأنبياء الثانية، وهي العدل، بعد أن مكّن له الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

مرت سبع سنوات عامرة بالتخطيط والعمل الجاد والأمانة، والنصح للدولة والشعب وللملك، الذي وضع ثقته فيه.. سنوات عامرة بالرخاء والخصب والإنتاج الغزير.. أصبحت تلك البلاد الوثنية من أغنى البلدان زراعيًّا، لأن القائم على التخطيط فيها وزير مسلم نزيه مخلص لدولته ولو كانت وثنية.. وزير يجمع إلى خوف الله ومراقبته والنزاهة، فرض النظام وعدم إعاقته من أي كائن كان.. تزوج يوسف خلال تلك السنوات، فانكسرت قلوب أولئك النسوة وغيرهن حسرة عليه، ورزقه الله بذرية طيبة. مرت سبع سنوات، فبدأت ملامح تفسير رؤيا الملك المخيفة تتشكل على الأرض.. بدأ عهد الجفاف والسنابل اليابسات ينتشر، لكن الملك كان مطمئنًا لخطط وزيره المستقبلية.. واثقًا من إعداده العدة لأقسى الظروف، التي لم تعصف بمصر فقط، بل اجتاحت المناطق المجاورة.. لم يكن يوسف أجمل أهل الأرض وجهًا.. كان أنجح وزراء الأرض.. كانت نجاحاته عطرًا يتضوع في كل البلاد.

هؤلاء الذين أتعسوا حياتي

أصبح اسم الوزير يوسف صلى الله عليه وسلم رمزًا للنزاهة والعطاء والنجاح.. تفوق على زملائه الوزراء الوثنيين: إبداعًا وإنتاجًا وتواضعًا بمراحل.. ما أعذب الوزير حين يجمع خوف الله مع تنفيذ النظام بحزم.. كان يوسف يذوب رحمة بين أيدي الفقراء والمحتاجين الوثنيين حتى من غير شعبه..

ينصت لشكاواهم ومطالبهم.. يحاول تخفيف آلامهم وما بهم فعلًا وإنجازًا.. لا تخديرًا ووعودًا كالسراب.

وذات يوم، وبينما كان يستقبل المراجعين والموجوعين والوفود، الذين يغص بهم ديوان وزارته.. دخل عليه وفد ناحلة أجسادهم شاحبة وجوههم.. شخص بصره لهول ما يرى، فقد تغيرت تقاسيم وجهه رحمة بحالهم، لكن رحمته تلك كانت ممتزجة بذكريات بالغة المرارة، فهذا الوفد.. هو الذي أخذه ذات يوم وهو طفل صغير لتلك النزهة التعيسة.. هذا الوفد هو الذي ألقاه وغيبه في تلك البئر المخيفة.

تأمل العشرة واحدًا واحدًا.. هذا هو من طلب من والده أن يخرج معهم، وهذا من كان يتعامل معه بطريقة فظة في الطريق، وهذا من خلع قميصه، وهذا من صبغ قميصه، هؤلاء هم من ألقوه عاريًا في تلك البئر المظلمة، وهو يصرخ ويبكي.. هؤلاء الذين حرموه أحضان أمه راحيل الحبيبة، ودلال يعقوب الطيب، وأخيه بنيامين.

مهلًا: أين بنيامين؟ إنه ليس معهم.. ترى هل ألقوه في بئر أخرى، واتهموا به ذئبًا آخر؟ هؤلاء الذين نحروا طفولتي بخناجر الرق والعبودية والغربة، وحرموني دياري ومراتع صباي.. هؤلاء من أذلني حتى تحكمت بي وسجنتني امرأة لم أقصر يوما في خدمتها.. هؤلاء هم من كنت أظنهم عضدي وساعدي وسندي، لكن ورغم تلك المرارات رقَّ يوسف لحالهم، فهم يظلون إخوته، وأبناء أبيه إسرائيل الطيب.

أصابه الحزن وهو يرى ثيابهم الرثة، ووجوههم الشاحبة، وتوسلاتهم التي تقطع نياط القلب، فكيف هي حال والديه الحبيبين؟ أنصت لمطالبهم، ثم أمدهم بما يحتاجون من طعام وأكثر، دون أن يفتح ملفاتهم السوداء، أو يذلهم بها، أو يمن عليهم، فقد ابيضت أصداغهم، وكبروا، وأصبح البعض منهم جدًّا، ولا بد أن والديه الحبيبين يعانيان أكثر منهم، لكن يوسف لن يتركهم يرحلون هكذا، دون الحصول على إحداثيات أحبته، وعناوين خفقات قلبه.. قرر أن يحصل على شيء من آثار يعقوب وراحيل، عله يخفف شيئًا من لوعته، وأشواقه التي تحرق قلبه منذ ربع قرن.. طلب منهم طلبًا غريبًا، لكن الأغرب هو أن هذا الطلب لم يثر أي تساؤل في قلوبهم، التي زادها الجفاف جفافًا.

هل هناك بئر آخر ينتظر بنيامين

طلب يوسف صلى الله عليه وسلم من إخوته قبل أن يغادروا، أن يحضروا أخًا لهم من جهة الأب، وكأنه يريد التأكد من وجود أخيه بنيامين حيًّا، وإلا فلن يحصلوا منه على أي بضاعة في المرة القادمة، فلما ﴿ جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ

﴿ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴾، وإذ بإجابتهم تحرق أضلاع يوسف، وتزيد لوعته، حين ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾.

أدمت الإجابة شغاف قلبه.. أدرك أن والده لا يزال يبكي عليه، رغم مرور ربع قرن على الفراق، وإلا لما تشبث بشقيقه بنيامين، وأبقاه بجواره، وقد تجاوز العشرين.. أدرك أن الشيخ لا يريد أن يفرط فيه، كما فرط في حبيب قلبه، الذي يحلم بعودته يومًا. آلمت يوسف تلك الإجابة، لكنه قام بحركة قد تلين قلب يعقوب، فيسمح بسفر بنيامين.

ففي أثناء انشغال إخوته بالحديث معه، استدعى بعض موظفيه، وهمس فيهم بشيء يثير الدهشة. قال ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، فانطلق الموظفون في لحظات الانشغال، وأحضروا النقود التي دفعها إخوته، ثم تسللوا نحو رواحلهم، ودسوها في حقيبة من حقائب سفرهم.

تلقى يوسف إشارة بإتمام المهمة، فودع إخوته دون أن يعرفهم بنفسه، ثم توجهوا نحو مطاياهم وركبوها، وأردفوا قلبه معهم، ومضوا وهو يتمنى لو كان أولهم دخولًا على يعقوب.. أقفت العير حتى غابت عن عينيه الدامعتين.. سارت قافلتهم وسارت، حتى وصلت باديتهم.. نظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم يتساءلون: هل سيثق أبونا بنا، ويعطينا بنيامين في المرة القادمة؟

ولما دخلوا باديتهم، عزموا على مصارحته، فأناخوا مطاياهم ونزلوا، ثم دخلوا على أبيهم يعقوب، الشيخ الطاعن في السن، فحيوه، وتحلقوا حوله، وأخبروه بكرم الوزير، وحدبه عليهم، ثم نغصوا عليه بذكر شرطه الغريب: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡ ﴾، بل أخبروه بتهديده، حين قال: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴾، ناشدوا والدهم إسرائيل أن يرسل أخاهم بنيامين معهم، فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

هنا تذكر الشيخ تحلقهم حوله قبل ربع قرن.. عصفت الذكريات بقلبه، فرفع حاجبيه الثقيلين، ونظر إليهم بعينين أضعفهما البكاء على يوسف، وقال: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

أخرسهم الخجل، وعجزوا عن الرد، فالجرح لا يزال مفتوحًا.. لا يزال ينزف، ويؤلم هذا الشيخ الطاعن في السن. نهض الأبناء العاقون مثقلين بتاريخهم الأسود، وخرجوا، لكن شيئًا حدث جعلهم يعودون لأبيهم مبتهجين. ظنًّا منهم أنه سيخفف شيئًا من أحزانه.

لا تدخلوا من باب واحد حتى لا أخسركم

تذكر الشيخ يعقوب صلى الله عليه وسلم تحلق أبنائه العشرة حوله قبل ربع قرن، فرفع حاجبيه الثقيلين، ونظر إليهم بعينين أضعفهما البكاء على يوسف، وقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، سكت الأبناء خجلًا.. شعروا بالعار، وهم سبب عذابات هذا الشيخ الطيب، منذ أن ائتمنهم على قرة عينه يوسف، لذا نهضوا من عنده، يسحبون خطاهم نحو إبلهم، التي أناخوها في الخارج.. بدؤوا يحلون الأربطة، وينزلون البضائع.

مد أحدهم يده نحو خرجه أو حقيبته، ليخرج ما بها، وإذ به يصرخ، وكأن حية تتلوى داخلها.. لقد وجد مبلغ البضاعة كاملًا، قد أعاده موظفو الوزير.. توجه نحو إخوته يبشرهم، فانطلقوا نحو أبيهم يحملون دليل صدقهم، علَّ هذا التصرف النبيل من الوزير الرائع، يلين من تشدده تجاه سفر بنيامين.. دخلوا عليه وأروه النقود، وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، لكن خنجر يوسف لا يزال منغرزًا في قلبه، وهو أضعف من أن يُطعن مرتين، لذا أراد شيئًا يحمي به بنيامين، فقال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

مضت الأيام، لكن القحط لم يمض.. أصبحوا بحاجة إلى التموين مجددًا، فأعدوا المطايا، وزادوا مطية لبنيامين. ركب الأخوة مطاياهم، وقبل أن يغادروا قدم الشيخ لهم وصية أخيرة من قلب أتعبه الشوق والبكاء، فقال: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، غادرت القافلة حتى أصبحت أمام أسوار مصر، وحينها انقسموا، وتوزعوا حسب وصية والدهم إسرائيل على بواباتها، تواعدوا على الاجتماع في مكان يعرفونه جميعًا.. تفرقوا، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وبعد مدة من دخولهم اجتمعوا في النقطة المحددة، ثم توجهوا نحو ديوان الوزير، فاستأذنوا للدخول عليه، فلما علم بقدومهم بكى قلبه شوقًا لراحيل ويعقوب وبنيامين، فأدخلهم على الفور.. تهادى أخوته نحو ديوانه فتأملهم، فوجدهم قد أصبحوا أحد عشر وافدًا، فازداد خفقان قلبه، وجالت عيناه بينهم، تبحث عن حبيب القلب بنيامين.

أهذا أخي الذي حرمت منه؟

دخل إخوة يوسف صلى الله عليه وسلم، وما إن رآهم حتى تعلقت عيناه بأصغرهم.. بشقيقه وحبيبه بنيامين.. تكلمت خفقات قلبه: أهذا هو الطفل الذي كان يحبو بيني وبين راحيل ويعقوب.. أهذا هو بنيامين، الذي حرمت من اللعب، ورعي الغنم معه.. اجتاح قلبه طوفان من العواطف، لكنها

لم تهزه.. ظل متماسكًا، ثم قام بإشغال إخوته وإلهائهم بما جاءوا من أجله، وطلب من خدمه أن يدخلوا بنيامين عليه دون أن يشعروا.

عاد بنيامين والاستغراب يملؤه، وإذ بيوسف يعانقه، وكأنه يعانق طيف راحيل ويعقوب، ثم يهمس به: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، طار قلب بنيامين من شدة الفرح، وهو يعانق أخاه المفقود، الذي طالما حدثه أبوه وأمه عنه، وهما يمسحان دموعهما. ترى كيف هي سعادتهما، حين يعلمان أن الله قد نصره، وجعله وزيرًا تعطر سمعته الأماكن، التي يذكر فيها نزاهةً وعدلًا وإبداعًا. طوى بنيامين سر أخيه، ثم ودعه، وكأنه يتمنى لو طار نحو يعقوب؛ ليبشره بنهاية أحزانه ومواجعه. خرج بنيامين وانضم لإخوته، لينهي معهم ما جاءوا من أجله.

وبينما كانوا يقومون بملء رواحلهم، وإجراءات البيع والشراء، كانت الأحلام تحلق ببنيامين، في الوقت الذي كان أخوته في حالة حبور ووداع لهذا الوزير السخي، إذ بأحد الموظفين يتسلل بخفية، ومعه المكيال المميز، الذي يكال به للمتبضعين، ثم يدسه في خرج بنيامين داخل الحبوب، دون أن يعلم. ركب أبناء يعقوب، ونهضت عيرهم، ثم بدؤوا بالمغادرة.. ساروا مسافة قصيرة، وقبل أن يخرجوا من البوابة، دوت صيحة مخيفة.. صيحة استوقفت عير بني إسرائيل.

توقفي أيتها القافلة.. انزلوا أيها الغرباء، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، نزل الإخوة مذعورين، وكأنهم يقولون للحرس الغاضبين: ما الذي يجري؟ وعن أي سرقة تتحدثون؟! هتفوا بالمنادي: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾، فقال الحرسي الغاضب: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾، ثم أعلن عن جائزة سخية لمن يجده: كمية من الطعام تعادل حمولة بعير، فقال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾، بل ضمن الجائزة بنفسه لمن يجده، قائلًا: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾.

هنا نظر بعض إخوة يوسف إلى بعض ببراءة لأول مرة.. هوَّنوا من الأمر، ولم تعد الجائزة تغريهم، فالعودة للديار وعدم تعطلها هو همهم.. هنا نزل الوزير يوسف، لاستطلاع الأمر بنفسه.. عندها تغيرت وجوههم، فالأمر يبدو خطيرًا.

بنيامين لص وشقيق للص

كثر اللغط والضجيج حول قافلة بني إسرائيل، فأقبل الوزير يوسف صلى الله عليه وسلم متظاهرًا باستطلاع الأمر، فحلف إخوته أنهم لم يرتكبوا أي سرقة، وأنهم لم يأتوا لمصر إلا للشراء، و﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، فأقبل أحد المسؤولين نحوهم، متحديًا وطالبًا منهم إثبات براءتهم، فقال: وماذا إن وجدنا الصواع الملكي في خرج أحدكم، ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾.

مباشرة عادت الكلمات التي كانوا يعدونها ليوسف (الرق). أجل خذوا السارق عبدًا ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هذا هو قانوننا، وجزاء الظالم المعتدي. هزت الكلمات قلبي يوسف وبنيامين، وكأنهما يقولان: فما الظلم الذي ارتكبه يوسف حتى حولتموه إلى عبد، وحرمتموه من أحب الناس إليه. تحرك المفتش بخطة من يوسف، نحو إبل الإخوة جاعلًا خرج بنيامين آخر خرج يتم تفتيشه.

مد المفتش يده إلى خرج الأشقاء (يهودا ورابين وَشَمْعَونُ وَلاوِي)، فلم يجد شيئًا.. فتش حقائب الأخوين (أَيْسَاخَرُ وَزَابِلُونَ) فكانت نظيفة.. فتش حقائب الشقيقين (دَان ونفتالى) فلم يجد شيئًا.. قلب بضاعة الأشقاء (جَادٌ وأشير) فكانت كذلك.. بقي خرج (بنيامين)، فتنفس الإخوة الصعداء، لأنهم يعرفون نزاهته، وأن من المستحيل أن يرتكب حماقة كهذه.. مد المفتش يده، فغمسها في حبوب القمح، التي في رحل بنيامين، والإخوة يتأهبون للرحيل بثقة، وفجأة صاح المفتش صيحة، حولت القافلة إلى مناحة.

رفع يده وهو يحمل المكيال الملكي، مبشرًا بالعثور عليه داخل خرج بنيامين، ومعلنا القبض عليه، وتحويله إلى عبد آخر على أرض مصر. كان الوزير يوسف صامتًا، أمام المشهد التمثيلي، الذي تم إخراجه بنجاح.. ذهل الإخوة.. عجزوا عن تصديق ما يجري.. لم يأبهوا لشأن بنيامين، فكل الذي يهمهم هو والدهم الشيخ إسرائيل.. يعقوب الذي قد تقتله الفاجعة.. لن يصدقهم أبدًا، ولن يسامحهم، وهم يتسببون في استرقاق أصغر أبنائه.

جن جنونهم، وفقدوا صوابهم، وعاودهم طيش المراهقة بفعل الصدمة، فبدؤوا يتناولون بنيامين بانفعال وتهور.. تهور أوصلهم إلى شتم شقيقه يوسف.. الذي لم يكتفون برميه في البئر، ولا بالكذب على أبيهم وعقوقه وإيلامه، وعدم الاعتذار منه، صاح بعضهم: إن بنيامين هذا لص، بل هو شقيق للص، ويوسف شاخص أمامهم، وهو لا يصدق ما يسمع. مذهولًا من شدة فجورهم في الخصومة.

يعقوب يبكي بنيامين

انفعل إخوة يوسف صلى الله عليه وسلم وهم يرون المفتشين يخرجون المكيال الملكي من خرج بنيامين.. وجدوها فرصة للتشفي من دلال أبيهم له، بل أخرجوا أحقادهم القديمة على يوسف، فقالوا للمفتشين: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾، تلقى يوسف تلك الفرية كالحربة في قلبه.. تألم من إخوة لم يتعرض لهم بأذى، ولم يمسهم بسوء.. ما الذي فعله حتى يكنون له كل هذا الغل. ما هذا الحقد الذي لم ينته حتى اليوم، ما حجمه؟ سكت الصديق، وكأنما يقبض على الجمر، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾، واكتفى بكلمات حرى، زفرها من وجعه، فقال: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

هدأ الإخوة قليلًا من طيشهم وانفعالهم، حين رأوا الحرس ينيخون ناقة بنيامين، وينزلونه ويقتادونه.. عادوا لرشدهم، وبدؤوا التفكير بوالدهم.. غاب بنيامين عن المشهد عبدًا، وحضر يعقوب في أذهانهم.. خافوا ألا يتحمل ما جرى لأصغر أبنائه، فهو ما زال يبكي يوسف حتى اليوم. تشاور الإخوة وتلاوموا، وقرروا أن يدفعوا فاتورة أوجاع أبيهم هذه المرة مهما بلغت. اتفقوا أن يعيدوا بنيامين لوالده، ولو كان الثمن حريتهم.

أوقفوا مطاياهم، وعادوا يلتمسون مقابلة الوزير، ولما أدخلهم قدموا التماسًا بأن ينتقي واحدًا منهم، عبدًا بدلًا عن بنيامين.. ناشدوه ورجوه أن يفعل، رحمة بشيخ ضعيف، أتعبه فراق ابن سارق قبل عشرين عامًا، فكيف سيطيق فراق شقيقه، وقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، نظر يوسف إليهم رافضًا التماسهم، لأنه ظلم لأحدهم.. كيف يعاقب بريئًا؟ لذا قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾، حاولوا وحاولوا، لكنهم فشلوا، ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾، وانعزلوا في مكان يتناجون فيه حول مصيبتهم، والهم يقتلهم.. لم يعودوا يهتمون لعيرهم، ولا لبضاعتهم.. يعقوب المسكين كل همهم.. أدركوا فداحة ما هم فيه، لكنه الواقع المرير.

انهار أكبرهم، الذي بدأ الشيب يلون رأسه.. شعر بالانكسار.. تحول إلى حطام، لأنه لم ير من والده إلا كل خير.. لم يعد يطيق أن يُريَ والده وجهه بعد كل ما فعله به من عقوق.. التقط من حطامه كلمات تثير الشفقة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، ثم خرج حزينًا من ديوان الوزير. أخبر أخوته بعنوانه في مصر، منتظرًا تنفيذ حكم أبيه فيه، أو عفوه عنه.

عندما يصيبك الشوق بالعمى

انهار أكبر إخوة يوسف صلى الله عليه وسلم، فتهدج صوته بكلمات تثير الشفقة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، ثم تنهد بكلمات كالجمر، فقال: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، حاول الإخوة التسعة ثنيه فعجزوا، فلما عجزوا نهضوا من عنده مثقلين، وودعوه، وركبوا مطاياهم، وخرجوا من بوابة المدينة، لا يدرون ما يقولونه لوالدهم.

تحركت العير تحمل تسعة إخوة، وبقي اثنان في مصر: الأصغر تم أخذه عبدًا، أما الأكبر فأثقله الحزن.. ظل في مكانه محطمًا منكفئًا على أوجاعه.. يقتله تاريخه مع والده الطيب.. بقي في مصر وحيدًا غريبًا.. هائمًا على وجهه في شوارعها.. يسير بين جدرانها كالمشرد.. لا يهنأ بطعام،

ولا يأنس ببشر.. ينتظر عفو أبيه بعد أن عقه، وتسبب في أحزانه، فهل أحس بغربة يوسف لأكثر من عشرين عاما؟ هل وضع نفسه مكان طفل ألقاه في بئر مظلمة؟ هل قال لنفسه: تخلصنا من يوسف، فخلا لنا وجه أبينا، ثم ماذا؟ لقد صرنا أتعس. لم يدر أنه لا تفصله عن يوسف وشقيقه سوى خطوات.. يتبادلان الحديث والذكريات حول راحيل ويعقوب.. نعمة أنعمها الله على يوسف، وتحدث عنها سبحانه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

أما في ديار يعقوب فالأحداث تتصاعد، والفاجعة الأخرى في الطريق إليه: بنيامين الحبيب لم يعد مع العير، وها هم إخوته يسحبون خطواتهم وخطاياهم، وهم يدخلون على والدهم.. ينظر إليهم، فإذا عددهم قد قلَّ. ما الذي جرى؟ هل خالفوا وصيته، فدخلوا من باب واحد، ولم يدخلوا من أبواب متفرقة؟ أين بنيامين؟ أين أخوكم الأكبر؟

تهدج صوت أحدهم حزنًا، وقال: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، أما الكبير فقد بقي حزينًا على عدم وفائه بميثاقك.. تضاعف حزن الشيخ، خاصة حين أخبروه أن ابنه البكر قد رفض العودة، قائلًا: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. بلغ الحزن منتهاه في قلب يعقوب. فاضت عيناه، واحترق جوفه، فشكا حاله لأرحم الراحمين.

لماذا تذكرنا بيوسف يا أبي؟

دخل إخوة يوسف على أبيهم يعقوب صلى الله عليه وسلم مثقلين بالحزن.. ثم قالوا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، بلغ الحزن منتهاه في قلب يعقوب، فنظر إليهم والدموع تحرق أجفانه.. نظر إليهم بعينين أضعفها البكاء على يوسف، ثم زفر بكلمات حرى، شاكيًا أمره وأمرهم لعلام الغيوب وكاشف الكروب، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، ثم انطوى على أحزانه، وظل يبكي حتى فقد بصره، كما فقد يوسف: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

غابت الشمس عن عيني يعقوب قبل أوانها، وأعماه الشوق والوجد على طفله، وتحولت دنياه إلى مجرد أصوات، وما إن سمع الإخوة باسم أخيهم، حتى تضايقوا، ولاموا والدهم على كثرة ذكره، فإن حزنه عليه يكاد يهلكه، وكأنهم يطالبونه بنسيانه، فهو لن يعود، و﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، أما راحيل فعاودها الحزن، الذي كاد يقتلها قبل عشرين عامًا، حتى ذبلت، وذبل جمالها الفردوسي.. ناحت على ابنيها، لا تدري ما تقوله لإخوة لا يشعرون إلا بألم الحسد.. حسد أفقدها أطفالها وهم أحياء، فما الذي فعلته وفعله أطفالها لهم؟

ضاقت الدنيا بها وبزوجها، الذي بث شكواه لأرحم الراحمين، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، لكن أيام الابتلاء اشتدت وطالت، فقد اجتمع عليهما الفقر والجفاف والوجد والأحزان، لكن يعقوب لم ييأس، بل جمع أبناءه حوله، وهو في أشد أيام الابتلاء، وقال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، نهض الأبناء من مجلس الشيخ المكلوم، إرضاء له، وتأدية لواجب.. توجهوا هذه المرة نحو رواحلهم، بمال أقل، وانكسار أكثر، ثم انطلقوا نحو مصر، والحزن يحدو عيرهم.. انطلقوا مهمومين، لا يأبهون من أي باب دخلوا.. همهم هو إرضاء شيخهم.. دخلوا مصر فتوجهوا لمقابلة العزيز، الذي كان يخفي شوقه لعودتهم، وما إن دخلوا ديوانه، حتى أذهلتهم هيئة أحد العبيد بجانبه. ما هذا؟ ما هذا الأنيق الذي أمامهم، أعبد هو أم أمير؟ إنه بنيامين يجلس مبجلًا بجوار الوزير.

الإخوة في المحكمة

ذهل أخوة يوسف حين دخلوا ديوانه.. فوجئوا بأخيهم بنيامين بجانبه.. مبجلًا، لا تبدو عليه آثار الرق، ولا الشقاء، ولا العبودية.. حيَّرهم المشهد، لكنهم كتموا حيرتهم، وكأن الحسد عاودهم.. تجاهلوه، وناشدوا الوزير المساعدة والشفقة، فهم في فقر وعوز شديدين، مما جعلهم يقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، أخبروه بما آلت الأمور إليه في الديار.. أخبروه بحال شيخهم، الذي ما زال يبكي طفله حتى عمي. هنا بكى قلب يوسف، وهو ينصت لمعاناة حبيبه، ففاضت عيناه، ولم يعد يحتمل عذابات والده، وأحزان حبيبته راحيل، أو الكتمان.

وجه لإخوته سؤالًا كالصاعقة، فقال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾، نظر بعضهم إلى بعض، وكأنما عثروا على قطع الأحجية المفقودة في تصرفات هذا العزيز، وطلباته الغريبة، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ذهلت الحاشية من هول ما يسمعون، وأسقط في أيدي الإخوة، وتخلوا عن الكذب والمكابرة.. أدركوا قدرة الله، الذي يمهل الظالم لكنه لا يهمله، فحلفوا به سبحانه أن الأمر له، وفوق طاقة البشر، فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، ثم سكتوا في تلك المحكمة بانتظار لحظة الانتقام المخيفة.

حدق الضباط والجند بقساة القلوب، الذين رموا سيدهم يوسف صلى الله عليه وسلم في بئر وهو طفل، ثم تسببوا في رقه وسجنه لأكثر من عشرين عامًا، دونما ذنب سوى أن والده يحبه.. تأهب الجند للقبض عليهم، والبطش بهم، وفي أشد اللحظات وأحرجها، وبينما كان الإخوة يتوقعون سجنًا أو رقًّا، يتناسب مع جرائمهم.. نطق الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، فقتل إخوته بلا سلاح، حين قال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قتلهم بسلاح العفو والكرم، فصمتوا، وفقدوا القدرة حتى على الاعتذار.. طأطأ تاريخهم خجلًا، فتأمل يوسف تضعضع إخوته، وقرأ في عيونهم ندمًا لا يطاق، فعاملهم بأخلاق النبوة، وقرر أن يزيح مصابهم.. أمرهم بإحضار والديه وعائلاتهم من ديار القحط والجدب؛ لينتقلوا للعيش معه في أرض مصر.. مصر الطيبة التي أصبحت من أغنى البلدان بفضل الله، ثم بفضل نزاهته وعدله ووعيه بمسؤولياته.

آخر قصص قميص يوسف

أمر يوسف صلى الله عليه وسلم إخوته بإحضار والديه وعائلاتهم من ديار القحط والجدب، لينتقلوا للعيش معه في أرض مصر.. مصر الطيبة التي أصبحت من أغنى البلدان بفضل الله ثم بفضل نزاهته وعدله ووعيه بمسؤولياته، ورحمته برعيته، فربه ودينه يأمره بالتفاني في وظيفته، رغم أنه وزير مسلم في دولة وثنية. ثم أمر إخوته بأمر، أُوحي إليه، فقال: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

تعانق الإخوة لأول مرة.. تعانقوا، وكأنما خلقوا من جديد، ثم ودعوه، وبعد أن وجدوا أخاهم الأكبر، وطمأنوه، ركبوا مطاياهم، وعادوا لديارهم بقلوب بيضاء، غير تلك التي غادروا بها،﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾، وغادرت مصر، شعر يعقوب بطيف يوسف، يتجول بين أضلاعه.. شعر وكأنه في الطريق إليه، فالتفت إلى من حوله من زوجات وبنات وأحفاد، وكأن الوحي ينفث في روعه، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، ففندت الأسرة قوله، ولم يبالوا كالعادة، وأكدوا أنه يتوهم، كما يتوهم المحبون لقاء أحبتهم، من لوعة الفقد وحرقة الاشتياق، و﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

تجاهل يعقوب ردهم، وظل متشبثًا بالثقة بربه، بينما كانت العير تحث السير نحوه، كخفقات القلب الولهان، وما إن اقتربت العير من الديار، حتى أخذ أحد أخوة يوسف القميص وانعزل عن القافلة، وزاد في سرعته حتى سبق الجميع نحو الديار، ولما أصبح أمام بيت الشيخ الحزين يعقوب عليه السلام توقف.

أناخ راحلته وانحدر عنها، وأطلق ساقيه نحو والده.. الذي كان ساعتها محاطا ببعض عائلته، وقبل أن يتكلم البشير، ألقى القميص على وجه أبيه، وكأنه يلقي بآخر قصص قميص يوسف، وإذ بالشيخ يشعر بريح يوسف، تعطر القميص.. شعر بروح أخرى بين جنبيه، ضم القميص وشمه وقبله، وبلله بدموع الشوق.. احتضنه وكأنه يحتضن طفله الحبيب، وإذ بالنور يتسلل إلى عينيه، وكأن الدموع تغسل حزن الزمان وعماه، فعاد البصر إليه.. تصفحت عيناه وجوه من حوله، ووجهه يشع بشرًا وسرورًا، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

سالت دموع راحيل المفجوعة بطفليها ظلمًا، وفاضت دموع العائلة من حولها، وبعد دقائق أو أكثر توقفت القافلة المحملة بالمشاعر، ثم انحدر منها الأخوة، ثم توالى دخولهم واحدًا واحدًا. يسحبون خطاهم وخطاياهم نحو أبيهم، وينزفون ندمًا وخجلًا.. سلموا على الشيخ الذي أعاد الله له بصره، وهو يتأملهم ويتأمل ماضيهم الأسود. تهادوا يقتلهم المشهد، وتسافر به وبهم المشاعر من القميص إلى القميص، ومن المرعى إلى مصر، ومن قاع البئر إلى عرش الوزارة.. أدركوا أنه مهما بلغت كثرتهم وقوتهم.. مهما بلغ دهاؤهم، وبرعت حيلهم، فإن الذي منحهم كل ذلك قادر سبحانه على سلبها منهم بظلم يظلمونه.. بزفرة مظلوم ليس له سوى الجبار نصير.

بنو إسرائيل في مصر

انكسر إخوة يوسف صلى الله عليه وسلم، وهم يرون الطفل الضعيف يطعمهم، بعد أن حرموه، ويؤويهم بعد أن شردوه، ويحدب عليهم، بعد أن تسببوا في رقه وسجنه.. أدركوا أن القوة ليست في يوسف، ولا في والده.. القوة في السماء، لكن الحسد يعمي الحاسدين عن السماء.. بكى الإخوة، وهم يرون قميص يوسف يعود ليضحك أباهم كما أبكاه، فأجشهوا ندمًا وتوبةً، وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، لم يكن يعقوب سوى والد، يحب كل أولاده، لكن للصغير رحمة، وللمريض شفقة، وللغائب خفقة، لا تدركها سوى قلوب الآباء والأمهات.. لم يتردد يعقوب في العفو، فهم ويوسف وبنيامين ملء السمع والبصر، لذا ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

تحلق الإخوة حول أبيهم، وقصوا عليه قصة العزيز، وتعجبهم من سر طلبه لبنيامين، وقدرته على ضبط مشاعره تجاههم، ثم عفوه عنهم، وأخبروه أن مسؤولياته تجاه دولته تجعله عاجزًا عن اللحاق بهم، فهو مسؤول عن قوت شعب وثني، سيسأله الله عنهم، وأن من الأنسب أن ينتقلوا للسكن عنده في مصر معززين مكرمين، فلم يتردد الشيخ، وكيف يتردد وهو سيرى الحبيب الذي فقد بصره شوقًا إليه وحزنًا عليه.. كيف يتردد والرحلة ستكون لديار يوسف الحبيب.

أخذ الشيخ عصاه ونهض، وطلب التأهب للرحيل، فأعدت الهوادج، وحملت الفرش والأمتعة، وودعوا الجيران، الذين بكوا فراق الشيخ النبي وزوجاته الطيبات.. تمايلت عير يعقوب صلى الله عليه وسلم وعائلته عبر الصحاري، حتى أصبحت على مشارف مصر، وإذ بموكب الأمير النبي يوسف يخرج لاستقبالهم، وما إن رأى القافلة حتى طار قلبه، وأسرع نحوها.. نحو الشيخ، الذي كان يحضنه، ويلاعبه، ويبكي عليه.. نحو راحيل الحنان.

توقفت العير، وأنيخت المطايا، فنزل الأمير، وتوجه نحوهما، ومد يديه، وأخذ بأيديهما للنزول، وعانقهما بحرارة، وكأنه لا يريد تركهما، وكأنه يخشى أن يفقدهما مرة أخرى. نظر إلى تجاعيد يعقوب الحبيب. لقد تغير كثيرًا، فآخر نظرة كانت حين ودعه قبيل أن يأكله الذئب. نظر إلى أجمل أم في الدنيا، فإذا الحزن والشيب قد غيَّرها. لم تعد كما كانت. غدت أكثر حبًّا وحنانًا وجمالًا. تأمل أحب الناس إليه فبكى، وبكى الشيخان، وبكت القافلة من حولهما، و﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

تهادى بهما ثم سلم على عماته وأخواته، وعلى عشر عائلات هي عائلات أخوته، ثم استأنفت القافلة سيرها خلف كبار الضيوف يحفها الحب والترحاب والحرس، ولما وصلوا إلى ديوان الأمير أنزل والديه برفق، وأخذ بأيديهما بلطف، نحو عرشه، ثم أجلسهما عليه والسعادة تجتاح كل ذرة في كيانه تغمره ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ثم جلس معهما، واصطف إخوته وأولادهم أمامه.. هنا انحنى الوالدان والإخوة تحية للعزيز ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

يوسف يفشي السر

انحنى الوالدان والإخوة تحية للعزيز يوسف ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾. تأمل يوسف هذا المشهد فإذ به يتذكر خطواته الصغيرة نحو أبيه قبل ثلاثين عامًا، حين جاء ليسأله عن رؤياه قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾، تذكر كلمات أبيه له، حين أوصاه بأن يكتم أمر الرؤيا عن أخوته.

رفع الساجدون رؤوسهم من التحية.. نظر يوسف لأبيه، وخاطبه مفشيًا سره للجميع، وقائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ثم توجه بدعائه إلى ربه الذي ابتلاه، ثم منَّ عليه وحباه.. توجه لمالك الملك وملك الملوك، الذي اصطفاه، معترفًا بفضله.. يناشده أن يثبته على التوحيد، حتى يلقاه، وقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

كان السجن تصفية لروح يوسف، وتهيئة له؛ ليشعر بثقل المسؤولية، ومرارة الظلم على نفس المظلوم، لذا أصبح بعد خروجه من السجن أعدل من تعامل مع هذا الشعب، منفذًا رسالة الأنبياء، التي يقول الله عنها: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

ظل يوسف صلى الله عليه وسلم في منصبه في مصر، يزين حياة الوثنيين بعدل الإسلام وأخلاقه، ويغتنم الفرص لدعوتهم للتوحيد، وطاب لوالده صلى الله عليه وسلم وإخوته المقام فيها، حتى كثر أحفادهم وأحفاد أحفادهم، فتحولت عائلاتهم الاثنتا عشرة إلى اثنتي عشرة قبيلة.. كل قبيلة تحمل اسم ابن من أبناء يعقوب، وهم: (يوسف وبنيامين ويهودا ورابين وَشَمْعَونُ، وَلاوِي وأَيْسَاخَرُ وَزَابلُونَ ودَان ونفتالى وجَادٌ وأشير).

في تلك الأوقات، وفي مكان يقع بين مدائن صالح والشام، يقال له (مدين)، عاش قوم من العرب.. كانوا قلة فكثَّرهم الله، وفقراء فأغناهم الله، وبدلًا من أن يشكروه سبحانه.. أطغاهم الجشع.. أصبح جمع المال بأي وسيلة كل همهم، فتحولت مدين إلى مطحنة للفقراء. أصبح دينهم دينارهم، حتى نسوا المنعم سبحانه، فانحطوا من التوحيد إلى قاع الوثنية والتخلف، لدرجة عبدوا معها الأيك وهو الشجر، وكان في مدين شاب موحد من عائلة كبيرة.. اسمه (شعيب)، يكره الفساد ويحاربه، لأنه أول خطوات انهيار الأمم.

شعيب نزيه يستحق الرجم

كبر شعيب فاصطفاه الله نبيًّا، ليدعو قومه إلى رسالتي الأنبياء: التوحيد والعدل. نبههم إلى معيشتهم الرغيدة، التي لا يرى معها أي مبرر للفساد، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، فالله قد خلق البشر لإعمار الأرض بالتوحيد والعدل، لا ليُباد الموحد على يد الوثني، ولا ليُسحق الفقير والضعيف على يد الغني والقوي.

يخرج شعيب من بيته كل يوم نحو أسواقهم.. يجول بين دكاكينهم وأماكن تجارتهم، فيرى الأيادي تتلاعب بالموازين، ويرى الغش التجاري في البضائع. يراهم يقامرون بمستقبل وطنه الاقتصادي.. كان يخشى على وطنه الحبيب من الفاسدين.. يذكرهم بحالهم قبل سنوات، ويخشى عليهم زوال النعم، ويقول: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، لكن النعمة أسكرت قومه، حتى صاروا خلف الثراء السريع بأية وسيلة، ومن كان هذا حاله ينفر من أي دعوة للعقل، لذا فزعوا من دعوته للتوحيد، ومحاربته للفساد، والتلاعب باقتصاد مدين، والمقامرة بحياة الجيل القادم، خاصة حين تعاطف معه المطحونون والضحايا والعقلاء.

هنا اجتمع عرابو الفساد الوثني؛ لاتخاذ قرار بشأنه، فرأت أغلبية المتنفذين الفاسدين الوثنيين: أن الحل هو إعدام شعيب صلى الله عليه وسلم رجمًا بالحجارة، فوافقت الأقلية، لكنهم نبهوا لعشيرته القوية، التي قد تحرق الأخضر واليابس، لذا تراجعوا، وقالوها صريحة لشعيب: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾، لكن شعيبًا كان يخاطب العقول، فيقول: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

مرت الأشهر والسنوات وأصبح الوثنيون أكثر فسادًا وإجرامًا.. لم يكتفوا بالشرك.. تحولوا إلى إرهابيين، يجوبون الطرقات.. يهددون أي شخص يريد اعتناق التوحيد، أو ينصت لشعيب، ودعوته لمحاربة الفساد، متوعدينه بالموت، ولما علم شعيب حذرهم، وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾، هنا قدموا له خيارين، لا ثالث لهما.

شعيب والخيار الأخير

طالب النبي شعيب صلى الله عليه وسلم قومه بتحكيم العقل، وترك الناس وما يختارونه من دين وتجارة نزيهة، قائلًا: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ

﴿ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، رفض الوثنيون أن يكون لغيرهم رأي، وأصروا على سحق الموحدين والنزيهين وأهله قائلين: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾.

رفض شعيب الرضوخ لتهديدهم فزحزحة الجبال أهون من التخلي عن التوحيد، لذا ذكرهم بقدرة الجبار سبحانه، ومصير الأمم البائدة، فقال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾، هنا عرض قومه عليه خيارين لا ثالث لهما، إما أن يعود وأصحابه للوثنية، أو يغادروا إلى غير رجعة. فقال: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾، ثم بين شعيب أن صلفهم لا وزن له أمام ثقته بالله سبحانه، فقال: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾، فشعيب ليس طالب سلطة يحشد الأتباع، ولا صاحب تجارة يطمع بالحصول على أكبر قدر من الأرباح والزبائن.. هو صاحب رسالة سامية، تعيد تفعيل العقل، وتقدم حلولًا ناجعة للاقتصاد.

هنا تهور الوثنيون فطلبوا من شعيب أمرًا ثالثًا.. تهوروا فنطقوا بالكلمة، التي تجلب الخراب. تحدوا الله أن يعذبهم قائلين: ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، تألم شعيب من سوء أدبهم مع خالقهم ورازقهم سبحانه وتعالى، وأخبرهم أن إسقاط قطع من السماء ليس شأنه. هو لا يملك سوى إرشادهم، والأمر بيد الجبار أولًا وأخيرًا.

خرس الوثنيون، وحزن شعيب لعناد قومه،فإذ بالجبار المنتقم سبحانه يأمر شعيبًا والمؤمنين أن يغادروا مدين.

انطلق شعيب صلى الله عليه وسلم نحو بيوت المؤمنين وبلغهم أمر ربه، فبدأوا الاستعداد للرحيل المر. حان وقت الرحيل، ليس رضوخًا للطواغيت، ولكن لأمر مخيف سيحل، فهؤلاء الوثنيون مثال للمادية البشعة الجشعة، التي تأكل أبناءها، وتدمر نفسها، وترفض الرأي الآخر ولو كان حقًّا.. حان الرحيل عن الوطن وما أقساه. بدأ المؤمنون بتحميل مطاياهم، ثم تحركت الركائب مغادرة، فبدأ الوثنيون يسخرون من الراحلين.. يطالبونهم بالبقاء، وترك شعيب والتوحيد ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾، فهل يتخلى الراحلون عن شعيب؟

رحل قوم شعيب وعاد الفراعنة

لم يلتفت أصحاب شعيب عليهم السلام لثرثرة طواغيت الوثنيين، سلموا عقولهم لشجرة.. ساروا خلف نبيهم، وكلهم ثقة بربهم سبحانه، حتى نزلوا بأرض يعمرونها بالتوحيد والنظام، ورجع الوثنيون إلى شجرتهم (شجرة الأيك)، يقدمون لها القرابين، ويشربون نخب انتصارها.

وفجأة توقف الاحتفال.. قلصت شفاههم عن الضحك والثرثرة، حين رفعوا رؤوسهم، فإذ بالسماء تتغير.. بدأت زرقتها تتحول إلى ظلة قاتمة، وإذ بزلزال مروع، يرج أرضهم من أقصاها إلى أقصاها يوم الظلة، حتى تساقطوا من شدة الرجفة.. دب الذعر في مدين، وملأ الصياح أرضها وسماءها.. مدين مدينة للهلع.. الكل يركض.. الكل يهرب.. لا أحد يلوي على أحد، ولا يسأل عن والد أو لد.

وبلمح البصر.. شقت السماء صيحة فجرت الآذان، وصدعت ما تبقى من جدران.. صاخة انتزعت الأرواح من الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. قد تخشبوا.

هناك من تخشب وهو يغش في دكانه، وهناك من تخشب وهو في الطريق، وهناك من تجمد وهو يهم بالدخول لبيته، وآخر تخشب وهو يهرب من بيته. مدين متحف للجثث المحنطة، ومدين سكتت.

سكتت مدين.. سكت الفساد والغش والربا والظلم والإرهاب، سكت كل شيء فيها، وبقيت شجرة الأيك تسخر من غبائهم، وتتبرأ من عبادتهم لها، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

انتهى قوم شعيب، وانتهت كذلك مملكة الهكسوس في مصر.. عاد الفراعنة لحكمها، وتعاقب حكامهم، وتغيرت أحوال أحفاد إسرائيل في مصر، فبعد أن طاب للنبي يعقوب صلى الله عليه وسلم السكن فيها حتى توفاه ربه سبحانه، وبقي أبناؤه بعده سنوات وسنوات، ثم توفاهم الله واحدًا بعد الآخر، وتوفي أخوهم يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أن ترك بصمته على أرض مصر.. أنقذها من المجاعة والإفلاس بعدالة الإسلام وأخلاق النبوة والنظام الاقتصادي الإسلامي، الذي يكافح الفساد، ولا يستغل المحتاج، أو يثقل كاهله بالربا، بل يخطط لمستقبل زاهر للوطن والمواطن.. رحل يوسف الصديق، وكثر أبناؤه وأبناء إخوته وأحفادهم، حتى أصبحوا اثنتي عشرة قبيلة.. تلك القبائل أصبحت تسمى بالإسرائيليين، نسبة إلى إسرائيل أي يعقوب، ومع مرور الزمن تغير معظمهم.

أصيب الأحفاد بالغرور، لأنهم سلالة أنبياء، لكن مصر أيضًا تغيرت، فقد عاد الفراعنة الوثنيون لحكمها.. تعاقب حكامهم منهم المبدع، ومنهم المستبد المفزع، أما الإسرائيليون، فانقلب عزهم ذلًّا وشقاءً واضطهادًا، ربما لغرورهم، وربما لأنهم كانوا وزراء للملوك السابقين، وقد بلغ تطرف أحد الفراعنة أن أصدر أمرًا بقتل مواليد الإسرائيليين الذكور.

الأهرامات بين إبداع التصميم وتخلف الهدف

بالقدر الذي تفخر فيه أرض مصر الطيبة بأهراماتها المذهلة.. بقدر ما تبكي أجيالًا تم سحقها من أجل بناء تلك الأهرامات، فالفرعون كان يأمر ببناء الهرم، لا ليكون قصرًا يسكنه، أو صوامع

للغلال والأمن الغذائي للشعب، بل ولا مسرحًا أو متنزهًا. لم تبن الأهرامات ليسكنها الفقراء، ولا حتى الأغنياء.. الهرم الذي صممه مهندسون عباقرة، كان لسبب غاية في التفاهة والتخلف.

لقد تم تشييده ليكون قبرًا لفرعون، وليته بني تكريمًا لفرعون مبدع، بل هو قبر لفرعون حي مستبد، يأمر ببناء هرم يحتل مساحة حي لكي يكون قبره.. هرم بحجم حي من أجل جثة.. تهدر فيه ثروات البلاد، وتبدد طاقات الشباب من أجل جثة. ينخرط الشاب في سلك البنائين، وهو يناهز العشرينيات، فلا يكتمل الهرم إلا بعد أن يلون الشيب أصداغهم ورؤوسهم، ويتجاوز الأربعينيات.

طغيان وثني للحجر على البشر.. طغيان لم يمارسه يوسف، الذي احتفى بالإنسان المصري، وزين أرضه بنزاهة الإسلام وعدالته، أما الأسوأ فهو حين دشن أحد الفراعنة الوثنيين عهده بالظلم واضطهاد الإسرائيليين، فهل ارتكب ذلك لأنهم أحفاد يوسف وزير أعدائه الهكسوس؟ أم لأن بني إسرائيل كانوا يتحدثون عن ظهور قائد إسرائيلي سينتصر على فرعون من الفراعنة؟

لا يمكن الجزم بالسبب، لكن الذي جرى هو أنه لم يعد لبني إسرائيل المساكين قيمة.. انقلب عزهم ذلًّا وشقاءً واضطهادًا، بل بلغ التطرف بأحد الفراعنة إلى محاولة إبادتهم بطريقة مبتكرة: أمر بقتل أي مولود ذكر، وبذلك سيأتي اليوم الذي ستخلو فيه مصر منهم، وقبل صدور هذا المرسوم الطاغوتي عاش شاب إسرائيلي صالح اسمه عمران.. وقد تزوج عمران من شابة إسرائيلية صالحة فعاشا في وئام، ورزقا بفتاة، ثم رزقا بابن سموه هارون.. كبرت ابنة عمران، وأصبحت في سن المراهقة، وفي هذا الوقت صدر الحكم الفرعوني بارتكاب المجازر بحق المواليد.

حينها كانت امرأة عمران حاملًا، وكلما كبر بطنها قل خروجها، فجلاوزة الوثنيين وجزاروهم يمشطون أحياء الإسرائيليين المساكين.. يجوبون شوارعها وأزقتها كالوحوش.. يطرقونها بابًا بابًا.. في جولات تفتيشية مخيفة، لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية، وكلما عثروا على وليد انتزعوه من أحضان أمه المسكينة، وهي تصرخ وتناشدهم الرحمة، ثم قطعوا رأسه بوحشية، ورموه بين يديها. في تلك الأيام المخيفة، فاجأ المخاض زوجة عمران.

مداهمة بيت عمران

عصفت بالحي الإسرائيلي أجواء إرهاب لا تطاق، لذا كان الرعب يجتاح أم هارون على جنينها، فقد جاءها المخاض، ثم ولدت طفلًا جميلًا، سموه (موسى)، وها هي يرتجف قلبها، كلما سمعت طرقًا على الباب، أو وقع أقدام على الطريق.. تحول أبوه عمران إلى راصد للطرقات، وجامع لأخبار المداهمات.. لم يعلم بمولد موسى سوى خاصة الخاصة.. ازداد خوف أمه عليها السلام، لكن وحيًا تلقته، طمأنها وأحزنها في الوقت نفسه.. كلمات الذي لايؤوده حفظ السماوات والأرض تقول:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

قام والد موسى بصنع تابوت خشبي صغير أو شرائه، تحسبًا لحالة مداهمة، وظل الرضيع مع أمه، تحنو عليه وترضعه وتناغيه، بينما كانت جولات جلاوزة الفراعنة المفاجئة تجتاح الحي بيتًا بيتًا.. تستجوبهم فردًا فردًا.. لا يمر شهر إلا وصرخات الأمهات تدوي في بيت من بيوت ذلك الحي، وبعد أسابيع من ولادته، داهمت دورية للشرطة الفرعونية الوثنية الحي، بحثًا عن رقاب المواليد الصغيرة. دنا مسح الجزارون من منزل أم هارون، فصعب الاحتفاظ به، فقد يبكي ساعة وجودهم فينحرونه أمامها.. تحرك البيت كله.. قامت أمه بإرضاعه، ثم لفته بمهد ودموعها تبلله، وكأنها تكفن قلبها.. قبلته وضمته، ثم وضعته داخل التابوت، ووضعت قلبها معه، وهي تتأوه.

فُتح الباب وخرج عمران وابنته وابنه هارون يرصدون الطرقات، ولما أصبح الخروج آمنا خرجت به أمه، وهي تتلفت، وتوجهت به نحو نهر النيل، ولما أصبحت أمامه توقفت، وانحنت نحو الماء، ووضعت التابوت برفق على سطح الماء، وتركته في حفظ الحفيظ العليم.. تركت حبيبها، وهي تشهق من الوجع.. عيناها على التابوت، الذي يتموج مع الماء، ويبحر ويبحر حتى اختفى عن عينيها الغارقتين بالدموع.. كأني بها تكز أسنانها، وتغطي فمها خشية أن تصرخ، بل ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، كادت من شدة الوجد أن تصرخ، فتناديه فتفضح أمرها وأمره، لولا أن ربط الله على قلبها.

أما التابوت الصغير، فمالت به الريح شيئًا فشيئًا، حتى بدأت حركته بالبطء، ليرسو بعد مدة على ساحل الموت، وحافة قصر الطاغية فرعون، قاتل المواليد.. ظل التابوت ملاصقًا للساحل، يعلو وينخفض، حتى لمحته وصيفات الملكة الطيبة (آسية) زوجة فرعون.

آسية الملكة المصرية الطيبة

لمحت وصيفات الملكة (آسية) تابوتًا يعلو وينخفض مع تموج ماء النهر على حافة القصر، فأسرعن نحوه.. أمسكنه، ورفعنه عن الماء، وفتحنه، وإذ بالمفاجأة.. طفل كالقمر تهتز أطرافه.. تحلقت الوصيفات حول الكنز.. تعالت التأوهات والبسمات، ثم تهادين بسعادة نحو سيدتهن.. أخرجن الرضيع منه برفق، وسلمنه بنعومة للملكة الرقيقة الراقية، فلمعت عيناها سعادة، وجرفت قلبها براءته وجماله.. وبعد مناغاة وقبلات حانية خلد الصغير للنوم.

استغرق في نوم عميق، كعادة من هم في سنه، فلُف في مهد ناعم، وغفا على سرير فاخر. ولما التقت سيدة القصر بفرعونها، تهادت نحوه بدلال، تحمل الرضيع بين يديها.. تبشره بما وجدت، فاستشاط غضبًا، وقرر نحره، لكنها استغلت حبه لها، فاسترحمته، وناشدته ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، إنه من بني إسرائيل.

وافق الفرعون تحت تأثير الحب، ورضي بتبنيها للرضيع، الذي بدأ يفيق من نومه، ويشعر بالجوع.. بدأ يتلمظ، يبحث عن صدر أمه الحزينة.. بدأ يبكي، فإذ بالأوامر تصدر للمرضعات اللواتي أقبلن نحو الأمير الصغير، طمعًا في الهبات، لكن شفتاه لم تطق صدر أي منهن، اضطرب القصر، وارتبكت السيدة الأولى، لا تدري ما العمل حيال طفل عاف المراضع كلها.. لم تدر أن الذي أهداها هذا القمر هو خالقه سبحانه، الذي يقول: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾، أمرت الملكة الطيبة خدمها بالبحث له عن مرضعات أخريات.

هذا ما كان يحدث داخل القصر، أما في الحي الإسرائيلي المحاصر، وبالتحديد في بيت عمران، فالحزن يقتل الجميع.. لا يدرون أين رسا التابوت بموسى، وأمه لا تكف عن البكاء، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾، من أي شيء من ملذات الحياة.. عافت الطعام كطفلها، وقتلها الشوق لصغيرها، فالتفتت إلى أخته بعينين كالجمر، وطلبت منها الخروج ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، وتحسسي أي خبر عنه. خرجت الفتاة على الفور، وما هي إلا سويعات، وإذ بها تتوقف أمام زحام مثير في أحد الأسواق.. حاشية ملكية تحيط بأمير رضيع يبكي، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

حدقت به، فإذا هو شقيقها موسى.. دنت، فاختلطت بها السعادة بالحزن بالخوف.. سألتهم: ما شأنه؟ فأخبروها أن القصر يبحث له عن مرضعة، فقد عاف المراضع، وهو يبكي من الجوع. ذهلت الفتاة من رحمة الله بأخيها الرضيع! وحمدته سبحانه.

أم موسى مبجلة في قصر عدوها

ذهلت أخت موسى من رحمة الله وكرامته لأمها! وهي تشاهد أخاها الرضيع موسى محاطًا بالحاشية، يبحثون له عن مرضعة، فاقتربت منهم، وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾، ومباشرة وافق الخدم، فطلبت منهم أن يتبعوها.

مشى خدم الطاغية وجنده، خلف الفتاة الإسرائيلية عبر طرقات الحي.. لم يسيروا دورية للقتل، بل مشوا حاشية للإنقاذ.. يحملون الرضيع بحثًا عمن يسعده برضعة مريئة، بعد أن كانوا بالأمس يسلكون الطرقات نفسها بحثًا عنه ليذبحوه.. ساروا عبر التواءات ومنعطفات، أمام اتساع أعين بني إسرائيل، والتفاتاتهم ودهشتهم، ثم توقفوا أمام الباب، فإذ بالأم الحزينة، وبجوارها هارون الصغير تتحرق لخبر.. أي خبر، يطمئن قلبها: أن رضيعها ما زال حيًّا.

فُتح الباب، فإذ بالفتاة تبتسم بوجه أمها، وهي تغالب مشاعرها، كي لا تنفضح.. تكتم صرخات الفرح وقفزاته وعناقه، وإذ بخدم الطاغية، الذين روعوا أمه بالأمس، حتى ألقته في النهر، يتقدمون نحوها بلطف، فتمد إحدى الوصيفات يديها، لتقدم موسى هدية ملفوفة بالحرير.. تحرسه القوة، التي كانت تريد حز رأسه بالأمس.

فاضت عينا أم موسى، حمدًا لله، وبكى قلبها، وضمت طفلها، فألقمته صدرها، فإذ بالصغير يقبل على نبع الحياة بشغف.. رضع الطفل حتى ارتوى، ثم بدأ يناغي أمه، التي تغالب الدموع حتى لا ينفضح سرها.. تضمه وتشمه.. كان الخدم والجنود ينظرون إلى بعضهم، وهم في غاية السعادة.. ينتظرون العودة، ليبشروا الملكة الطيبة.. طلبوا من أم موسى مرافقتهم لمقابلتها، فوافقت، وكيف لا توافق وهي ستكون برفقة حبيب القلب. نهضت مباشرة وهي تحمل قرة عينها.. مشت بين الوصيفات والخدم نحو القصر.

دهش الإسرائيليون من هذا الموكب المهيب، وهم الذين تعودوا على مداهمات دوريات الشرطة الوثنية الفرعونية، ودمعت عينا عمران، وهو يرى ابنه محمولًا محفوفًا بالحاشية، والحرس يفرقون الناس، كي يفسحوا الطرقات، ليمر موكب سموه، ورؤوس الفضوليين تتطاول.. تحاول التعرف على هوية هذا الأمير المبجل.. ظل موسى محمولًا وسط همهمات الإعجاب، حتى أقبلوا على القصر، الذي تجري من تحته الأنهار، فتهادت أمه عبر بوابته.. كانت سيدة القصر في استقبالها.. مدت يديها وأخذته منها بشوق، واحتضنته، وهي تكاد تطير من الفرح، حين رأته قد ارتوى، وكف عن البكاء. تبادلت أطيب امرأتين على تلك الأرض الابتسامات والأحاديث الودية.

موسى بين شعبين وديانتين

في قصر فرعون المجرم، تبادلت أطيب امرأتين على تلك الأرض الابتسامات والأحاديث العذبة.. أحاديث تمحورت حول هذا الدلال النائم في حجر آسية.. يتقلب بين أرحم أمين.. انثالت الهدايا والعطايا والحلي على أم موسى، ورَدهُ الله ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، وجرى الحديث مع سيدة القصر العظيمة حول طريقة إرضاعه: هل ستنتقل أم موسى للسكن في القصر، أم سينتقل موسى إلى حي بني إسرائيل، أم سيتردد به الحرس عليها لترضعه.

هكذا حُذف الذبيح موسى بن عمران من قوائم المطلوبين، الذين ستكون السكاكين والخناجر في موعد مع رقابهم الصغيرة حال ولادتهم، ومذ دخل الذبيح القصر حلت البركة على حي الإسرائيلي المحاصر بالجنود الوثنيين.. بدأ الاضطهاد يخف تكريمًا لأم موسى الطيبة.. أصبح بيت عمران مرحبًا به في القصر، أما موسى فبدأ يكبر في الدلال، وكلما كبر.. كبر حبه في قلب آسية الكريمة.

كان فرعون لا يكرهه، بل يحبه، فقد ألقى الله عليه المحبة، لكن ليس لدى فرعون وقت له.. هو مشغول بعرشه.. يتوجس خوفًا من كل حركة، وإذ به يرتكب حماقة، جعلت عرشه مهددًا.. كان يخاطب شعبه القبطي الوثني بفوقية.. يقول لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وهم بالمقابل يرضون بهذه الخرافة، وكيف لا يعبدونه، وهم الذين عبدوا آلهة من نسج خيالهم.. إله للشمس وإله للنيل، وإله برأس تمساح، وخرافات وأساطير، لم تجد آذانا لدى الكثير من الإسرائيليين أحفاد الأنبياء، مما زاد من حقد فرعون عليهم، لولا زوجته آسية التي خففت من هذا الاحتقان والمعاناة.

مرت السنوات، وكبر موسى تحيطه رعاية الله ومعيته.. يصنعه على عينه، ويصطنعه لنفسه سبحانه.. كان يتردد بين أميه الحبيبتين، ولما كبر أخبرته أمه بالسر الذي لا يعلمه إلا هي ووالده وأخته.. أخبرته أنه من أحفاد إسرائيل (يعقوب) بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأنه من سلالة أنبياء، رسالتهم التوحيد والعدل، فنشأ على التوحيد النقي، رغم الوثنية الجارفة، التي تعصف بالقصر ومصر، ولما تجاوز الثامنة عشر، و﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾، آتاه الله حكمًا وعلمًا، ووهبه قوة جسدية فريدة.. كان جسده في القصر، لكن مشاعره ووجدانه مع معاناة شعبه الإسرائيلي.. معاناة شعورية، عاشها رغم الترف.. حتى جاء ذلك اليوم، الذي غادر فيها القصر والحي معًا.

موسى من أمير إلى مطلوب

كان الشاب موسى يرى تهميش الإسرائيليين الموحدين واضطهادهم.. يتألم من العنصرية الفرعونية الوثنية تجاههم، ومع ذلك ظل وفيًا للقصر، حتى جاء ذلك اليوم الذي قلب حياته رأسًا على عقب، فقد

دخل المدينة ساعة الظهيرة، وبينما هو في أحد الطرقات، إذ به يسمع نداء استغاثة من بعيد.. ركض نحو المستغيث، فإذ هو إسرائيلي يستغيث من قبطي وثني، فهب لنجدته.

وفي لحظة من لحظات الشعور بالاضطهاد.. وجه موسى لكزة قوية لصدر الوثني، فإذ به يرتطم بالأرض دون حراك.. صعق موسى فانحنى على القبطي يتحسس نفسَه، فإذا هو قد انقطع وفارق الحياة.. امتلكه شعور بالخوف من الله لا يوصف.. شعر بخطئه حين انفعل تعاطفًا مع شعبه، فالوثنيون كانوا يذبحون إخوته الرضع.. يفصلون رؤوسهم الصغيرة عن أجسادهم دون مبرر، ومع ذلك لم يبرر لنفسه، ولم يجد لها عذرًا في إزهاق نفس بريئة، حتى وإن كان خصمًا لقومه.

قتله الندم، واعترف لربه بذنبه، وهو يتأمل الرجل الممدد أمامه، فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، اسودت الدنيا في وجه موسى، وتلفت ليتأكد أن أحدًا لم يره، ثم انطلق هاربًا وسط نظرات ودهشة الإسرائيلي.. ندم موسى، وتوجه بقلبه ولسانه ومشاعره إلى من أنقذه من سكاكين الجزارين الفراعنة، وهو في مهده، وجعله أميرًا، وأسكنه القصور طالبًا منه سبحانه الغفران، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾.

ظل موسى يدعو ويستغفر، حتى ألقي في روعه: أنه قد غُفر له، فاجتاحته السعادة، وعاهد ربه الذي منحه هذه القوة، ألا يستخدمها في خدمة مجرم، أو نصرة متسلط، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، ومع ذلك ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، يخرج متنكرًا، ويدخل متخفيًا، لكن يبدو أن الأمر بدأ ينكشف.. ربما من ثرثرة ذلك الإسرائيلي، حتى علم أهل القتيل، وذات يوم كان موسى يسير في أحد الطرقات متخفيّا، يتلفت يتحاشى العيون، وإذ بشخص يتمكن من معرفته.. ناداه باسمه، واستنجد بقوته الخارقة.. توجه موسى نحو مصدر الصوت، ثم دنا منه فإذا هو الإسرائيلي المشؤوم نفسه، يستقوي به على قبطي آخر، ويهدده بمصير صاحبه الميت، فغضب موسى من هذا الإسرائيلي الذي لا يكف عن الشجار مع الناس، وتوريط الآخرين في مشكلاته.

وفجأة حدث شيء جعل موسى يهرب من المدينة كلها.

موسى يهرب من مصر

اشتد غضب موسى صلى الله عليه وسلم على ذلك الإسرائيلي المزعج، الذي لا يكف عن الشجار مع الناس، وتوريط الآخرين في مشكلاته. فزجره وقال له: (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ) تريد توريطي وإغوائي، كي أرتكب جريمة أخرى، ثم توجه نحو القبطي الوثني فقط ليردعه عن اضطهاد الإسرائيليين، وإذ بالقبطي يرتعد، ويوقن بالهلاك بعد أن عرف موسى، فصرخ في وجهه، قائلًا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

أفاق موسى.. اكتشف أن سره قد انكشف، وأن الإسرائيلي قد فضحه.. أيقظته كلمات القبطي الخائفة، وكان صلى الله عليه وسلم أوابًا رجاعًا للحق، فتراجع فورًا عما هم به.. تذكر توبته ووعده لله، وفي أثناء هذا اللجاج، التفت الثلاثة على وقع أقدام مقبلة من بعيد.. رجل يركض نحوهم بأقصى سرعته.. يقبل نحو موسى، وما إن توقف حتى بدأ بالتقاط كلماته من بين أنفاسه المتقطعة.. قال: وصدره يعلو وينخفض: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فقد انكشف الأمر، وأهل القتيل يمشطون المدينة بحثًا عنك.

انطلق موسى على الفور وولى هاربًا.. قرر أن يغادر مصر، دون أن يودع آسية الحبيبة أو يستأذنها، أو يمر على أمه وأبيه.. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ظل هائمًا على وجهه باتجاه الشمال أيامًا وليالي.. لا يملك مالًا كافيًا، ولا دابة تحمله، حتى أصبح على مشارف بلاد يقال لها مدين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، دعا بتلك الدعوات، وواصل سيره، حتى دخل مدين، وإذ به بعد مسافة يرى حشدًا من الناس.

اقترب فإذا هم جمع من الرعاة، يستقون الماء لهم ولغنمهم ودوابهم.. جال طرفه في المشهد، فوقع على شيء أحزنه، واستثار نخوته ورجولته، وكان من أشد الناس على الظلم، وأكثرهم نجدة ورحمة بالضعفاء ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، آلمه مشهد الفتاتين، وهما واقفتان في حالة انكسار وانتظار بين رعاة أجلاف.. لا يرعون حقًّا لضعيف، ولا ذوقًا في التعامل مع النساء. لم يطق موسى صبرًا.. مشى خطوات نحو الفتاتين، واقترب منهما، وسألهما عن سبب انتظارهما، و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

انغرزت كلمة شيخ في قلبه.. حدب على شيخوخة الأب، وضعف البنات اللواتي لا يستطعن الاقتراب من البئر، حتى يغادر الرعاة، ولن تتاح لهما البئر إلا بعد انصراف الجميع حتى لو قدمتا مبكرتين، فقرر اقتحام البئر.

الغربة والحزن تحت الظل

شعر موسى بالشفقة على شيخوخة الأب، وضعف البنات اللواتي لا يستطعن الاقتراب من البئر حتى يغادر الرعاة، فطلب منهما أن تعطياه دلويهما. مدت الفتاتان الدلاء، فأخذهما صلى الله عليه وسلم ثم توجه نحو البئر، وإذ بأكتاف الرعاة مصطكة حول ركية، الأولوية فيها للأقوى لا للنظام، وإذ بكتفين كالحديد تفلان تلك الحلقة من الأكتاف الغليظة، وسط ذهول الرعاة وخوفهم.

رمى موسى الدلاء، ثم انتشلها من أعماق البئر، وهي تلمع وتفيض، ثم ترك البئر والرعاة خلف ظهره، وتوجه نحو الفتاتين، وقدم لهما الدلاء، وسط فرحتهما بالعودة للمنزل مبكرتين، وإعجابهما

وسرورهما بهذا الفتى العطوف، الذي لم يطلب أجرًا أو شكرًا.. كل الذي أراده هو أن ينصف ضعيفتين، قد تأتيان ضمن أول من يرد على البئر، فلا تحصلان على حقهما إلا مع آخر من يبقى، ثم عاد موسى ليستريح تحت ظل شجرة، أو جدار. من عناء السفر، فهو قد وصل للتو، و﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾، ثم غط في نومة مسافر، أتعبه الخوف والطريق والندم والغربة.

غادرت الفتاتان، وهما تشعران بالشفقة على هذا الشهم الغريب.. تتحدثان عن طيبته، التي خلصتهما من هم الانتظار، وكأنهما تقارنانه برعاة مدين القساة.. تهادتا بقربهما اللامعة على أبيهما في وقت أبكر من المعتاد، فنظر إليهما متعجبًا، فأخبرتاه أن شابًّا شهمًا أشفق عليهما، حين رآهما بلا حول ولا قوة، فقام بالسقاية لهما، ثم ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

أشفق الشيخ على هذا الغريب، بعد أن سمع دعاءه.. دعاء يوحي بأن بين أضلاعه معاناة مريرة، وقد آن الأوان لإزاحتها. طلب الشيخ من إحدى ابنتيه أن ترجع إليه، وأن تقول له: إن أبي يدعوك ليكافئك على عملك النبيل.

انطلقت الفتاة على الفور نحو البئر، وما إن رأته تحت الظل، حتى غشيها حياء العذارى، فتهادت نحوه بأدب، ولما وقفت أمامه، قالت له بصوت خجول: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾.

ملأت تلك الكلمات قلب موسى بالسرور، فرفع رأسه ونهض على الفور معها، ومشيا حتى أقبلا على الشيخ المهيب، فحياه موسى، ورحب به الشيخ، وتأمل شحوبه، وشعث رأسه، وضمر خصره من طول السفر.. دعاه للجلوس، فجلس، وقدمت الفتاتان الطعام للضيف، الذي أنهكه الجوع والتعب، وإذ بالشيخ يقدم له عقد عمل طويل الأجل.

موسى وأشق مهر يدفع لفتاة

جلس موسى صلى الله عليه وسلم مع الشيخ المؤمن الموحد.. عرَّفه بنفسه، وأنه أحد أحفاد إسرائيل عليه السلام، وقص عليه قصة معاناته وهروبه وسفره، وأنه ملاحق من قبل الأقباط الوثنيين.

كان الشيخ ينصت باهتمام، لذا طمأنه وكله ثقة بالواحد الأحد، فقال: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ويبدو أن قلب إحدى الفتاتين خفق رحمة بأبيها وإعجابًا بموسى، فدنت من والدها، واقترحت عليه أن يوظفه عنده، فهم بلا أخ يعينهم، ويعتمدون عليه بعد الله، كما أنها وأختها تعانيان من مشقة التعامل مع الرعاة الأجلاف. قالت الفتاة: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾.

فكر الشيخ برأي ابنته الحكيم، ورؤيتها الثاقبة لأهم صفات الموظف، بل هما أهم صفات القيادي والمسؤول. فالأمانة بلا قوة تجعل المسؤول سهل المنال والاستغفال، والقوة بلا أمانة تجعل المسؤول متهورًا عنيفًا، يسهل استفزازه.

اقتنع الشيخ بوجهة نظر ابنته، لكن طموحه أرفع من طموحها.. لم يكن يريد أي أجير.. كان يريد أجيرًا بمواصفات ابن، وقبل أن يغادر موسى.. نظر الشيخ له نظرة محب، وعرض عليه أمرًا بالغ الصعوبة، على أي شاب طموح في مثل سنه، يتقد حيوية ونشاطًا.. عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، مقابل أن يعمل عنده لمدة ثمان سنوات على الأقل، وقال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

لم تكن تلك الفتاة باقتراحها ذاك بصدد الحديث عن الزواج، ولم يكن لدى موسى من المال والجاه ما يجعله هدفًا لقلوب الفتيات البسيطات.. سوى الرجولة والوسامة.. كان شابًّا طويلًا، شديد الجسم، لونه لا يميل للبياض، وشعره دهين، لكنه ليس ناعمًا ولا مجعدًا.. من يراه يظنه من قبيلة من قبائل اليمن، يقال لها (أزد شنوءة)[34].

وافق موسى على العقد، وقال للشيخ: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾، مرت الأيام فذهب الشحوب والشعث عن موسى، وتم اختيار الزوجة، بناء على موافقتها، فزفت إليه في احتفال متواضع، لم يحضره أحد من أهله.. تمنى لو زفته أمه الحبيبة، أو آسية الطيبة، تمنى لو احتفل بزفافه في حيه الإسرائيلي.. تمنى، وتمنى، لكن ما حدث له بعد الزواج كان فوق أمنياته.

اخلع نعليك

تزوج موسى صلى الله عليه وسلم وتحول إلى أجير، يعمل مقابل طعامه وشرابه.. تحولات مريرة مر بها موسى كتحولات يوسف.. كان مقذوفًا في النهر، ثم أميرًا، ثم شريدًا، وأخير أصبح أجيرًا في امتحان جديد، وتمحيص وتهيئة له، ليكون أهلًا لمسؤوليات عظمى تنتظره. ظل يكد على أرض مدين.. يرعى الغنم، ويجلب الماء من الآبار، ثم رزق بذرية، ولما مرت عشر سنوات على إقامته في مدين كان قد تجاوز الثلاثين.

هنا انتهت مدة العقد الذي أبرمه مع صهره، فتحرك قلبه نحو والديه وأهله، ولما حل الشتاء، حان موعد الوداع، بكت القلوب وفاضت العيون، ثم انطلق موسى وزوجته وأولاده جنوبًا عبر سيناء.. سار وسار، وفي ليلة من الليالي الباردة، لمح صلى الله عليه وسلم وهو في الطريق وميضًا من بعيد.. قرب جبل، يقال له الطور.. حدق فرأى ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾ توقف والتفت لزوجته وأولاده،

وطلب منهم البقاء ريثما يعود، وقال لهم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، ﴿رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾.

بقيت الأسرة الصغيرة في الظلام، يحدقون بحبيبهم، الذي بدأ يختفي عن أنظارهم شيئًا فشيئًا، ليتوغل في عالم الأنوار، الذي أذهله عن أسرته وعن كل شيء.. سلك موسى شاطئ الوادي الأيمن.. يتوكأ على عصاه رغم شبابه، حتى دنا من النار.. تأملها فإذا هي ليست كتلك التي طالما أوقدها.. نار لم يوقدها بشر، ولم تورث رمادًا.. وفجأة غمرته مشاعر روحانية لم يعهدها، حين ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، نداء أخذ بنياط قلبه.. يقول له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

أنصت موسى وهو يسبح في النور، وإذ ببدنه يقشعر هيبة، حين قال له النداء: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾، ذاب قلبه.. خشعت جوارحه، وشعر أنه في عالم غير العالم.

انحنى عليه السلام فخلع نعليه، ثم اعتدل، وبقي مأخوذًا أمام الجلال، الذي سلب مشاعره، وغيبه عن نفسه وأهله.. عن كل شيء حوله.. تماهى بأجمل لحظات حياته.. لحظات أغلا عنده من الدنيا وما فيها ومن فيها. لا يريد لها أن تنقطع أو تتوقف. لحظات تحترق قلوب المؤمنين شوقًا لمثلها، حين يناديهم الرحمن في الجنة، ويكلمهم في النعيم: فمن أسعد من موسى حينها، ومن أقرب منه ساعتها، والرب جل جلاله يناديه مرة أخرى، ويقول له: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، خشعت جوارحه، وأطرق ينصت بقلبه للأوامر الصادرة من العلي الأعلى.

عد يا موسى

أنصت قلب موسى صلى الله عليه وسلم بأذنه وقلبه وكله للعلي الأعلى سبحانه، وهو يصطفيه ويختاره، يقول له: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾.

ابتداء من هذه اللحظة تحول موسى إلى رسول صلى الله عليه وسلم، وإذ بالجبار سبحانه وتعالى يسأله سؤالًا هو أعلم بجوابه، فيقول: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟ سؤال نقل موسى صلى الله عليه وسلم من عالم الدهشة والذهول، إلى الواقع الذي يجب إصلاحه بالنبوة. قال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾، فقال سبحانه: ﴿أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

رمى موسى عصاه مباشرة، فلم تتدحرج، ولم تحدث صوتًا.. انقلب حية ضخمة، تتلوى بسرعة، وكأنها في سرعة اهتزازها نوع من الحيات، يسمى (جان). لم ينتظر موسى.. أطلق ساقيه هاربًا نحو زوجته وأطفاله، لما ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، وفجأة سمع نداء ربه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

طار الخوف من قلبه وتوقف، فقال له الجبار: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾، فامتثل وعاد إلى عالم النور بسكينة، حتى صار أمام الحية، التي لا تزال تهتز، وكأنها تنتظره.. توقف وحدق بها، فقال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، انحنى موسى على الحية ثقة بربه، ومد يده، وما إن لامست أصابعه طرفها، حتى عادت عصا في كفه، فأخذها والمعجزات تعرج بروحه، وتزيد إيمانه، فقال المولى له: (﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾، ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾، أدخل موسى يده في جيبه، وضمها إلى جنبه، ثم أخرج كفه، فإذا بها بيضاء كالنور.

معجزات وأنوار، أذهلت كليم الله.. تبعتها معجزة ستُطمئن فؤاده، كلما اجتاحه رعب في المستقبل.. لا سيما وهو في مهمة إلى أكبر طاغوت في عصره (فرعون).. حين قال له الله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، إذا فهو في مهمة بالغة الخطورة إلى أكبر طاغوت في عصره (فرعون)، حيث قال سبحانه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

هنا تغير خط الرحلة، فلن يكون الهدف هو الحي الإسرائيلي، ولن تكون سفرته زيارة سرية لبيت أمه الحبيبة، كي ترى أحفادها، وقبل أن ينطلق موسى ارتبك.. تذكر شيئًا نغص عليه حياته، وتسبب في غربته.

افتحوا الباب لحبيب القلب

تأهب موسى صلى الله عليه وسلم لتنفيذ أمر ربه، لكنه تذكر شيئًا نغص عليه حياته، وتسبب في غربته، فقال لربه : ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، ثم تذكر شيئًا آخر.. تذكر الصعوبة التي يجدها أحيانًا في النطق، فناشد ربه قائلًا: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

واصل موسى أدعيته وتوسلاته: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾، فاستجاب الله له، وقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

ارتفعت معنويات موسى، ثم عاد من جبل الطور نحو أسرته الصغيرة، الغارقة في ظلام الليل.. سمعوا خشف نعليه وسط الظلام.. لم يروا معه شعلة، أو جذوة من النار، لكنه عاد بأنوار النبوة في قلبه وروحه وعقله، أما يده فمعجزة تحمل معجزة.. أقبل موسى بغير القلب الذي ذهب به.. ذهب رجلًا موحدًا من أولياء الله، وعاد لزوجته نبيًّا من أولي العزم من الرسل.. جلس بين يديها والسكينة تغشاه.. تأملته، وكأنها تتأمل شخصًا آخر.. ترى ما الذي جرى له؟ ما الأمر الذي غيره حول النار؟

لاحظ تساؤلاتها القلقة، فأخبرها بما جرى بين النار والنور، فاقشعر بدنها، وارتجف قلبها، ورفت روحها لعظمة ما سمعته.. تحولت من زوجة الأجير الإسرائيلي القوي الأمين، إلى زوجة كليم الله ونبيه صلى الله عليه وسلم.. نهضت الأسرة الصغيرة، واستأنفت رحلتها عبر الأودية والشعاب وبين الجبال، حتى أقبلت على مصر.. سلك كليم الله طرقات وممرات ملونة بالذكريات، تؤدي إلى بيت عمران في الحي الإسرائيلي.. وقف أمام بيت أمه القديم فاستأذن، فسرى صوته الحبيب، فأطرب قلب أمه، فتلاشت عنها غيمة الحزن، التي كدرته عشرة أعوام من الوجد والفراق.

افتحوا الباب لقرة العين.. فاضت العيون للقاء حبيب القلب، الذي لا يكف عن إبكاء قلبها، منذ أن غفا في التابوت.. لمعت عينا الزوجة، وهي ترى الحفاوة والحب والعناق حولها.. قدمت لعائلتها الجديدة أحفادهم، الذين لم يتجاوزوا العاشرة.. جلس موسى وأسرته بين والديه، وكأنه يعوضهما عن سنوات الغربة، ثم أخذ شقيقه هارون، وتوجها نحو القصر.

موسى والذكريات

جلس موسى صلى الله عليه وسلم وأسرته بين والديه، وكأنه يعوضهما عن سنوات الغربة، أخبرهما بنبوته ومسؤولياته، والتقى بأخيه وصديق طفولته هارون الفصيح الحبيب.. فتعانق النبيان الأخوان، وتفاهما حول التوجه للفراعنة والأقباط الوثنيين، لانتشالهم من وحل الوثنية، وعبادة البشر، والظلم. إلى عبادة رب البشر وخالقهم، ومالك الملك، الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، وقبل أن ينطلقا ليقولا لفرعون: أنت مجرد بشر، تأكل وتشرب، وتنام وتذهب لدورات المياه مثلهم، وتمرض مثلهم، وستموت يومًا مثلهم.. نزل الوحي يطالبهما باللطف واللين مع طاغية، ينحر المواليد، ويقول لشعبه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

قال سبحانه لهما: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾. تساءل النبيان عن جدوى اللين مع طاغية، بلغت قسوته حدًّا لا يطاق، فقالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾، فقد تحجر قلب هذا الطاغية الوثني، حتى صار يتلذذ بحز رؤوس المواليد وقطعها، ومع ذلك نزل الوحي ينيرهما: أن للملوك خطابًا ليس لغيرهم.. خطاب يفترض أن يحفظ لهم مكانتهم ومركزهم وألقابهم وهيبتهم.. خطاب يقوي دولتهم بالعدل والتوحيد، مع جرعة وعي، تذكرهم بكرم الله ونعمته،

الذي فضلهم على غيرهم، ومكنهم من رقاب عباده.. خطاب يذكرهم بقدرة الله عليهم، وأن أنفاسهم وعقولهم وحواسهم وأرواحهم بيده سبحانه.

انتشر خبر وصول موسى ونبوته في الحي الإسرائيلي، فبدأ الإسرائيليون الاحتفالات، وتبادل التهاني فرحًا بظهور النبي المنتظر، الذي سينقذهم الله به من بطش فرعون، فقد أصبح ظلمه لا يطاق، وما من فرج سوى فرج الله.. تداعوا نحو بيت عمران، علهم يحظون بلقاء موسى، ورؤيته بعد غيبته الطويلة، بينما كان موسى بصحبة أخيه يغادران الحي.. مشيا بين جدران، طالما رددت نواح الأمهات، وصرخات الرضع، وتلونت بدمائهم، لا لشيء سوى أن أهلهم يقولون: لا إله إلا الله. وحده لا شريك له، فالتوحيد يثير جنون فرعون، وحاشيته القبطية الوثنية.

تجاوز النبيان الحي الحزين، وبعد مسافة أقبلا على القصر الفرعوني الباذخ؛ لتشرق على موسى ذكريات حميمة.. هنا كان يلهو ويلعب تحت ناظري آسية الحبيبة ودلالها.. ترى أين هي الآن.. هل اشتاقت إليه، كما اشتاق لها؟ هل سيتغير قلبها إن سمعت خطابه اليوم؟

من ربكما يا موسى؟

تساءل شوق موسى صلى الله عليه وسلم: ترى أين آسية الحبيبة.. هل اشتاقت إليه كما اشتاق لها؟ هل سيتغير قلبها إن سمعت خطابه اليوم، أم أن حبه سيزداد في قلبها الحنون؟ واصل الأخوان سيرهما، حتى أوقفهما الجنود، الذين تحيروا ما يقولون، بعد أن عرفهم موسى بنفسه: هل سيدخلونه بصفته فتى القصر المدلل، أم سيقبضون عليه، لأنه المطلوب الأول للأقباط الوثنيين.. تحيروا.. ماذا سيقولون لفرعون. توجه الحرسي لرئيسه، وأخبره بالغائب الذي عاد. فأسرع نحو فرعون الذي أمر بإدخاله.

دخل موسى وهارون، وأقبلا على فرعون، الذي رمقهما بنظرات حادة، تحمل مشاعر متناقضة.. عتاب أم شوق أم غضب. وقفا محاطين بحرس شرس، ليبدأ موسى وهارون بكلمات لينة، عل فرعون يفتح عقله لحوار متعقل، ثم قالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

نظر فرعون إلى موسى بفوقية ومنة، قائلًا: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

لم يجحد موسى سكنه في القصر، وعناية زوجته به في طفولته، لكن فرعون نسي أنه هو السبب، وأن موسى ألقي في النهر خوفًا من مجازره المرعبة، أما تربيته في قصره، فمعجزة تدل على قدرة الله على جعله يعتني بالطفل، الذي أمر جنده بالبحث عنه وذبحه.

لم ينكر موسى أيضًا ما ارتكبه بحق القبطي.. اعترف بخطئه مباشرة، فالمكابرة ليست من صفات الأنبياء ولا الأولياء.. هي من صفات فرعون وأمثاله.. اعترف موسى، وقال: أجل ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

انتفض فرعون غضبًا، وانتفخ غرورًا: ما هذه الكلمة التي ترددها: ربي؟ هل لك رب غيري؟ صاح في وجه موسى قائلًا: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟! فقال موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، فقال الطاغية: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، فقال بكل ثقة: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم تلطف موسى به وتحنن إليه تحنن الولد لوالده، وقال: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، تلفت فرعون والغرور يملأ جمجمته الفارغة.. نظر لحاشيته فقال: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ ودون أن تنطق الحاشية بأي كلمة، فتحوا أفواههم، واتسعت أعينهم من شدة الخوف.

لغة العقل والدليل

خاطب موسى صلى الله عليه وسلم حاشية فرعون، وهو يدعوهم إلى عبادة الله، خالق السماوات والأرض، وخالقهم، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، سكتت الحاشية، فصاح بهم فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، تحولت الحاشية إلى تلاميذ، بين نبي يحاور ويحرر العقل، وطاغية يملي، فواصل صلى الله عليه وسلم تفعيل عقولهم، وقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

خاف فرعون من حجج موسى الدامغة، فقابلها بالصياح والتهديد، قائلًا: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، طلب موسى من فرعون التخلي عن لغة الصراخ والهياط، قائلًا: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أحرج فرعون أمام أتباعه.. حاصره العقل، فاضطر أن يقول: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، هنا سكت موسى.. لم ينطق بحرف.. كانت العيون شاخصة نحوه.. منهم من ظن أنه سيخرج ليأتي بالدليل، ومنهم من ظن أنه سيواصل مرافعته المفحمة.. أما موسى فكل الذي فعله هو أنه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

دب الرعب في القصر، وأصيب فرعون بالهلع من ضخامتها، أما الحاشية، فتغيرت طريقة جلوسهم، وكأنهم يتأهبون للفرار، وترك فرعون لمصيره. في أثناء ذلك اللغط أدخل موسى يده في جيبه، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾، رفعها فإذا هي كالبدر.. شخصت أبصار الوثنيين، وتحيرت عقولهم، وقلوبهم وأبصارهم تتقلب بين النور والحية.

لم تهاجم الحية أحدًا، فظن فرعون أن موسى يستخدم نوعًا من السحر، فالتفت نحو مستشاريه، و﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، كانت مصر آنذاك تعج بالسحرة.. كانوا جزءًا من الثقافة الفرعونية والقبطية الوثنية، وبعد تشاور بين الحاشية، اقتربوا من فرعون، واقترحوا أن يؤجل الرد على موسى، حتى يتمكن من إحضار أبرع السحرة، قائلين: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، وافق فرعون، وعاد المستشارون إلى مقاعدهم، وعاد فرعون للتهديد، قائلًا لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

وافق موسى، بل طلب أن يكون يوم التحدي يوم العيد؛ ليتمكن أكبر عدد من الشعب من الحضور. ثم خرج النبيان نحو الحي الإسرائيلي الذي كان يتحرق شوقا لمعرفة ما جرى بينه وبين فرعون.

التوحيد يعود للحي الإسرائيلي

طلب موسى صلى الله عليه وسلم أن يكون موعد التحدي مع السحرة الوثنيين صباح يوم العيد، وقال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾، ليتمكن أكبر عدد من الشعب من الحضور. ثم خرج هو وهارون نحو بني إسرائيل، الذين كانوا يتحرقون شوقًا لمعرفة ما جرى بينهم وبين فرعون، ونزل أمر الله بجعل بعض البيوت الإسرائيلية مساجد، حيث نزل الوحي ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بدأ النبيان بتنفيذ الأمر، لكنهما صدما بهول التغير، الذي طرأ على توحيد الإسرائيليين بفعل القمع الوثني، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، فقد أصبح التوحيد في عهد فرعون تهمة، مما جعل الكثير من بني إسرائيل يتلوث بالبدع، لذا كانت مهمة موسى شاقة في اقتلاع تلك الخرافات من النفوس، التي غرستها الثقافة الفرعونية الوثنية بالقوة.

أما خارج الحي، فصدر الأمر الفرعوني بدعوة أعظم وأشهر السحرة في البلاد، فركب الجند والرسل خيلهم وجمالهم، وانطلقوا مسرعين نحو القرى والمدن وحتى البوادي.. يمشطون مصر بحثًا عن أي ساحر أو ساحرة، حتى تمكنوا من جمع أكبر قدر من الدجالين، الذين طارت قلوبهم فرحًا بتلبية دعوة فرعون.. تواصلوا مع شياطينهم، وأحضروا رقاهم ورقعهم، وركبوا دوابهم، وتداعوا نحو مصر، ولما وصلوا تمت استضافتهم في أماكن، أعدها الفراعنة لهم، وتم إخبارهم أن سحر موسى يتلخص في أمرين: أنه يحمل عصا تنقلب إلى حية، ويجعل يده بيضاء كالقمر.

هون السحرة من الأمر، فهي خدع قديمة بالنسبة لهم، لذا كانوا متحمسين للمشاركة طمعًا في جوائز الفرعون، وخوفًا من بطشه. تم الإعلان في الأسواق والطرقات والميادين: أن يوم العيد هذا العام سيكون مختلفًا، فستجري فيه مباراة للتحدي بين السحرة وموسى صلى الله عليه وسلم.

مرت الأيام واقترب يوم العيد، فازدادت الإشاعات والإثارة في البلاد، بينما كان موسى وهارون منخرطين في إزالة ما علق بتوحيد قبائلهم الإسرائيلية، ثم جاء يوم العيد، فبدأ المنظمون إعداد الساحة مبكرًا، وفي ساعة الضحى حضر الفرعون وحاشيته والسحرة، واكتظ المكان بالمتفرجين.. هنا نظر السحرة لفرعون، فاشترطوا شرطًا قبل بدء التحدي.

السحرة يشترطون

انتهى المنظمون من تهيئة المكان: هنا سيجلس فرعون، وهنا كبار الشخصيات، وعلى رأسهم وزير اسمه (هامان)، الذي يبدو أنه المسؤول الأول عن البناء. هنا سيصطف السحرة، وهنا مكان موسى، والباقي للمتفرجين.. تم نشر الحرس في الصباح، وتوزيعهم لضبط الأمن، وبدأ الفضوليون الحضور مبكرًا، ليضمنوا مواقع مميزة للمشاهدة.

اقتربت ساعة الضحى، فحضر كبار الشخصيات، وتداعت آلاف الخطوات، وحضر أناس من بني إسرائيل لمؤازرة موسى ولو معنويًّا. بدأ الهمس يرتفع.. والحماس يرتفع، وتعالى ضجيج الوثنيين كالعادة. أقبل السحرة بملابسهم الغريبة، وحبالهم وعصيهم، وهمهماتهم الأغرب، فتعالى التشجيع لرفع معنوياتهم، وتهادى موسى وهارون، فانطلقت صيحات الاستهجان الوثنية، وانطلقت دعوات الإسرائيليين الموحدين بينهم وبين أنفسهم: أن ينصر الله رسله. وأخيرًا أقبل موكب الطاغية، نحو مكان الاحتفال.

أقبل فرعون بملابسه الفاخرة وحليه الذهبية، فارتفعت هتافات التمجيد والتطبيل والتأليه، ثم توجه نحو عرشه؛ ليجلس منتفخًا كطاووس، فسجد السحرة له بذُلٍّ، ثم رفعوا رؤوسهم، وطلبوا منه الإذن بالكلام، قبل بدء العرض، فسمح لهم، فقدموا شرطًا على شكل التماس، وهو أن يمنحهم الهبات إن انتصروا، قائلين: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾، فأحب الطاغية أن يشحذ هممهم، ويرفع معنوياتهم بالمال، وأكثر من المال، فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾، ستكونون من الحاشية ورجالات البلاط.. المهم أن تهزموا موسى، وتثبتوا أنه مجرد ساحر مشعوذ.

تحمس السحرة، ولاحت المناصب والثراء في مخيلتهم، فاصطفوا يحملون حبالًا وعصيًّا وأخشابًا، وكأنهم سيخوضون شجارًا. اصطفوا في مقابل موسى، وموسى صامت أمام هذا الحشد الفارغ.

هتف صلى الله عليه وسلم بهم لا ليخوفهم بما معه، بل ليخوفهم بالجبار سبحانه، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾، فهم يعرفون أنفسهم، وأنهم مجرد دجالين.

تضعضع بعضهم، هنا شعر البعض بالقلق، وطالبوا بالتحلق للتشاور في المضي والإقدام، أو الانسحاب قبل الفضيحة. دنت رؤوس الخرافة من بعضها، وشكلوا حلقة تتهامس وتتنازع، ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾، وبعد أن ثرثروا فقرروا التحدي.. رفعوا رؤوسهم، وهتفوا بموسى متحدين.

موسى يمنح السحرة تقاعدًا مبكرًا

دنت رؤوس الخرافة من بعضها، بعد أن اهتزت معنويات البعض، وشكلوا حلقة تتهامس، فطالبوا بعضهم بالثبات. فموسى مثلهم ساحر، يريد خطف الأضواء عنهم، والشهرة، والاستئثار بالمال،

و﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾.

استعاد السحرة معنوياتهم، وصاحوا بموسى المتكىء على عصاه المتواضعة، قائلين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴾.

لم يكن عليه السلام في عجلة من أمره، لذا هتف بهم قائلًا: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾، فتحفزوا، وزمزموا بتعاويذهم، وكانت آخر تعويذاتهم هي ﴿ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾، ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾، انطلقت على تلك المشاهد تأوهات الجمهور، وأصيبوا بالدهشة، وتطاولت الرؤوس؛ لتتمكن من الرؤية.. أخافتهم أشياء غريبة تزحف وتتحرك، بل أخافت موسى الذي ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴾، فإذ بالوحي ينتشل موسى مما هو فيه.. ينتشله من أجواء الدجل والضجيج، ويقول له: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾.

رفع موسى عصاه، فانحبست الأنفاس، ثم خاطب السحرة: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾، ألقى الكليم عصاه وسط تلك النفايات، وما إن لامست الأرض، حتى انقلبت حية ضخمة فاغرة فاها.

تراجع السحرة.. أصيبوا بالفزع، وهم يرون أنيابًا كالخناجر، وتضعضع فرعون، وقبض على عرشه، وهو يراها تتلوى، وتلتف بين نفايات السحرة، وإذ بها تبتلعها واحدة تلو الأخرى، حتى أتت عليها كلها، ونظفت الساحة، ثم ظلت تهتز، ولها فحيح مرعب.. ترفع رأسها.. تتلفت كأنها تتصفح وجوه السحرة، الذين قتلهم الخوف.. كأنها تقول لهم: هل من مزيد؟

هنا أيقنوا، وهم المحترفون للسحر: أن ما فعلته عصا موسى لا يمت للسحر بصلة، فليس هنا أسحر، ولا أعلم بالسحر منهم، حتى شياطين الجن، الذين يلوذون بهم، ويتمتمون بأسمائهم هربوا، وولوا في حضور الوحي. أيقنوا أنهم أمام نبي.. أمام معجزات فوق مستوى الإنس والجن، لذا لم يطالبوا بجولة ثانية، ولم يماطلوا، أو يكابروا.. خروا لله الواحد الأحد سجدًا أمام فرعون، الذي فقد صوابه، وقرر البطش بهم.

ساحة احتفالات أم ساحة للإعدامات

خر السحرة لرب السماوات والأرض، و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، تعالى صراخ الحشود، واستنارت وجوه الإسرائيليين، وهم يغالبون حماسهم، ففز فرعون من على عرشه غاضبًا، يزبد ويرعد، ويهدد ويصرخ بالسحرة: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، فالإيمان عند فرعون لا علاقة له

بالاقتناع.. هو يعد إيمان شعبه ضمن ممتلكاته.. يشكله حسب مزاجه، لذا لجأ للتهمة المعلبة هناك (مؤامرة) من تخطيط الكاهن الأكبر موسى قائلًا: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، والهدف من المؤامرة غسل أدمغة الشعب، ليكونوا أتباعًا لكم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ودون محاكمة أو حتى تحقيق أو أدلة، فهو القاضي، وهو الأدلة، صاح فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، لم يدرك هذا المغرور أنه قد فات الأوان.. لم يعد تهديده ووعيده، وحتى عطاياه تساوي عند المؤمنين شيئًا.. كل ما يتعلق به تلاشى، ابتلعته الحية.. حتى ألوهيته ابتلعتها.. حتى الحية اختفت.. عادت عصا في كف موسى.

قارن السحرة ما عند ربهم بما لدى فرعون، فردوا ثقة بربهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، رفت قلوبهم شوقًا لربهم سبحانه وتعالى، وكأن فرعون يبشرهم بموعد رحلتهم، التي لا يريدون التأخر عنها، و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ولذا لم يلتمسوا عفوه.. تجاهلوه، وتوجهوا نحو خالقهم وحبيبهم سبحانه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾،

طار تهديد الطاغية وصوابه، وحول ساحة الاحتفال إلى ساحة إعدامات دامية.. طوقهم الجزارون بوحشية، وسحبوهم بعنف أمام أعين الإسرائيليين الباكية، التي طالما رأت أولئك الجلاوزة يحزون رقاب صغارهم.. سُلت السيوف، وجُر المؤمنون الجدد واحدًا تلو الآخر.. يمدون اليد اليمنى للمؤمن، فيرفع الجلاد سيفه، ثم يهوي به، فإذا اليد تطير، ويطش دمها شلالًا، ثم يمدون رجله اليسرى، ثم يهوي السيف فيقطعها، وينفجر الدم مجددًا. تطايرت أيديهم وأرجلهم، وكأنها تسبقهم إلى الجنة، وتحولت الساحة إلى بركة دم. ومع ذلك لم ينته المشهد.

كل من في القصر مضطرب إلا واحدًا

لم يكتف جند فرعون الوثنيون بقطع أيدي وأرجل الموحدين الجدد.. بدؤوا يجرونهم ودماؤهم تشخب على الأرض، ثم يرفعونهم، ويصلبونهم على جذوع النخل، وهم يناجون ربهم، ويحتفلون بالشهادة.. نزفوا ونزفوا حتى اصفرت ألوانهم، وفاضت أرواحهم، ففاضت عيون المؤمنين، وذاب قلب موسى صلى الله عليه وسلم كمدًا، فرفع دعوة مظلوم حرى من أعماق قلبه، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

فإذ بالقاهر الجبار يبشره، ويبشر أخاه هارون، ويقول: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مالت الشمس للغروب، بعد أن ارتوت نخيل مصر من دماء الشهداء.. خلت الساحة بعد يوم دامي، وانصرف المسلمون باكين، وأقفى فرعون ووزراؤه إلى القصر، لكنه أصبح منذ اليوم في حالة رعب.. يخشى الاقتراب من موسى ومن عصاه، كان هو ومستشاروه في حالة غليان مما جرى، ورغم شلالات الدماء، التي صبغت جذوع النخل، لم تنطفىء نار الحقد في نفوسهم.. القصر كله كان مضطربًا إلا شخصًا واحدًا، كان في أقصى حالات السكون والطمأنينة.. (آسية) الطيبة.. كانت هناك حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم.. كانت هناك حين ألقى قرة عينها عصاه، فإذا هي تبتلع كل شيء، وتخطف قلبها وعقلها.. آمنت أنه لا إله إلا رب موسى وهارون.

هو خالقها ورازقها والمنعم عليها سبحانه، أما فرعون فليس إلهًا.. هو مجرد زوج، وهي أعلم الناس بخصوصياته وأسراره، وكذبه وظلمه، وجوعه وضعفه وعطشه، ورائحته وعفنه، وقد ضاقت به، وضاقت بها الدنيا، فلم تعد تطيق قصره.. لم تعد تطيق كنوزه، ولا حليه، ولا حتى رؤيته.. تشعر بأنها ترقد مع وثن، يزعجها شخيره، وتزكمها أنفاسه.

لذا لجأت لربها، وناجته من أعماق قلبها، وقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فقد شاهدت زوجها الطاغوت حين عاد محبطًا منكسرًا.. تتأمل جبنه وخوفه، من أن يمس شعرة من رأس موسى، لأنه يشعر أن نهايته أقرب من ذلك، لذا طلب من مستشاريه الرأي بعد إيمان السحرة بالله سبحانه، فخوفوه على ملكه، وصوروا له الحق باطلًا، والإصلاح إفسادًا، قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾.

تفعيل قانون التطهير العرقي

أنصت الطاغية باهتمام لبطانة السوء، حين أشاروا قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، لكنه تجاهل المساس بموسى، لأنه لا طاقة له به، واكتفى بالبطش بالإسرائيليين المسلمين. أصدر أمرًا بإعادة تفعيل قانون التطهير العرقي والديني، وبشكل أكثر وحشية، فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

انطلق الجند مجددًا يمشطون الحي الإسرائيلي.. ينشرون الرعب في طرقاته وممراته، فحُطمت الأبواب، وسالت دماء الصغار، فتوجه الإسرائيليون إلى بيت موسى، يحملون الأطفال والرضع.. يحاصرونه بالبكاء والعويل.. يطالبونه بالتحرك، لإيقاف المجاز، التي أمست أفظع من الماضي.. خرج موسى إليهم، وخاطبهم بالصبر، وقال لهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

لكن هذا الكلام لم يعجب الكثيرين منهم، فقالوا متذمرين: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ فطمأنهم، وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾، ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بالدعاء، بل توجه مباشرة للقصر، أقبل عليه فدخله بكل ثقة وسط فزع الجند والحاشية والوزراء.. لم يعد أحد يجرؤ على منعه، أو حتى إبقائه ينتظر على الباب.

دخل دون يأس، وخاطب الطاغية باللين مجددًا، ففرعون يظل واحدًا من البشر، والبشر يتغيرون.. قناعتهم تتغير، مواقفهم تتبدل، إلا المعاندين، الذين تحركهم الأهواء والأحقاد والغرائز. نصحه موسى بالرجوع عن الوثنية والظلم، فازداد الطاغية صلفًا، بل أصدر أمرًا على سبيل السخرية، قائلًا لوزيره (هامان): ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

كان فرعون في عبثيته تلك، يدرك أن هامان لا يستطيع أن يبني مثل هذا البناء، إلا بعد أن تزول أجيال.. كان يروغ عن الإجابة بشكل مضحك، فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، هذا دليل على أني إله، ثم يسخر من لكنة موسى، قائلًا: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾، ثم يطالب موسى بملائكة تمشي معه، وتلقى عليه أساور من ذهب، قائلًا: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾، تحجج ومناكفة وعناد، فالمعاند لا يهدف للوصول للحقيقة.. هدفه إسكات محاوره فقط.

لذا فقد انتهى وقت اللين. فليستعد للأسوأ.

الآيات لا تجدي مع المعاند

استنفد موسى صلى الله عليه وسلم كل أساليب الإقناع واللين مع فرعون، فالأسلوب الذي يفهمه هذا الوثني وأمثاله هو القوة، لذا طلب موسى أن يكف عن التعذيب، ويوقف المجازر، وأن يطلق سراح قومه، وإلا فسوف يرى ما لا طاقة له به.

صمت فرعون خوفًا، لكن جلاوزته استمروا بمجازرهم.. تمادوا في القتل والبطش، وإذ ببوادر العقوبات تلوح في الأفق، ويلوح معها السحاب فلا يمطر.. حتى حلت بمصر سنوات قحط، كالتي حلت أيام يوسف.. جفت المراعي، وماتت المواشي، وقلت الثمار في الأسواق، وضعف الاقتصاد، فبدأ الوثنيون بالتشاؤم من موسى والموحدين، ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ازداد القحط، فخف الظلم والاضطهاد على الإسرائيليين، فبدأت الحياة تعود مجددًا، والاقتصاد ينتعش شيئًا فشيئًا، لكن الإسرائيليين ظلوا ممنوعين من السفر للديار المقدسة في الشام، بل عاود فرعون بطشه بهم، فخوفه موسى بعقوبة أخرى من جبار السماوات والأرض، لكنه تمادى في سكرة التعافي الاقتصادي، وفجأة اجتاح الديار طوفان، أغرق المزارع، فأتلفها، وهدم الكثير من الدور، وأغرق الكثيرين، وأصبحت البلاد في حال يرثى لها، فانشغل فرعون وجنده بأوضاعهم المأساوية عن اضطهاد بني إسرائيل، وبعد زوال الطوفان عاد القمع، فعاد موسى للتحذير، لكن فرعون لم يتراجع.

ذات يوم أصبحت السماء غير السماء.. غيمة سوداء هائلة، تسد الأفق، تقبل من بعيد، فيتحول النهار إلى ليل... لم تمطر تلك الغيمة السوداء كالعادة.. فعلت شيئًا مخيفًا.. إنها تهبط على المزارع، تظل على الأرض مدة ثم تقلع، فإذا المزارع جرداء.. إنها أسراب مهولة من الجراد، أفنت المحاصيل أمام صيحات الفلاحين وعويلهم، وعجز فرعون عن فعل شيء، أقلعت الأسراب المحاربة، تاركة بؤسًا وعويلًا.

لم يقتصر الأمر على السماء.. هناك كارثة أخرى تمتد على أرض الفراعنة.. سجادة من الموت تمتد على مد النظر.. جيش من صغار الجراد المسمى الدبى أو (الْقُمَّلَ) يزحف.. يحصد ما تبقى من زرع، ويسيل في الطرقات والأسواق والبيوت.

لم تنته الجوائح.. سرعان ما ابتلاهم الجبار بالضفادع، التي أحالت حياتهم إلى جحيم ونقيق مزعج.. لا يعرفون معه طعما للراحة، وأخيرًا (الدم): اجتاحهم وباء يسبب الرعاف أو النزيف، لا يعرفون له سببًا ولا علاجًا.

هنا شعر فرعون بتعاطف شعبه الوثني مع موسى، فقرر التخلي عن عناده، وإخلاء سبيل بني إسرائيل، وتركهم يغادرون، وبعد أن غادروا قام بعمل كالانتحار.

استسلام أم خديعة

استسلم فرعون بعد تلك الآيات، التي يقول الله عنها: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾، لم يؤمن فرعون ولا قومه.. ظلوا على وثنيتهم، ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، دعا موسى ربه فانزاحت العقوبات، أما في الحي الإسرائيلي فعمت الأفراح والاحتفالات، وبدؤوا بجمع حاجياتهم وأمتعتهم، استعدادًا للرحيل إلى الديار المقدسة.. وضعت الأمتعة على الرواحل، وودعت القلوب مصر الحبيبة الجميلة.. مصر النيل، مهد الصبا، ومرتع الشباب، التي أفسدها الفرعون بظلمه، وشوهها ببطشه.. تحركت القافلة الإسرائيلية مبتهجة.. متجهة

نحو المسجد الأقصى.. كان مشهدًا مؤلمًا لفرعون، ليس لأنه آمن كما وعد، ولا لأنه شعر بالندم على جرائمه.. تألم فرعون لشعوره بالهزيمة، فهو لا يزال يرى موسى مجرد طفل إسرائيلي، تربى في قصره.. كيف يفعل طفل به كل ذلك؟! كيف استطاع تحرير شعبه رغمًا عن أنفه؟

شعور قاتل، يشل تفكيره، جعله يعود لطغيانه، وينكث وعده لموسى، حيث يقول الجبار سبحانه: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾، بدأ ذلك النكث حين أصدر الطاغوت فرعون أمره لجنده بالتسلح، وتجهيز عربات القتال، والاستعداد لملاحقة بني إسرائيل، والقبض عليهم، وإبادتهم بشكل كامل. وفورًا بدأ التأهب، وما هو إلا يوم أو يومان، وإذا بفرعون مزهوًّا على عربته الحربية، يقود جيشًا ضخمًا مدججًا لمطاردة قافلة موسى المتجهة نحو سيناء..

لم تكن القافلة المؤمنة تعلم بغدر فرعون.. كانت تسير وتتوقف بأريحية، ففيها الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، وبعد أن قطعوا مسافة كبيرة، واقتربوا من البحر المسمى بخليج السويس، رأوا عجاجة ترتفع خلفهم.. تكبر عجاجة الغبار، وتقترب.. استطلع بعضهم، ثم جاء يرتجف خوفًا، فأخبر موسى الذي صدمه الخبر، وفجأة توقفت قافلة موسى رغمًا عنها.. أوقفها الساحل الغربي للخليج. انتهى الطريق، وما من مفر.. البحر أمامهم، وصياح جيش الطاغية المخيف يدوي، ويدنو خلفهم، فهل هي النهاية؟

طوقهم الجيش الفرعوني، وسل الوثنيون سيوفهم، وبدأ بكاء النساء والأطفال يرتفع، و﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾.. وأيقنوا أنهم هالكون بالتأكيد.

طريق الموت الفاخر

قام فرعون على عربته الحربية الفاخرة مزهوًّا.. يحدق بموسى وقومه على شاطىء خليج السويس بهم، وقد قرر هذه المرة أبادتهم عن بكرة أبيهم، بينما كانت أرجل الشيوخ والعجائز والأطفال حائرة، قد غاصت في رمال الشاطىء، وقلوبهم ترتجف بين موتين.. البحر أو النحر، أما القائد موسى صلى الله عليه وسلم فكان لا يدري ما يفعل، وسط هذا الضجيج، واستغاثات شعبه وعويلهم.. الذين يصيحون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، لكنه كان هادئًا هدوء إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار.. طمأن شعبه.. حثّهم على التماسك، والثقة بربهم.. كان صلى الله عليه وسلم في قمة الثقة بربه، وكأنه يتذكر قوله له ولأخيه في بدايات رسالته: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، لذا صاح بشعبه: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وإذ بالوحي ينزل عليه.. يأمره بحركة.. حركة واحدة فقط، وبعصاه المتواضعة نفسها، لا لتنقلب حية، بل لشيء أكثر هولًا: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾.

مشى موسى على رمال الشاطىء، وما إن انغمست قدماه في الماء، حتى رفع عصاه، ثم ضرب بها الماء، وإذ بصوت مخيف يخلع القلوب.. انشق البحر.. انفلق أمام الكليم إلى نصفين.. من مضرب العصا إلى الساحل الشرقي للخليج.

وقف موسى مذهولًا من قدرة العظيم الجبار.. اهتز كيانه إجلالًا لربه، وهو يرى أمامه ﴿طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، ناشفًا، لا طين فيه، ولا زلق، ولا طمي.. طريق واسع، منحدر نحو الأعماق، مفتوحًا على السماء، أما الماء، فالماء تحول إلى جدارين عن اليمين وعن الشمال هائلين.. يتلألآن، وكلما توغل الطريق في أعماق البحر، كلما ارتفعت جدران الماء لعشرات الأمتار.. انفلق البحر فرقين ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾. أيقظ الوحي موسى المنبهر.. يأمره بتدشين الطريق الأزرق الفاخر، ويقول له: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾.

خطا موسى أولى الخطوات، فتحركت قافلة الموحدين ثقة بالله.. الدموع تسيل، والقافلة تسير، والماء يصطف كالجبال على الجانبين، حرسًا يحمى الموحدين.

عبر المستضعفون.. عبر الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، وهم يتلفتون منذهلين مما هم فيه، وعيونهم تفيض.. تتسع، وهي تتأمل تلك اللوحتين الجداريتين الهائلتين، تتأمل هذا السرادق الأزرق، الذي يتلألأ احتفاء بهم في اليوم العاشر من شهر محرم من تلك السنة القمرية[35].

تاريخ تدشين الطريق الفاخر

في اليوم العاشر من شهر محرم من تلك السنة القمرية.. دشن موسى صلى الله عليه وسلم الطريق الأزرق الفاخر.. خطا أولى الخطوات عليه، فتحركت خلفه قافلة الموحدين المستضعفين.. عبر الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، ورؤوسهم تدور بين الجدران الزرقاء المهيبة، وقلوبهم تلهج بالشكر لربهم، وعيونهم تفيض، وهي تتأمل هذا السرادق، الذي يتلألأ احتفاء بهم.. تتابعوا حتى عبروا إلى الشاطىء المقابل.

رست القافلة على ميناء سيناء، دون أن تبتل بالماء، بينما كان فرعون أمام بوابة الممر كالتمثال من الذهول، وفجأة أيقظه حقده الذي يسافر في قلبه كالخنجر المعقوف، وهو يحدق في قافلة سجنائه، وهي تتحرر منه.. يحبسه الخوف من مطاردتهم، فهو يدرك تفسير ما يجري أمامه، لكنه يكابر، وأخيرًا طاش حقده على عقله.. عجز عن تحمل رؤيتهم ينعمون بأمان، فأصدر أمره للجيش، باقتحام الطريق المذهل.

علا صياح الجند، وصهيل الخيل، وتحركت العربات، وسلت السيوف، فالطريق مرصوفة وفسيحة، والمسافة ليست بعيدة، وموسى وقومه لا زالوا في متناول اليد.

كان القلق يقتل بعض أفراد قافلة المستضعفين، وهم يحدقون بالجيش الوثني مقبلًا كالموت نحوهم، أما كليم الله صلى الله عليه وسلم، فكان قائمًا على البوابة الأخرى، وأقدامه منغمسة في رمال وماء شاطىء سيناء، ممسكًا بالعصى، وكأنه يتهيأ لاستقبال فرعون وجنده.. يراقب جيش قتلة الأطفال، حتى أصبح كله وسط الطريق، وإذ به يضرب بوابة السرادق المائي بعصاه، فإذ بدويّ انفجار مروع، يفجر الآذان.

اصطك الجداران ببعضهما، فإذ بموج هائل يصطفق، يعلو في السماء.. يطوح بالعربات والجند والخيل والأسلحة والطغيان في الهواء، ثم تهوي بتلك الأشياء نحو القاع.. اضطربت أمواج البحر، وامتلأت بطون الجند بالماء.. ذاب طغيانهم وسط تأوهات وتسبيحات المتفرجين المؤمنين، ثم ساد الأجواء سكون مهيب.

سكن طوفان البحر الغاضب شيئًا فشيئًا، وكأنه يلتقط أنفاسه، ثم انقطع المشهد، واختفت البوابات، وأمحا الجيش، أما قاتل الأطفال الذي كان يقول قبل ساعات: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، فهو الآن مجرد شيء، يرفعه الموج ويهوي، وهو بلا حول ولا قوة.

خارت قوى الإله المزيف، وأيقن بدنو أجله وهو يتنفس ماء وموتًا وندمًا.. أيقن بدنو أجله، وهو يغرغر ندمًا.. يحاول تدارك الأمر.. يقول بعد أن أدركه الغرق، وأشرف على الموت، وهو يغرغر:

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾، آمن برب بني إسرائيل، المسلمين الذين نحرهم، من أجل أنهم آمنوا بربهم، من أجل أنهم يقولون: لا إله إلا الله.

موسى يترك قافلته

اصطك الجداران المائيان، فدكا جيش الفراعنة، وندم فرعون حيث لا ينفع الندم.. في توقيت يقول الجبار سبحانه عنه: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾، ابتلع الطوفان قاتل الأطفال، وأذهلت المشاهد الإسرائيليين، وهم يرون قدرة ربهم، الذي أذل من أذلهم وأغرقه.. ينظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم يقولون: من يصدق أن فرعون وجنده الوثنيين يختفون بلمح البصر؟

تحول البحر إلى ضريح، لكنه لم يطق جثثهم.. لفظها بعد مدة، فطفت على سطحه، ثم قذفتها الرياح على الساحلين.. قذفت بمن كانوا يملؤون الأجواء رعبًا.. تناثرت جثث من قطعوا أيدي التائبين وأرجلهم، وصلبوهم في جذوع النخل. تناثرت، فانطلق بعض الإسرائيليين نحوها، يسلبونها.. يخلعون حليها وأساورها الثمينة، وبعد مدة غادر موسى وقومه، وانطلقوا بمحاذاة الساحل شمالًا نحو الأرض المقدسة، لكن ماذا عن بقايا دولة الوثنيين؟

وصلهم الخبر، فأرسلوا قوة نحو ساحل الفناء، فإذا بالجثث على الساحل. قلبوها.. تصفحوها، وقد غيرتها الشمس، وأخيرًا عثروا عليه: ها هو فرعون جثة متورمة.. بلا سلطة.. بلا حرس.

رفعوا جثته المتعفنة، ثم وضعوها على إحدى العربات وعادوا، ثم أخذوها إلى معمل للتحنيط، حيث يبرع الفراعنة، ليبقى جسده حتى اليوم شاهدًا وآية، يقول عنها الجبار سبحانه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾، معجزة متاحة للفرجة حتى اليوم.. تشهد بصدق القرآن، وزوال الطغيان، ونبوة موسى، الذي انطلق لبيت المقدس، لكنه اكتشف في أثناء الطريق أن فرعون ما زال حيًّا بين الإسرائيليين.

حدث ذلك حين كان رجل إسرائيلي غامضٌ متأثرًا بوثنية الأقباط، يدعى (السامري)، يتعاطى السحر.. كان السامري يتابع موسى، وإذ به يشاهد جبريل، ينزل على موسى في أثناء غرق فرعون على هيئة مقاتل، كما ينزل على بعض الأنبياء في أثناء حروبهم، ويبدو أنه بعد أن افترق جبريل وموسى، دنا السامري الغامض من المكان، وانحنى على الأرض، ومد يده، وأخذ قبضة تراب من أثر الرسول، وأخفاها في ثيابه، واحتفظ بها، بينما سارت القافلة الإسرائيلية بطمأنينة، فلا خوف بعد اليوم، ولا ملاحقة، ولا عنصرية، ولا اضطهاد.. قافلة تحلم بمستقبل واعد، وآمال تمحو الآلام. بينما كان السامري يخطط لأمر، ينسف كل جهود موسى صلى الله عليه وسلم.

إلى أين ستذهب يا موسى؟

اكتشف موسى صلى الله عليه وسلم بعد غرق فرعون: أن بعض الإسرائيليين قد تأثروا بوثنية الأقباط، كما تأثر السامري، الذي برع في السحر الوثني في أثناء إقامته مع الفراعنة.. اكتشف ذلك على أرض سيناء، حين مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

صدم صلى الله عليه وسلم بمقولتهم، وغضب منها غضبًا شديدًا، ثم اكتشف أنه لم يؤمن ﴿لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، صاح بوجوههم، و﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وأخبرهم أن هؤلاء الوثنيين غاية في التخلف والغباء، حين يعبدون ما لا ينفع ولا يضر.

يعبدون أشياء هم صنعوها أو نجروها، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ثم كشف لهم أي جحود يرتكبونه بحق خالقهم ورازقهم، الذي نصرهم، وفضَّلهم بنعم ليست عند غيرهم، وأولها التوحيد والنبوة، فقال: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، فضلكم بالتوحيد، فبلا توحيد تكونون أنتم والعاكفون على الأصنام سواء.. بعد ذلك التنبيه واصل موسى بمحاذاة الساحل، وبعد مسافة شعر بشوق عاصف للوادي المقدس، فلم يطق صبرًا.. أمر القافلة بالتوقف والنزول على الساحل.

توقفت المطايا، ونزل المسافرون، وأنزلوا أمتعتهم، وانتشروا في الأرض.. توجه موسى لأخيه هارون، وأخبره بوجهته، وأمره أن يخلفه في قيادة بني إسرائيل، وأن يكون حازمًا تجاه من يعبث بالتوحيد، أو يبتدع في الدين، أو ينشر فسادًا، قائلًا: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

انطلق موسى صلى الله عليه وسلم إلى الوادي، وهو يسبح في نعم تقله وتظله، فقد خرج من مصر بالأمس خائفًا، ثم شقي في غربته أجيرًا لعشر سنوات، مقابل لقمة عيشه، وها هو اليوم يخرج منها نبيًّا وقائدًا منتصرًا على الطاغوت وجنده.. سار وسار، ولما اقترب من الوادي، خفق قلبه شوقًا، ولما أصبح على مشارف الوادي، تهادى نحوه، وقد غشيه إجلال لربه، ولما وصل خلع نعليه ثم مشى خطوات ثم توقف حيث توقف تلك الليلة، فإذ بنداء الجبار سبحانه يجتاح مشاعره وحواسه. الجبار العظيم يكلمه؛ لتتلاشى الدنيا بأسرها، ويشعر بشغف لا يطيقه.. عجز عن كتمانه، أو السكوت عنه.. شغف موسى بأكثر من الكلام مع الله سبحانه وتعالى.. ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، طمع موسى برؤية جبار السماوات والأرض، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فإذ بموسى يصاب بشيء يعجزه، حتى عن رؤية ما حوله.

الوثنية بين الإسرائيليين مجددًا

خلع موسى صلى الله عليه وسلم نعليه، وخلع معها الدنيا بأسرها، فمن أسعد منه، والجبار سبحانه سيكلمه.. دنا من البقعة المباركة، في الوادي المقدس، فأخذته رهبة المكان، وإجلال الخالق الذي ناداه، فقال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، وإذ بالجبار يخبره بأمر جلل، حدث بعد مغادرته للمعسكر الإسرائيلي، قائلًا: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

صعق موسى للخبر، ثم هدأ حين أنزل الله عليه مقدمة التوراة.. كلامًا مكتوبًا على لوحين من الصخر، ابتدأ بتوحيد الله سبحانه، ونفي أي شريك معه.. ظل موسى في الوادي المقدس أربعين يومًا، في حال لا مثيل لها: ذكر لله وخلوة وصفاء للروح.. تحلق روحه في أنوار، يعجز عن وصفها، ويشعر بحب يزداد مع كل كلمة يلهج بها، فيشعر بعطش للمزيد من هذا الشوق والحب، ويحاول أن يرتوي فيزداد عطشًا، فيرف قلبه للمزيد.. يرف قلبه لأبعد من الصوت والحرف.. يتحرق شوقًا لرؤية الحبيب سبحانه، فيعجز عن كبت مشاعره، ويقول: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾.

فإذ بالإجابة نور لا يطيقه موسى ولا غيره.. حتى الجبال الصم الرواسي لا تطيقه، فلا عقل موسى ولا جسده ولا قلبه ولا كل حواسه قادرة على تحمل رؤية الجبار المتعال، الذي قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

التفت موسى نحو جبل هائل، كان طودًا شامخًا قبل قليل، فلم يجده.. تلاشى.. تبخر حين رفعت الحجب، فكيف لإنسان من لحم ودم أن يصمد. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾، من هول ما رأى.. أغمي عليه رهبة وحبًّا وإجلالا وهيبة.. مشاعر أكبر من أن يتحملها، أو أن يصفها، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

تاب موسى من هذا الطلب، فلن يراه أحد في الدنيا، حتى محمد صلى الله عليه وسلم، حين سئل: هل رأى ربه؟ قال: «نور أنَّى أراه»[36]، فالرؤية هناك في الجنة، حين يعاد خلق الإنس خلقًا آخر أرقى وأعظم.. خلق قابل لرؤية الجبار.. خلق عظيم قابل للخلود، بلا أمراض، أو آفات، أو أحزان، أو تغير إلا إلى الأحسن، وحين يرى أهل الجنة حبيبهم سبحانه تذهلهم رؤيته وجلاله وجماله، عما هم فيه من نعيم.

أفاق موسى صلى الله عليه وسلم وهو أكثر إيمانًا وإجلالًا لربه، ثم نهض وأخذ ألواح التوراة، وغادر الوادي المقدس، ليعالج الوثنية التي أغوت المعسكر الإسرائيلي.

المعسكر الإسرائيلي فوضى ووثنية

عاد موسى صلى الله عليه وسلم من الوادي المقدس بعد أربعين يومًا، قال الله سبحانه عنها: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾، وهي أيام لا علاقة لها بشهر ذي القعدة، ولا بعشر ذي الحجة، لأنها جاءت بعد محرم، فالله قد أنقذ موسى صلى الله عليه وسلم، وأغرق فرعون في العاشر من محرم من ذلك العام، فلا يمكن للتاريخ أن يرجع.

عاد موسى ممتلئًا بالإيمان، لكن ما جرى داخل المعسكر الإسرائيلي أجج غضبه، فنضاله ونضال الأنبياء قبله والأنبياء بعده كان من أجل توحيد الله سبحانه أولًا وقبل كل شيء، ولما وصل صدم صدمة كبيرة، حيث وجد الوضع كارثيًا: المعسكر يعج بالفوضى والشرك والانفلات، فقد استغل الساحر السامري غيابه، فمارس ألاعيبه، التي تعلمها في مصر مستغفلًا الكثير من الإسرائيليين، فصدقوه، وأعطوه حليهم، والحلي التي سلبوها من جثث الفراعنة والأقباط الوثنيين، المتناثرة على الساحل، ثم قام بصهرها وصياغتها على شكل عجل أجوف، يصدر صوتًا كآلات النفخ الموسيقية، ثم قام باستخدام أثر الرسول، كما يفعل السحرة بالآثار الموجودة على الرمال والملابس والشعر.

أحاط الإسرائيليون بالسامري، وهو يمارس سحره، فانخدع به السذج، وتابعه ضعيفو الإيمان. لم يكتف السامري بالسحر.. لقد تجرأ وتمادى إلى محاولة نسف التوحيد، وإعادة إنتاج الوثنية، فبث أتباعه المتأثرين بوثنية الفراعنة، ليقولوا للناس: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، أي أن موسى نسي إلهه، فذهب للبحث عنه، وأن السامري قد عثر عليه، وها هو أمامكم، فاعبدوه.

سمع الموحدون هذا الدجل، فغضبوا، وانطلقوا نحو النبي هارون صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فأقبل غاضبًا نحو الجموع، التي تطوف بالعجل الذهبي، وهي تتمتم وتهمهم، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، فأجابوه إجابة تدل على أنهم يعانون خللًا كبيرًا في العقيدة.. أصروا على أن يحسم موسى أمر العجل بنفسه، و﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾، واصل هارون المشي بينهم، محاولًا ثنيهم عن الشرك بالله سبحانه، لكن السامري شكل عصابة منظمة.. حاولوا إسكات هارون، بل والاعتداء عليه، لدرجة أنهم حاولوا قتله.

قلت حيلة هارون صلى الله عليه وسلم فشكا أمره لربه، وانتظر قدوم أخيه وقلبه يتمزق، وبعد أكثر من شهر ونصف.. تعالت الأصوات والضجيج في المعسكر، حين انتشر خبر نزل كالصاعقة على السامري وعصابته.

موسى يلقي ألواح التوراة

أقبل موسى صلى الله عليه وسلم على المعسكر الإسرائيلي، والغضب يلون وجهه.. لم يتجه لأخيه هارون.. توجه كالسيف البتار نحو الجموع الغبية، التي تطوف بالعجل الصنم.. حدق بجهلهم،

وصاح بهم: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

زلزلتهم الكلمات، وأسقط في أيديهم.. أدركوا أنهم وقعوا في الشرك، فاعتذروا، و﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾، فتركهم موسى، ثم انطلق نحو نائبه هارون؛ ليسأله عن موقفه مما جرى، ولماذا لمْ يتركهم، ويلحق به حين وقعوا في الشرك؟

وما إن رآه حتى تأجج غضبه، وفقد شعوره؛ لدرجة أن موسى ألقى الألواح على الأرض، دون أن يشعر، ومد يده بغضب، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، ويهزه، وأمسك بلحيته، وهو يعاتبه، قائلًا: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟

كان هارون لينًا عطوفًا على شعبه.. يخشى انقسامهم، بعد ما مروا به من سنوات قمع مريرة، ومجازر مؤلمة، لذا قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

رق موسى لكلمات هارون ورجاءاته، فترك رأسه، وانطلق نحو رأس الفتنة والبدعة.. نحو السامري الساحر الإسرائيلي الوثني، المزهو بين الغوغاء، ولما وقف أمامه شزره بنظرة كالموت، وصاح به: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾.

تضعضع الدجال من نظرات موسى، فبدأ يبحث عن مخرج هنا أو هناك، ويقول: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، هنا أخبره موسى أن عقابه لن يكون اليوم، فلا مساس به في الدنيا.. حسابه يوم القيامة، قائلًا: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، ثم أشار موسى إلى عجله الأجوف، وقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، ثم خاطب موسى أصحابه المؤمنين.. طالبًا منه تحطيم هذا الإله المزيف وحرقه، ثم رميه في الخليج، كما رُمي الطاغوت، الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

البحر يبتلع الإله المزيف الآخر

هتف موسى صلى الله عليه وسلم بصحابته، وأمرهم بجمع حطب، وإشعال النار فيه. انطلق الإسرائيليون المسلمون يحتطبون هنا وهناك، ثم أقبلوا وقد انحنت ظهورهم تحت حزم الحطب، ولما وصلوا رموا بها على الأرض، وكدسوها فوق بعضها كومة هائلة، ثم أشعلوا فيها النار، ولما تأجج

اللهب.. توجه مجموعة منهم نحو العجل الذهبي إله السامري، فحملوه وأقبلوا به نحو النار، ثم طوحوا به وسط ألسنة اللهب.

لم يقاوم ذلك الإله، بل ولم يصمد لوقت طويل.. دقائق فإذ بإله السامري والمغفلين يتغير قوامه.. يذوب، ثم يسيح مختلطًا بالرماد والتراب، ومتحولًا إلى نفايات. تركوه حتى برد، ثم حملوا الخليط فطوحوا به وسط مياه الخليج.

انتهى الإله المزيف الذي صنعه السامري.. انتهى إله لم يتجاوز من العمر أكثر من شهر ونصف.. هوى لقاع البحر، كما هوى الفرعون الذي كان يقول لشعبه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وبعد التخلص من تلك النفاية توعد موسى الإسرائيليين الوثنيين الذين عبدوا العجل بمصير أسود، يقول الله عنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾.

شعر موسى بأن معاناته مع الطغيان الوثني قد ولت، لكن معاناته الجديدة والأطول قد بدأت، وهي معاناته من شعبه الإسرائيلي أنفسهم، فالسنوات التي قضوها في بيئة فرعونية وثنية قمعية، حولت الكثير منهم إلى مزيج من التناقضات، فبنو إسرائيل يتمتعون بأعظم نسب في العالم، ويباهون غيرهم بأنهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، بينما يتعامل معهم الوثنيون بازدراء، وكأنهم من طبقة العبيد.. الإسرائيليون ينتمون لأنبياء بشروا بالتوحيد، وناضلوا لنشره، بينما يرغمهم الوثنيون على ممارسة الشرك والركوع والسجود لأخشاب وصخور منحوتة، ولدجال اسمه فرعون.

أجداد الإسرائيليين (الأنبياء) يحملون رسالة العدل، بينما أصبحوا هم يستوحشون من الحرية، لكثرة ما تعرضوا له من القمع والظلم والتقتيل.

نفسية أمثال هؤلاء لن تكون سوية غالبًا، والأيام القادمة ستحمل لموسى سلسلة من المفاجآت الصادمة، فهي نفسيات تحمل إرثًا ثقيلًا من القمع متعبًا، مما جعلهم يتحولون إلى بيئة مناسبة للتطرف في كل اتجاه، لذا لا يمكن لموسى أن يعتمد في التعامل معهم على أسلوب الوعظ والإرشاد والتعليم فقط.. لا بد أيضًا من الصرامة والرقابة معًا.

فما الذي سيتخذه موسى تجاه من عبدوا العجل؟

بنو إسرائيل وأول عقوبة تنزل بهم

كانت عبادة العجل نسف كامل لتوحيد الله سبحانه، وكفر برسالة موسى صلى الله عليه وسلم، وارتكاب لأعظم ذنب عند الله الذي يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، لذا توجه موسى صلى الله عليه وسلم نحو شعبه، وقام خطيبًا في

معسكره الإسرائيلي بقسميه: المسلم والوثني معًا. فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾.

كانت تلك عقوبة واختبارًا قاسيًا للمسلمين، الذين انصاعوا للأمر، وتهيؤوا لقتال إخوة النسب، الذين عبدوا العجل.. حملوا السلاح، وشنوا عليهم هجومًا، فسقط من الموحدين شهداء، ومن السامريين قتلى، ثم أمرهم موسى بإيقاف القتال، بعد أن أعلن السامريون توبتهم، واعترفوا أن ارتكابهم للشرك ليس بالأمر الهين، بعد كل ما رأوه من معجزات لموسى ونصر وتأييد رباني، وهل اضطهدهم فرعون إلا من أجل توحيدهم لله، وهل أرسل الله أنبياءه ورسله إلا من أجل التوحيد، فكيف يقوم أبناء الأنبياء بنسفه؟ بل وصناعة الأصنام وعبادتها؟ كيف يقوم أهل التوحيد بخيانة ربهم، الذي شق لهم البحر، وأنجاهم، وأغرق عدو الله وعدوهم؟

كان الشرك مفزعًا جدًّا لموسى، لذا تبرأ منه، ودعا ربه طالبًا المغفرة، وقائلًا: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، استغفر ربه رغم أنه لم يسهم بالوثنية، ولم يرض هو ولا أخوه بها.. استغفر، لأن الاستغفار اعتراف مستمر بالحاجة لرحمة الله سبحانه، وأن ما يتلقاه موسى من تأييد وخوارق هي من الله وحده، ولو شاء لسلبها في لحظة.. النبي دائم الشكر. دائم العرفان. دائم التواضع لمن رفعه واختاره وفضله، لأنه يعرف قدْر الله وقدرة الله أكثر من غيره.

مر ذلك الاختبار مريرًا على بني إسرائيل، ثم عفا الله عنهم، وتاب عليهم، واستأنف موسى وهارون نشر الوعي بينهم مجددًا، بتعاليم جديدة، تتنزل تباعًا.. تعاليم من أجل تقوية إيمانهم، لذا طلب منهم الاجتماع، ولما اجتمعوا انتقى منهم سبعين رجلًا ليرافقوه في رحلته الثالثة لجبل طور، وليكونوا شهودًا.

انطلق السبعون خلف موسى عليه السلام، حتى أقبلوا على الوادي المقدس، وكان غير بعيد جدًّا عن مكان إقامتهم على البحر.. ساروا حتى دنوا منه، ولما دنوا ارتجت الأرض من تحتهم ومن حولهم.. تساقطوا وشعروا بالرعب، واجتاح موسى خوف شديد، وظن أنه الهلاك بسبب العجل.

أمة محمد صلى الله عليه وسلم في سيناء

اجتاح الخوف موسى صلى الله عليه وسلم.. خشي أن تكون هذه الرجفة عقوبة لما ارتكبه بعضهم من وثنية.. خشي أن تكون مقدمة لمثل الصيحة، التي أبادت قوم ثمود ومدين، فناشد الغفور الرحيم سبحانه اللطف قائلًا: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾، فخاطبه سبحانه وقال: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾.

ثم بيّن سبحانه أن أحق الناس برحمته ليس أولئك المتقلبون الجاحدون، بل هم أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، التي يحملها المستقبل، وذلك لصفات يحبها الله فيهم، قائلًا: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، تلك هي إحدى البشارات ببعثة نبينا صلى الله عليه وسلم.. بشارة نزلت في سيناء.. في لحظات خذلان معظم شعب موسى لموسى، وتخليهم عن التوحيد.. بشارة تكشف أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته هي الأمر بالمعروف، وأوله التوحيد والعدل، والنهي عن المنكر، وأشده الشرك والفساد والظلم، وقد أغرق الله فرعون قبل أشهر، لأنه ادعى الألوهية، وظلم الإسرائيليين، رغم تلوث الكثير منهم بالشرك، ولو لم يلاحقهم في البحر، ويصر على إبادتهم، لربما كان حيًّا، فالجبار سبحانه حرم على نفسه الظلم، وحرمه على خلقه.. فقال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»[37]، لا يرضى بالظلم، ولو لمن يكفرون به، ففي الدنيا: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فالحساب في الآخرة، أما الفساد والظلم، فلا تسامح فيها في الدنيا ولا في الآخرة، ولذا تنهار الأمم الفاسدة، رغم قوتها وثرائها، وتدوم الأمم العادلة، مهما كانت عقيدتها.

مفاهيم جاهد موسى لإيصالها، لكن يبدو أن قومه يحتاجون لمجاهدة أكبر، فها هم بعدما عاد موسى والسبعون.. يستقبلونهم، والفضول يقتلهم.. يحتشدون حولهم.. يسألونهم عما جرى لهم، وعن كلام الله لموسى.. يطلبون المزيد من التفاصيل. لكن حديث موسى والسبعين لم يشبع غرورهم، فلم تتوقف أسئلتهم التي لا تبحث عن الإجابة لتعمل، بقدر ما تبحث عن جمع المعلومة للمعلومة نفسها.

بدؤوا بمطالبة موسى بأشياء غريبة.. توجهوا نحوه ذات يوم، فطالبوه بشيء مستحيل.

القبيلة المغرورة تتواضع

رغم أنه يوجد من الإسرائيليين أنبياء ورجال ونساء عظماء وعظيمات، وموحدون نبلاء، ورغم أن منهم من وصفهم الله سبحانه بأنهم: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾، وأنه فضل هذه القبيلة على الأمم والقبائل، إلا أن غالبيتهم وقفوا من نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم موقفًا محيرًا.. ممتلئين بالغرور.. مغترين بحلم الله، وتفضله عليهم، وكأنهم يقولون لأنفسهم:

من مثلنا من القبائل: نحن بنو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم.. أجدادنا وآباؤنا وأعمامنا أنبياء، بل من إخوتنا، ومن بيننا من هو نبي.. نحن من جعل الله النار بردًا وسلامًا على جدنا.. نحن من بنينا بيت المقدس.. نحن من شق الله لنا البحر، وأغرق من أجلنا فرعون وجنده الأقباط الوثنيين.. منا يعقوب ويوسف والأسباط، ومنا كليم الله موسى وهارون، فمن مثلنا؟

لا أحد، وما دمنا الأعظم، فلا ينقصنا سوى شيء واحد، وإن لم يتحقق فسوف نتمرد.

مشى هؤلاء الإسرائيليون نحو رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم وقد تورموا من العجب والغرور، معلنين تمردهم إن لم يتحقق لهم ما يريدون. قالوا: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾.

وبينما هم ينظرون إلى موسى، وينتظرون جوابه، وقبل أن يرد.. قبل أن يحرك شفتيه بكلمة.. أتاهم الرد من السماء.. دوت صاعقة مرعبة رددتها الجبال، فإذا هم جثث متناثرة أمامه.. ارتج موسى مما حوله.. كان مشهد الجثث مروعًا، وكأنما خرت من السماء.. رق صلى الله عليه وسلم لمآل هؤلاء الأشقياء، فدعا ربه، وناشده العفو عنهم، فاستجاب الرحمن الرحيم، فإذا الحياة تسري بأطرافهم.. يتحركون.. ينهضون ببطء، والذعر يجتاحهم.. يتأملون العالم من حولهم.. يتحسسون أبدانهم.. تدور أعينهم بين الأرض والسماء.

شعروا بعظمة الجبار سبحانه، فتلاشى فخرهم، وشكروه، واستغفروه مجددًا، وتاب من كان وثنيًّا، واعتذروا لموسى، وعادوا لأطفالهم، الذين كانوا قبل قليل أيتامًا، ولنسائهم بعد أن كن قبل دقائق أرامل. سكنت تلك القبائل وهدأت، ومرت الأيام، فإذا بهم يطلبون من موسى شيئًا آخر.. يطالبونه بمياه عذبة، بدلًا من السقيا المرهق من الآبار، فدعا موسى صلى الله عليه وسلم ربه، فإذا به يتلقى أمر الجبار: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَـاكَ ٱلْحَجَـرَ ﴾.

تقدم الكليم نحو أحد الحجارة الكبيرة، ولما وقف أمامه رفع عصاه، فضرب به حجرًا كبيرًا أمامه، فإذ بأطراف الحجر تنبجس أمامهم شلالات ماء.. اثنتا عشرة عينًا، تتفجر ماء زلالًا بعدد قبائل بني إسرائيل، لكل قبيلة شلال، فهل انتهت مناكفات بني إسرائيل؟ لا يبدو ذلك، فزمن المناكفات الإسرائيلي لم ينته، لكن يبدو أن زمنًا آخر للتحايل قد بدأ.

أنهار ومن وسلوى ونظام

في سيناء أمر الله سبحانه موسى صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، فرفع عصاه فضرب به حجرًا كبيرًا جدًّا أمامه، فإذ بالماء ينبجس من أطراف الحجر شلالات ماء عذب.. اثنتا عشرة عينًا اتسعت لها أعين القبائل الإسرائيلية، ومعجزة هرول بعدها الرجال والنساء والأطفال إلى رحالهم، فأخذوا قربهم وأوانيهم ومزاداتهم، ثم عادوا نحو العيون العذبة، ليملؤوها بالماء المعجزة. لكن موسى أوقفهم، حتى لا تدب الفوضى والنزاع، لا سيما وهم قد تمرسوا عليها.

هتف بهم، ولما شخصت أبصارهم أشار للعين الأولى، فجعلها لقبيلة فلان، وللعين الثانية، فخصصها لقبيلة فلان، وهكذا حتى حدد لكل قبيلة عينًا و﴿عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

بدأت الأرض تخضر من حولهم، فإذا بأسراب من طيور المن تحلق فوقهم.. يصطادون منها ما شاؤوا، ويتفننون في إعداد موائدهم طبخًا وشيًا، ويتلذذون بعسل النحل، الذي كثرت خلاياه لكثرة الزهور من حولهم. أمن وأمان، ومن وسلوى، وساحل جميل، وأسماك، ومعجزات تتلوها معجزات، ونعيم يتلوه نعيم.. لتتوالى أحكام التوراة بعدها تفقههم بأمور دينهم، وتنظم دنياهم، فالشعب يكثر لا سيما، وتعدد الزوجات عندهم لا حدود له، وهم بحاجة لقوانين، لا إلى أعراف غير ملزمة، كما أن الأنظمة تحتاج إلى قيادة صارمة، تضمن تطبيقها، وإلا تحول المجتمع إلى غابة، يفترس القوي فيها الضعيف.

لذا نزل نظام جنائي، بدأ بتحريم سفك الدماء، وأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، ثم نزل الوحي بقوانين القصاص، التي تقرر أن ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، وبين الله أن أحكامه وعي وتنوير، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وطالب بعدم المجاملة في تطبيق النظام، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

هنا بدأ الفوضويون وأعداء النظام سلسلة من المماحكات.. لا يريدون عقوبات.. لا يريدون نظامًا.. يريدون مجتمعًا هلاميًّا، لا قوام له، كي يعبثوا، ويتحايلوا، ويفسدوا دون حسيب أو رقيب، وكأنه

لا يصلحهم إلا البطش.. نصحهم موسى، وطالبهم بعدم التمادي، لكنهم تمادوا، وإذ بشيء فوق رؤوسهم، أرعبهم، جعلهم يهرولون نحو موسى.

مخلوقات غريبة على الساحل

رفع الإسرائيليون رؤوسهم للسماء، فإذا شيء أسود، لا يشبه الغيوم.. شيء مرعب، لا غيث فيه ولا مطر، ولم يروا مثله.. هرولوا كالعادة نحو الكليم صلى الله عليه وسلم.. وقفوا أمامه يرتجفون، فزادهم رعبًا، حين أخبرهم أن الذي فوق رؤوسهم هو جبل الطور.. ملايين الأطنان من الصخور لسحقهم، إن لم يطبقوا نظام التوراة، التي يقول الجبار عنها: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

خلع المشهد قلوبهم فسجدوا لله، وأعلنوا خضوعهم لشريعة التوراة، التي بدأ موسى بتطبيقها، وأولها العدل.. أسقط في أيديهم.. أدركوا أن أي تمرد، أو خلق للفوضى، أو مجاهرة بمخالفة النظام، ستقابل بعقوبة عاجلة.. كانت المعجزات رحمة لهم، فأمثالهم يدمرون أنفسهم، لو تُركوا لغرائزهم، ومع ذلك بقيت قلة منهم، عجزت عن مقاومة غرائزها، لم ينته زمن المطالب، لكن بدأ زمن آخر للتحايل والالتفاف على النظام:

ذات يوم أنزل الله عليهم تحريم أكل الشحوم، فإذ بهم يقومون بإذابتها، ثم يبيعونها ويأكلون ثمنها.

أنزل الله عليهم تحريم صيد السمك يوم السبت، فتحايلوا.. صاروا يرمون شباكهم في عرض البحر يوم الجمعة، ثم يعودون لأخذها يوم الأحد، وقد امتلأت بالأسماك. ظلت هذه القلة المتحايلة تتمادى، فزجرهم موسى، وحذرهم من عواقب التحايل، لكنهم تمادوا مما أثار غضب الإسرائيليين المحتسبين، فوعظوهم، وذكروهم بنعم الله، التي لا تعد ولا تحصى، لكن المادة طغت عليهم، فلم ييأس المصلحون من الاحتساب، مما جعل بعض المؤمنين يلومون الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر لتكرار نصيحة أناس ميؤوس منهم، قائلين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فذكر المحتسبون سببين: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

السبب الأول: أداء واجب النصيحة، والآخر عدم اليأس في حياة المصلح.

وفي أحد أيام الجمعة ذهب المتحايلون للساحل، يحملون شباكهم. وضعوها في مراكبهم، وركبوها وجدفوا، ولما أصبحوا في عرض البحر، توقفوا، ونشروها، ثم رموها، لكنهم لم يعودوا إلى الساحل، ولا إلى بيوتهم هذه المرة.. استبطأتهم عائلاتهم.. خرجوا يبحثون عنهم.. مشطوا الساحل فلم يجدوا لهم أثرًا، لكنهم وجدوا مخلوقات غريبة على الساحل.

ساحل القردة

لم يعد أحد من الصيادين المحتالين يوم الجمعة.. استبطأتهم أسرهم، فخرجوا يسألون عنهم.. لم يجدوا جوابًا، فلا أحد رآهم بعد إبحارهم.. بحثوا.. مشطوا القرية، فلم يجدوا شيئًا، لكنهم وجدوا بين الساحل والقرية مخلوقات غريبة.. قردة لها صراخ.. تنظر بحزن وخوف إلى المحدقين الخائفين منها.. الكل خائف إلا موسى صلى الله عليه وسلم، الذي أقبل، وكأنه يقول لهم: لا تبحثوا بعد اليوم عن الصيادين المحتالين، فهم لم يغرقوا، ولم يموتوا، ولم يسافروا.. ها هم أمامكم.. هؤلاء القردة هم أخوانكم، الذين نصحتموهم بتطبيق أحكام التوراة، فلم يستنصحوا، ونهيتموهم عن الفساد فلم يأبهوا، وخوفتموهم بالله فلم يخافوا، وخالقهم سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

شكر المؤمنون ربهم على نعمة الهداية، والنجاة من هذا المصير، أما تلك القردة فظلت تتقافز، وتصرخ حزينة هنا وهناك.. لا أحد يعرف من هو أخوه، أو ابن عمه منها، ولا أحد يريدها في بيته، رغم المرارة التي تشعر بها عائلاتهم وأقاربهم.. ظلت القردة تائهة على الساحل، وفوق صخور الجبال حتى ماتت، وانقطع نسلها، فالله «لم يجعل لمسخ نسلًا ولا عقبًا»[38].

ثم ماذا يا بني إسرائيل؟

كل هذا العناد والتمرد والتحايل، ثم ماذا؟ آية أو معجزة واحدة، مما جاء بها موسى تكفي العاقل، لكن معجزات الأنبياء كلها لن تحرك شعرة في رأس حسود أو حقود أو شخص يعبد هواه.

ظل النبي العظيم موسى ينشر التوحيد، ويحكم بالعدل، لكن معظم شعبه ظلوا كالأطفال.. يبحثون عن الخارق والمدهش، وليس لديهم أي توجه لمساعدته في مهمته، ففي أحد الأيام وجد بعضهم جثة قتيل.. أخبر أهله فجاءوا وتعرفوا عليه، وشاع الخبر في القرية، لكن أحدًا لم يستطع الوصول إلى القاتل.. بدأت الظنون تلقي الاتهامات هنا وهناك، بعيدًا عن القاتل الحقيقي الذي يبدو أنه أصبح في مأمن.. بدأت مطالبة أهل الضحية بتطبيق القصاص دون دليل، ولما عجزوا انطلقوا نحو موسى، واندس معهم القاتل.. يطالبون بإخبارهم عن هوية القاتل، فظنوا أن حياتهم مرهونة بالمعجزات.

سكت موسى حتى جاءه الوحي، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾، نظروا إليه باستخفاف، ثم قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أدركوا أنه جاد، وأن ذبحهم لأي بقرة كاف، لكن يبدو أن القتلة بدؤوا بالتشويش والمناكفة.

شددوا، فشدد الله عليهم

طلب موسى صلى الله عليه وسلم من أهل القتيل ذبح بقرة.. أي بقرة. لم يحدد لونًا أو صفة.. هنا يبدو تدخل القتلة للتشويش.. أظهروا حرصهم على الظفر بالقاتل، فهتفوا بموسى، و﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

هيا ابحثوا عن أي بقرة في منتصف العمر، لا فارض هرمة، ولا بكر صغيرة.. إنها صفة يسهل الحصول عليها، لكن القتلة لا يريدون ذلك.. لا يريدون حتى الحصول على البقرة، لذا ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾.

بدأت الدائرة تضيق، فالبقرة الصفراء النقية اللون، يصعب الحصول عليها، ومع ذلك شوشوا، فقالوا لموسى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾.

اطمأن القتلة أنهم لن يحصلوا على بقرة بتلك المواصفات.. خاصة الصفة الأخيرة. بقرة لم يذللها العمل أو يطوعها، ولم تستخدم يومًا في حرث الأرض، أو السقاية بالسواني، ولا يوجد في لونها الأصفر أي بياض أو سواد، وكأنهم يريدون أن تنزل عليهم بقرة من السماء.

انطلق الأهل.. يسألون.. يبحثون في الحظائر، والمزارع داخل القرية وخارجها، حتى أضناهم البحث، وفجأة عثروا عليها، فاشتروها بأي ثمن، ولما دفعوا ذلك الثمن، أخذوها نحو موسى، حتى أوقفوها أمامه، و﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾، هنا تضعضع القاتل وارتج، وهو ينظر إلى موسى، والله يقول له: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

مد أحدهم يده بالسكين، واحتز من لحمها قطعة، ثم ضرب بها الجثة، فإذ بالمعجزة الربانية.. القتيل يتكلم.. يفصح عن هوية قاتله.. لوى الحاضرون رؤوسهم، وحدقت عيونهم بشخص منغرز بينهم.. كان يناكف نبي الله، ويحاول تعجيزه حتى لا تظهر الحقيقة.. تبين أنه من القبيلة نفسها، ربما طمعًا بإرث.. ربما حقدًا.. ربما خصومة.. المهم أنه قد تم القبض عليه، ونال جزاءه بعد أن فضحه الوحي، الذي يقول: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

مرت أشهر وسنوات، وكثرت معها مناكفات شعب موسى، لدرجة أنهم بدؤوا يتذمرون من المن والسلوى، والعسل ورغد العيش، فكانت عاقبة تذمرهم كارثية.

يعشقون أرض البصل، ويرفضون الأرض المقدسة

توجه الإسرائيليون لقائدهم موسى صلى الله عليه وسلم معلنين تذمرهم من أطعمة متوافرة ولذيذة، وقالوا له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا

وَبَصَلِهَا ﴾، وإذ به يتعجب من تذمرهم من كل شيء.. حتى من رغد العيش، قائلًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾، ويبدو أنهم كانوا يريدون أطعمة لا يتعبون في زراعتها، وجنيها.. هنا بلغ موسى من الحلم والحدب على شعبه مستوى غير مسبوق، لذا دعا ربه، فاستجاب له، وطلب منهم التوجه إلى أي بلد في سينا قائلًا: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، ادخلوا أي بلد، ولا يقصد مصر التي هربوا منها.

جمع الشعب المشاكس أمتعته، ووضعها على الرواحل، ثم انطلقوا بمحاذاة ساحل الذكريات، متوجهين إلى أي بلد، تتوافر فيها تلك الأشياء، لكنهم دخلوها كغرباء طفيليين، أذلة صاغرين بين سكانها الأصليين، حتى قال الله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾، بعد أن كانوا أعزة يعيشون بين المعجزات ورغد العيش، ويتمتعون باثنتي عشرة عينًا، تتفجر ماءً زلالًا، وبعد سنوات من الشعور بالذلة والغربة والمسكنة، طلب منهم موسى الاستعداد لمغادرة هذا المصر، فإذ بهم يوافقون.

تأهب الإسرائيليون، وحملوا أمتعتهم وانطلقوا، وبعد يوم أو يومين من المسير، وفي إحدى محطات استراحاتهم، قام موسى صلى الله عليه وسلم فخطب فيهم خطبة بالغة الخطورة.. معلنًا عن موعد الرحلة الكبرى والمحطة الأخيرة، لكن قبل أن يحددها بدأ بتذكيرهم بنعم الله عليهم، وتفضيلهم على غيرهم، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾، ثم كشف تلك الوجهة، فإذا هي مهوى الفؤاد.. الأرض التي عليها ثاني مسجد بناه جدهم إبراهيم صلى الله عليه وسلم بعد بنائه للمسجد الحرام بمكة، فقال: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾.

نظر المناكفون إلى بعضهم، وكأنهم يقولون: ما هذا؟! أينقذنا من خناجر فرعون، ليرمينا بين سيوف الكنعانيين؟ تشاوروا، ثم صاحت تلك الأغلبية دون حياء: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾، كانوا يريدون حياة سهلة.. ثمارًا يقطفونها، ويزاحمون شعوبها. لكن يبدو أن عصر المعجزات قد ولى.

انتهى عصر المعجزات يا بني إسرائيل.

بعد كل تلك المعجزات والبراهين.. ما زال الإسرائيليون يريدون أن يعيشوا بقية حياتهم بالمعجزات.. بحر ينشق، وصخور تتفجر ماء، وها هم يريدون من الوثنيين أن يخلوا أراضيهم لهم بكل بساطة! لم يتحدث موسى عن قتال.. تكلم عن دخول.

هنا تقدم رجلان من الأقلية المؤمنة الثابتة، حتى أصبحا أمام الجموع المناكفة الرافضة، فقالا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

هذا هو الفرق بين من يستحضر عظمة الله وقدرته، فإذا كل القوى تتلاشى من قلبه، وبين قوم يخشون الناس كخشية الله أو أشد.. هذا هو الفارق بين من عبروا البحر بقلوبهم وعقولهم، وبين من عبروه بأقدامهم فقط. كلمات عظيمة تكشف مدى التوكل على الجبار سبحانه.. كلمات لم تجد سوى قلوب قاسية وصفها الله، فقال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾.

كرر الجبناء رفضهم، وصاحوا بوقاحة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾، لن ندخلها أبدًا؟ إذا فالديار المقدسة لا تهمهم.

صدم موسى من هذا الجحود.. شعر بخذلان شعبه له، فتولى عنهم حزينًا، وتوجه نحو ربه معتذرًا إليه، ومتبرئًا من الخونة، وهو يقول: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، وإذ بغضب الجبار سبحانه يحل على ذلك الجيل.

ليس بعد اليوم من معجزات، ولا حتى تهديد بالفناء.. هي حياتكم فعيشوها بواقعية.. منذ اليوم لستم أفضل أهل الأرض، ولن تحظوا بالتأييد، إلا إن بذلتم من أجله وناضلتم.. أمامكم تيه طويل، وشقاء ومعاناة، مدتها أربعون عامًا، ولن يغير الله ما بكم، حتى تغيروا ما بأنفسكم.

أما موسى فظل معهم يعاني منهم ومعهم، فمهمة الأنبياء ليست سهلة.. واصل قيادتهم وظل يعلمهم، وبينما هو معهم ذات يوم، سأله أحد تلاميذه، فقال: (أي الناس أعلم؟)

استعجل موسى الإجابة فقال: (أنا أعلم) لم يقل: أنا أعلم إن شاء الله. لم يقل: الله أعلم، فعاتبه ربه سبحانه، لأنه لم يرد العلم إليه. ثم أوحى إليه: (أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك)، خفق قلب موسى شوقًا لرؤية رجل ليس بنبي، لكنه أعلم من كليم الله، فقال: (يا رب، وكيف به؟ فقيل له: احمل حوتًا في مكتل، فإذا فقدته فهو ثم)[39] ستراه هناك.. في المكان الذي تفقد فيه سمكتك.

ليس بنبي، لكنه أعلم من نبي

أخذ النبي موسى صلى الله عليه وسلم زبيلًا متوسطًا، يسمى (المكتل)، ونادى تلميذًا مخلصًا، من أفضل تلاميذه، اسمه (يوشع بن نون)، وطلب منه مرافقته.. انطلق الاثنان نحو البحر، فاصطادا عليهما السلام سمكة، ووضعاها في الزبيل، ثم سارا بمحاذاة ساحل خليج السويس جنوبًا.. ظلا يسيران ويتوقفان، حتى أدركهما التعب في ملتقى الخليجين السويس والعقبة مع البحر الأحمر، فلجأا إلى صخرة على الشاطىء، فرقدا تحت ظلها، وفي أثناء رقادهما حدثت المعجزة الربانية.. اضطربت السمكة، وتقلبت داخل المكتل، حتى غادرته. أفاق النبي وتلميذه عليهما السلام، ثم واصلا سيرهما.

ظلا يسيران حتى قرصهما الجوع فتوقفا، ثم التفت موسى ليوشع، وطلب منه شي السمكة. توجه يوشع نحو المكتل، وأدخل يده فلم يجد شيئًا.. اتسعت عيناه من الدهشة، فالسمكة ليست في داخله، فقال لنفسه: لا بد أني نسيتها هناك عند الصخرة. عاد لموسى، وقال له: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

شعر موسى بالارتياح رغم الجوع، وقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، طلب من تلميذه النهوض، ثم عادا من حيث أتيا.. يتتبعان آثار خطواتهما، وبعد مسافة لاحت لهما الصخرة، فلما لاحت، إذ بالمفاجأة تنتظرهما.. لم يجدا حوتًا.. وجدا شخصًا مغطى بثوب من رأسه إلى قدميه.

وقف موسى باحترام، يتأمل هذا النائم المسجى.. يتأمل رجلًا آتاه الله علمًا ليس عنده. لم يقل الله لموسى: اذهب إلى البلد الفلاني، واسأل عن قصره، فستجده هناك، أو اذهب إلى القرية الفلانية، فهو أشهر من نار على علم، وستجد تلاميذه جيوشًا حوله.. وجده وحيدًا على الساحل، ليس معه إلا الله.. لا جاه ولا منصب ولا شهرة، ولا حاشية ولا مريدين.

وليٌّ حباه الله بشيء ليس عند موسى، رغم أنه ليس أفضل من موسى، ولا من بقية الأنبياء.. ولي يعيش مع الله.. يأنس بذكره سبحانه، ويسعد بمناجاته، ويتلذذ بالخلوة معه.. أهذا هو الخضر، الذي عاتب الله من أجله موسى، وأمره بالتتلمذ على يديه؟ يفترش رمال الشاطىء، ويلتحف قطعة قماش.

وقف كليم الله متعجبًا.. معه العصا التي ابتلعت كيد السحرة، وشقت البحر، وفجرت الأنهار بإذن الله.. يتساءل أي علم سيجده عند هذا الفقير، الذي لم يجد بجانبه راحلة تقله، أو حتى قاربًا يبحر به.

أول الدروس صدمة

وقف كليم الله موسى صلى الله عليه وسلم معه العصا، التي ابتلعت كيد السحرة، وشقت البحر، وأغرقت فرعون وجنوده، وفجرت الأنهار.. وقف على رمال الشاطىء، يتساءل: أي علم سيجده عند هذا الفقير؟ الذي لم يجد بجانبه راحلة تقله، أو قاربًا يبحر به.

وقف أمام الخضر المسجى على الساحل، وقال له: السلام عليكم.

كشف الخضر الثوب عن وجهه، وقال: وأنى بأرضك السلام؟ استغرب موسى من هذه الإجابة، التي تتكلم بأكثر من أحرفها، فقال: أنا موسى.

رفع الخضر رأسه، وحدق به مستغربًا، وسأله: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. (قال الخضر: أو ما كان لك في بني إسرائيل شغل؟ قال: بلى، ولكني أمرت أن آتيك وأصحبك)، فقال متعجبًا من طموح

موسى: «وما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟» قال كليم الله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾؟

هنا.. حذره الخضر من علم لا يطيقه.. علم لو أصبح لدى البشر، لأفنى بعضهم بعضًا، ولكره بعضهم بعضًا، ولأصبحت الحياة لا تطاق.. حذره الخضر، قائلًا: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، «يا موسى، إني على علم من علم الله، علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم، علمكه لا أعلمه»[40]، أصر موسى على التتلمذ، وقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾، وافق الخضر، ولكن بشرط هو أن لا يطلب منه تفسير أفعاله، حتى يفسرها هو له. قائلًا: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

وافق موسى، دون تردد فرفع الخضر قطعة القماش المتواضعة التي كان يتغطى بها وطواها، ثم نهض، وانطلق بصاحبيه موسى ويوشع بن نون عليه السلام يتهادون على ساحل البحر.. بدأ موسى رحلة طلب العلم ظنًّا أنه لن يرتوي منه، وإذ بسفينة صيد تبحر بمحاذاتهم. هتف الخضر بأصحابها، فتوقفوا مستفسرين، فسألهم أن يحملوهم. فوافقوا دون مقابل.

خاض الخضر وصاحباه مياه الشاطىء، حتى وصلوا السفينة، وسلموا على أصحابها، وصعدوا وأخذوا مقاعدهم.. ابحروا وموسى صامت بين جمال زرقة السماء والماء، وفي أثناء ذلك رفرف فوقهم طائر، ثم هبط على حرف السفينة، ثم نقر البحر بمنقاره نقرة، ثم رف ثانية في السماء.. كان الخضر يتأمل موسى الذي ينظر للطير، فقال: «يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر».

ازداد شغف موسى لنقرة العلم، لكن الخضر صدمه، حين نهض واتجه إلى قدوم أو فأس في ناحية من السفينة فأخذه، ثم توجه لجدار من جدران السفينة فهوى به عليه حتى اقتلع لوحًا من ألواحه.

صدمة الدرس الثاني والثالث أكبر

صُدم موسى صلى الله عليه وسلم من سلوك الخضر..كيف يعتدى على ملك غيره؟! لم يستطع الصبر على اقتلاع الخضر للوحة علوية من ألواح جدار سفينة الصيادين الكرماء.. عاتبه مباشرة، قائلًا: «قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟»[41].

نظر الخضر إلى موسى بهدوء، وقال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾؟ اعتذر موسى، وقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾.

واصلت السفينة إبحارها، حتى وصلت إلى ميناء قرية ساحلية، فتوقفت ونزل الخضر، وتبعه موسى ويوشع عليه السلام، وتهادوا نحو القرية، وفي أثناء سيرهم شاهدوا أطفالًا يلعبون.. كانت براءتهم وضحكاتهم تزين المكان وتبهجه، لكن الخضر قتل البهجة في نفس موسى، حين تقدم نحو أحد الأطفال، فأخذه من بينهم، وسار به وسط دهشة الجميع، ثم قتله أمام عيني موسى، الذي فقد أعصابه، وكأنه يعيد مشاهد معاناة أطفال شعبه المريرة، حين كان الفراعنة الوثنيون ينحرونهم، فهتف بالخضر مستنكرًا: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾.

نظر إليه الخضر بثقة متناهية، وأعاد تذكيره بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾؟ شعر موسى بالخطأ في تسرعه، فطلب منحه فرصة أخيرة، قائلًا: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾.

وافق الخضر، ثم واصل الثلاثة المشي عبر طرقات القرية وبين بيوتها، ثلاثة هم من أفضل من يمشي على وجه الأرض، ومع ذلك ليس معهم ما يشترون به وجبة لهم.

بحثوا عمن يستضيفهم فلم يجدوا وسط قرية البخلاء هذه.. قرية ﴿اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾، لم يغضب الخضر.. على العكس من ذلك.. مر بأحد طرقاتها، فالتفت فرأى جدارًا متهالكًا آيلًا للسقوط ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾، بيده وأعاد له استقامته، أو أعاد بناء المائل منه، بينما كان موسى يتأمل متعجبًا.. حتى هذا العمل الجميل، لم يطق موسى صبرًا عليه، ربما لأن هذه القرية لا تستحق، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾.

هنا توقف الخضر، ليخبر موسى بانتهاء العقد المبرم بينهما، فقد خرق موسى بند الاتفاق ثلاث مرات، وهي كافية لعدم جدوى المواصلة.. نظر الخضر إلى موسى، وقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾، لكنه لن يفارقه حتى يخبره بسبب تصرفاته الغريبة تلك، التي لم يستطع موسى الصبر عليها. بدأ الخضر أولًا بتفسير ما فعله في السفينة.

لم لا يطاق علم الخضر؟

بدأ الخضر عليه السلام أولًا بتفسير ما فعله في السفينة، قائلًا لموسى صلى الله عليه وسلم: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾، فهو ملك متسلط، يسطو على كل جميل في بلدته، فأراد الخضر تشويه السفينة، دون الإضرار بها، حتى يزهد بها جواسيس الملك.. كان فعله رحمة بهؤلاء المساكين، فهي مصدر رزقهم.

وأما قتل الغلام فلا عجب أن تثير احتجاجات الملاحدة، فقد احتج موسى صلى الله عليه وسلم قبلهم، مع أن إجابة الخضر كافية، فقد أخبر موسى أن هذا الطفل مشروع طاغية، قائلًا: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾، هذه الإجابة أقنعت موسى مباشرة.. إجابة تكشف عن العلم الذي لا طاقة للبشر به، فلو علموا به لسالت دماء أطفال العالم، وهل سيترك الإسرائيليون فرعون لو رأوه وهو طفل، وعلموا أنه سيذبح الرضع من أطفالهم؟

هل سيترك ضحايا العالم طواغيت أمثال هولاكو ولينين وستالين وهتلر وبشار لو وجدوهم أطفالًا؟ بل هل سيسعد البشر لو علم كل فرد منهم بتاريخ وفاته ووفاة أحبابه؟

لكن هذا العلم المؤلم، والذي لا يطاق، لا يخلو من جميل، مثل قصة الخضر مع الجدار، فقد قال الخضر عليه السلام: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ باليتيمين اللذين كانا سيفقدان مالهما، لو انهدم الجدار، وانكشف الكنز فسيتم نهبه. وأخيرًا كشف الخضر لموسى مصدر علمه، فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

هو علم لا يطاق، وقد أُبتلي الخضر به.. ابتلي برؤية مستقبل أسود، ومشاريع مجرمين.. هموم لو حملها البشر لأصيبوا بالاكتئاب، ولما توقفت أنهار الدماء في العالم يومًا واحدًا.

هنا افترق موسى والخضر عليهما السلام، وليتهما لم يفترقا بهذه السرعة.. أمنية باح بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقال: «يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما»[42].

افترق النبي عن الولي، فكم هي المسافة بينهما؟

المساحة بين الولي والنبي

النبي وحي لإنقاذ البشر، يحييهم به الله، ويسعدهم.. ينشر التوحيد والعدل.. النبي قدوة.. منارة.. ضوء في قلب الظُّلمة.. دونه يتيه البشر، ويضيعون.. دونه تجتاح العالم الوثنية والظلم والفساد.. النبي معاناة ومكابدة، وتضحيات وعذابات.. قد يموت مقتولًا أو مسجونًا أو طريدًا، وقد يموت حاكمًا.. النبي تجسيد للخلافة والنظام على الأرض.

أما الولي فإلهام وكرامات تنهال عليه وحده، وتهمه وحده.. تؤنس وحشته بعد أن جعل الله أنيسه.. يجد سعادته بذكر ربه بعيدًا عن البشر.. بعيدًا عن الحشود والمريدين والاتباع والمداحين في الحل والسفر.. الولي حالة انشغال بالله عن الخلق.. حب لله يجرف القلب، فينسى ما حوله ومن حوله، وروحانية تنفر من الشهرة والجاه والحاشية والمنصب.. باطنه أنقى من ظاهره، وقد لا يكون له قدر بين الخلق.. قد لا يفتقد إذا غاب، ولا يؤبه له إن حضر، لكنه لو أقسم على الله لأبره، والله يقول: «ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[43]، لكنه لا يقدم في حياة البشر أو يؤخر.

أما من من يتوسلون بضريحه أو يتاجرون ويسترزقون بكراماته.. هؤلاء يتجاهلون أنها من عند الله سبحانه.. يتناسون الحي القيوم، ويتمسحون بضريح ميت مرهون بعمله، لا يملك من أمره شيئًا، فضل النبي على الولي واضح، لأنه لا يخرج عما جاء به النبي، ولا يوحى إليه بشرع.

افترق الخضر الولي عن موسى النبي عليهما السلام، وعاد كليم الله لشعبه المشاكسين، الذين ظلوا محصورين في سيناء أعوامًا، لذا اضطروا إلى التعامل مع أهل المناطق المتاخمة لهم، ومع الأيام والأشهر والسنوات صار بعضهم ثريًّا، وكان من بينهم تاجر إسرائيلي، بلغ ثراء فاحشًا، لم يصل إليه أحد قبله، يقال له قارون.. تضاعفت ثروته بشكل هائل، حتى آتاه الله ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، أي أن مفاتيح صناديق وأبواب مخازنه، يصعب على الرجال الأقوياء حملها، فكيف بثروته، لكنه أصيب بالجشع.

لم يكتف بعدم شكر الله على ما وهبه من ثروة.. صار يفتل الحيل للسطو على أموال الفقراء الإسرائيليين.. وإذلالهم.. تحول إلى حوت، يلتهم ضعفاءهم، حتى ضجوا منه، ووصف الله فساده، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وما من عقوبة أسرع من عقوبة البغي[44].

قارون رجل أعمال برتبة مجرم

تحول التاجر الإسرائيلي الهائل الثروة (قارون) إلى حوت، يلتهم الفقراء الإسرائيليين، حتى ضجوا منه، ووصف الله فساده، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وليس هناك أسرع

عقوبة عند الله من البغي.. خاصة البغي على الأقارب.. قد يمهل الله الكافر والمشرك حتى البعث، بل قد ينصره إن كان عادلًا، أما البغي فليس هناك أسرع من عقوبته.. سواء جاء من مسلم أو كافر.

ظل قارون في بغيه واستغلاله للضعفاء، حتى انقسم بنو إسرائيل حوله إلى ثلاثة أقسام:

قسم يتمنى أن يكون مثله، مهما كانت وسائل ربحه وحيله.

وقسم يئن من استغلاله وثقل فوائد ديونه، ويضج من رباه.

وقسم ثالث محتسب طيب ناصح.. يخشى عليه من عقوبة، قد تحل به، لذا توجه هؤلاء يومًا لنصحه، وقالوا: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾، لكن قارون كأي ثري مغرور.. يرى أن هؤلاء مجرد حفنة من الجهلة بالاقتصاد، يقتلهم الحسد، لأنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه، ولذا رد عليهم ردًّا طافحًا بالغطرسة والكبر، وكأنه لا فضل لله عليه، قائلًا: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾.

تفرق الناصحون عن قارون بعد أن يئسوا منه تجاهله لنصائحهم، فالتف حوله الوصوليون والمنتفعون والمتسولون، وذات يوم خرج من قصره كالطاووس.. يتبختر في الأسواق، مرتديًا الحرير والحلل.. لا يكاد يرى على الأرض سوى نفسه.. وسط تأوهات المتذمرين من أوضاعهم المادية، وهم يقولون: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾، لا يهمهم كيف جمع ثروته من حلال أم من حرام، ولا كيف يوظفها.. فنصحهم العقلاء، فقالوا لهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾.

لكن هؤلاء المعجبين تجاهلوا نصيحة الناصحين، وظلت أعينهم تتابع الطاووس.. لم يعلموا أن جولته الاستعراضية كانت الجولة الأخيرة. عاد قارون لقصره، وقد امتلأ رأسه بالمديح والتبجيل، والهتاف والتسول، الذي أسكره عن مالك الملك، وواهب الأغنياء، الذي وهبه تلك الثروة، فلما دخل قصره.. سمع الناس دويًّا في الحي الذي يسكنه، هز المدينة. انفتحت الأبواب، وخرج الناس مذعورين.. انطلقت آلاف الخطوات نحو مصدر الصوت، فإذ بها تلتقي حول هاوية مروعة خلعت القلوب.

حين ارتجت المدينة

انفتحت أبواب المدينة على إثر دوي ورجفة هائلة هزت القلوب والمدينة.. خرج الناس من بيوتهم في حالة ذعر يتلفتون ويتساءلون.. انطلقت آلاف الخطوات، ثم توقفت أمام مصدر الصوت.. توقفت حول حافة فوهة مرعبة، ابتلعت قارون وقصره وكنوزه، وكل المديح الذي كان يكال له.

تحلق المعجبون والحساد والناصحون والمسحوقون حول تلك الهاوية.. تبحث عيونهم عن قارون.. عن قصر قارون.. عن بقايا من كنوز قارون.. عن أي قطعة ثمينة أو حجر كريم تركه خلفه.

لا أثر لشيء.. تحول المكان إلى قبر للبغي والظلم والغطرسة.. قبر بلا غطاء، ولو غطاء من مديح أو حزن أو رثاء.. انتهى قارون بالنسبة لهم.. نفض المعجبون والمتسولون والمداحون أيديهم منه ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، أصبح ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾، يحدقون بتلاشي بغيه وظلمه أمام قوة الله وبطشه، ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

تحول قارون إلى درس قاس لرجال الأعمال، الذين يغريهم جشعهم بالتحديق في أرغفة الفقراء، ودخلهم المتواضع، وما كان ليكون درسًا لو أدرك أن الله هو من منحه العقل والقدرة على جمع تلك الثروة، وما كان ليجمعها لو أن ربه خلقه متخلفًا أو أبكم أصم.

انتهى قارون، وبقي موسى صلى الله عليه وسلم يعاني من أمثاله حتى شاخ.. ضعف كليم الله شيئًا فشيئًا، ثم مات بعد أن أمر بوضع الألواح، وما نزل من التوراة في تابوت.. مات في سيناء، أرض الوادي المقدس والنار والنور والتيه والمعجزات، بعيدًا عن مسقط رأسه.. محرومًا من مهوى فؤاده بيت المقدس، بسبب خذلان الإسرائيليين له، فخلفه أخوه هارون صلى الله عليه وسلم الذي ما لبث أن مات أيضًا، فبكى الإسرائيليون نبييهما العظيمين.

بكوا تضحياتهما وبذلهما، فتولى القيادة يوشع بن نون، الذي استلم تابوت التوراة، ثم مات يوشع، وخلفه أنبياء تعرض بعضهم لحروب، تسببت في تشردهم، وضياع التابوت، وضياع التوراة معه، إلا ما علق ببعض الذاكرة العشوائية، مع العلم أنه لم يوجد من التوراة إلا تلك النسخة الضائعة، التي لم تكن متاحة إلا لشخص أو شخصين، ثم جاء جيل شعر بالندم على ممارسات سلفهم الاتكالي، الذي استمرأ الخنوع.. سلف يريد أن تقوم المعجزات على خدمته، فهل ينجح الجيل الإسرائيلي الجديد في تعويض ما فات.

جيل رباه موسى وهارون

مات هارون بعد موسى عليهما السلام، وبدأ الجيل الذي خرج معهما من مصر بالأفول والانقراض.. كان جيلًا اتكاليًّا عنيدًا مناكفًا.. جيل استمرأ الخنوع والقمع.. جيل يريد أن تقوم المعجزات على خدمته، وأن تكون الكرامات رهن إشارته، حتى وهو يمارس الموبقات، فسلط الله عليهم من يشردهم ثانية داخل سيناء حتى انتهوا، ثم ظهر هذا الجيل الإسرائيلي الجديد، الذي شعر بالحسرة على ضياع التابوت الخشبي، الذي وضع فيه موسى لوحي التوراة، وأوراق الشريعة التي دونت فيها الأحكام.. جيل شعر بالخزي من خذلان آبائهم لموسى في دخول الأرض المقدسة، لذا ظل

دخولها هاجسهم، فتشاور بعضهم، ثم توجهوا نحو آخر نبي لهم، وكلهم تصميم على دخول الأرض المقدسة، قائلين: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

تأمل ذلك النبي حماسهم، فنبههم إلى أن القتال ليس سياحة، ولا حماسًا وبطولات خيالية في قصص تروى.. هو تضحيات وصبر، لذا أراد التأكد من عزمهم، فقال لهم: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾.

فأجابوه مباشرة، ودون تردد، و﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾، وإذ بالوحي ينزل على نبيهم، ليحدد لهم اسم ملكهم، ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا﴾، وما إن سمعوا باسم الملك الجديد، حتى لاحت المناكفات والاحتجاجات.

كانت نظرتهم للأمور قاصرة.. محصورة في الوجاهة والثروة، لا في القدرات القيادية، لذا قالوا لنبيهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾، فحسم الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾، ثم ذكر دليله على أن طالوت مختار من عند الله، وهو أن الملائكة ستقوم بإعادة التابوت الضائع، قائلًا: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

حدثت المعجزة، ورأى بنو إسرائيل التابوت بين يدي طالوت، فلم يجدوا مفرًّا من التسليم له، ومبايعته ملكًا. ومباشرة أصدر أمره بالتأهب لدخول الأرض المقدسة.. عندها بدأ أغلبهم بالمماطلة والتلكؤ، فسار بالبقية، لكن طالوت لم يطمئن لهذه البقية.. أراد التأكد، لذا قام بإجراء اختبار قاس، لمدى صمود هذه البقية الإسرائيلية، فإذ به يصدم بالنتيجة.

داود البطل

سار طالوت بجيشه، ولم تكن الجيوش آنذاك بالأعداد المبالغ بها في الكتاب المقدس أو كتب التاريخ، فسكان تلك المنطقة ليسوا بهذه الكثرة.. سار طالوت لمواجهة جيش أكبر منه وأقوى، يقوده فارس وثني متمرس، ومبارز شرس اسمه (جالوت)، وفي الطريق مر الجيش المؤمن بنهر، فإذ بالوحي ينزل على النبي، يأمره باختبار جيشه.

توقف طالوت، وتوقف جيشه أمام النهر، ثم استدار نحوهم، وهتف بهم طالبًا منهم عدم الشرب من النهر، أكثر من ملء الكفين، قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ﴾، لم يأبه الإسرائيليون بهذا الاختبار. نزل الجيش حول النهر، وتسابق الجند نحوه يغتسلون، ويملؤون القرب والمزادات، ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

كان طالوت ينظر إلى المشهد على حافة النهر بحسرة.. نظر للمؤمنين الصامدين معه، فإذ بهم لا يتجاوزون (بضعة عشر وثلاث مئة)، والتفت إلى تلك الكثرة.. حدق بهذا الغثاء، فطلب منهم البقاء في أماكنهم أو العودة، فلا خير في جيش لا ينفذ الأوامر، ولا نفع في جيش لا يعرف الصبر، ثم طلب من القلة الباسلة أن تعبر النهر معه.

تحركت الجنود خلفه، وبقي المخذولون يحرسون قربهم.. ساروا حتى اقتربوا من جيش جالوت، وإذ ببعضهم يصاب بالصدمة.. إنهم أكثر من ضعف جيش طالوت، فحصل حوار جميل داخل الجيش المؤمن.. حيث قال المصدومون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

شدت تلك الثقة بالله من أزر المصدومين، فعزموا على القتال.. بدؤوا بالدعاء، فلا مفر من الله إلا إليه، وما خرجوا إلا نصرة لدينه، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وفجأة دوى صوت مخيف.

صاح جالوت الشجاع، طالبًا المبارزة، وإذ بفتى مؤمن متواضع يتخلل الصفوف.. فتى جسور، لا يهاب جالوت ولا الموت، اسمه داود.. كان الوثنيون يحدقون بالفتى، وكأنما يحدقون بمتهور باع نفسه.

دنا داود من جالوت، وسل كل منهما سيفه، فإذ بسيف داود يعاجل جالوت، فإذا هو يتلبط على الأرض.

خر القائد الوثني، فانهارت معنويات الوثنيين، وهم يرون فتى يجهز على قائدهم وأشجعهم.. نصر لم يحمل داود نحو الغرور.. حمله إلى شيء أرقى.

داود بين الجبال وأسراب الطيور

انهارت معنويات الجيش الوثني، بعد سقوط قائده جالوت على يد الفتى داود.. تحولوا إلى شظايا.. انقشع غبار المعركة، فإذا هم بين قتيل وأسير، وفلول هاربة.. لم يتبختر داود، كما تبختر قارون.. لم تزده ميادين الفداء إلا تواضعًا.. ظل جنديًّا مخلصًا لملكه طالوت.. يتهادى خلفه نحو بيت المقدس في موكب.. يحمل التابوت الخشبي، الذي يحتوي الألواح وبقايا التوراة، التي ضاع معظمها.

لم يستغل داود منصبه في التسلط، بل سخر قدراته في حماية دينه وشعبه ودياره المقدسة.. ظل فتى عابدًا مخلصا لله.. صوامًا قوامًا، حتى أثنى عليه نبينا عليه السلام فقال: «أحب الصيام إلى الله صيام

داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[45].

أحبه شعبه حتى شيدوا له عروشًا في قلوبهم، وبايعوه ملكًا عليهم بعد رحيل طالوت، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، فبسط حكمه على القدس والديار الفلسطينية حولها، وظل متواضعًا نزيهًا لدرجة أنه كان «يأكل من عمل يده»[46]، فاصطفاه الله نبيًّا، وأنزل عليه الوحي، وأجرى سبحانه على يديه معجزات، لم تكن لأحد من الأنبياء قبله.

كانت معجزات داود تذهل البشر.. تخطف قلوبهم.. تحلق بأرواحهم في عالم غير العالم، فقد أنزل الله عليه كتاب (الزبور)، ووهبه صوتًا تماهت فيه القوة بمنتهى العذوبة والجمال، فكان يتغنى بتلاوة الزبور، و«ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن، يجهر به»[47].

زادت ابتهالات داود روحانية، بعدما أمر الله الجبال والطير أن تردد معه، فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾، إذا شدا عليه السلام بين الأودية والجبال وتغنى.. رددت الجبال معه تسبيحًا لله وتقديسًا، فإذا الكون لوحة تأخذ شغاف القلب وتذهل العقل.. تحلق فيها الطيور فوق داود.. تحوم حوله أسرابًا سارحة وبارحة، مسبحة لله حين شروق الشمس، وحين الغروب.. في أعذب الأوقات، وأكثرها روحانية.

كلمات وأجنحة وأصوات عذبة، تشهد بنبوته.. يقول الله عنها: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، عالم حالم، يأسر المشاعر، فتفيض العيون، وكأن الكون محراب لا حدود له، وكأن السامع والمشاهد يحلقان في معراج نوراني مهيب.

لم تكن معجزة الصوت الساحر، المعجزة الوحيدة لداود.. هناك خارقة أخرى، لا تقل إبهارًا.

داود خائف

لم تكن معجزة الصوت الساحر المعجزة الوحيدة لداود عليه السلام.. هناك خارقة أخرى لا تقل إبهارًا تنثال بين يدي هذا النبي الأواب.. تماهت لديه العذوبة الأخاذة بالقوة الجبارة.

لان له الحديد في معجزة يراها المرء، فيوقن أنه أمام نبي.. كان يمد يديه نحو الحديد الصلب، فيمسكه ويعالجه، فإذا به يلين بين أنامله، كالعجين أو الصلصال، دون عناء أو جهد.. دون قفازات أو لهب أو أفران.. معجزة من معجزات الخالق سبحانه، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون. والذي يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

أمره الله بصنع دروع سابغة، تغطي أطراف جنده وتحميهم، وألهمه صنع المسامير بدقة، تتناسب مع الحلقات، حيث يقول سبحانه: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، ورغم أنه كان حاكمًا وعابدًا وقاضيًا عادلًا، إلا أنه تعرض يومًا لما يتعرض له البشر.

فتنه يومًا من الأيام عارض من عوارض الدنيا، فمال في حكمه إلى عاطفته، فإذ به يفاجأ، وهو في أنقى لحظات اتصاله بالله، وأهدأ أماكن عزلته.. في غرفة تعبده المغلقة، التي تسمى المحراب.. والتي يبدو أنها كانت غير مسقوفة.. يفاجأ في لحظات الخلوة تلك بشخصين يتسوران المحراب، ويتسلقان جدرانه، دون أن يشعر بهم الحرس.

ارتجف قلب داود، وهو يراهما أمامه.. يقطعان عليه خلوته دون إذن أو موعد أو سابق إنذار.. شخصان غريبان ليسا من أهله، ولا من ساكني القصر، بل ولا حتى من أهل مدينة القدس أو مملكته. يقبلان عليه.. يحدقان به، فيقرأان في نظراته ارتباك الخوف ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾، اطمأن نبي الله، وهدأت مشاعره، فعرّف الغريبان بنفسيهما، وقالا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾.

وقبل أن يسألهما داود عن قضيتهما، استرسل أحدهما، وترافع عن نفسه، قائلًا: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾. لم يأخذ الأمر كثير تفكير من الملك العادل، فقال للمترافع: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾، وبعد أن أصدر داود حكمه انتبه.. أدرك أن هذين المتسللين ملكان، بعثهما الله إليه؛ لتنبيهه إلى خطئه.

إنابة داود وتوبته

انتبه داود.. تذكر صلى الله عليه وسلم خطأه، وأدرك أنهما ملكان، بعثهما الله إليه لتنبيهه، حيث يقول الله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾، سجد ندمًا وتوبة وإنابة إلى ربه.. ابتهل إلى الجبار العظيم، الذي منحه ما لم يمنح غيره طالبًا الصفح والغفران، فقال الرحيم الرحمن: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

ليس هناك من لا يخطىء، وارتكاب الخطأ من طبيعة البشر، والنبي صلى الله عليه وسلم يحلف قائلًا: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[48]، ولذا فمهمة الأنبياء تتلخص بأمرين: تصحيح العقائد بالتوحيد، لكن من غير إلزام أو جبر، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فالحساب على العقائد يوم الدين.. يوم البعث والهول والحساب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

أما المهمة الأخرى للأنبياء، فإلزامية لا خيار، ولا استثناءات فيها، وهي إقامة العدل، ولذا ألزم الله داود بتنفيذ هذه المهمة، قائلًا: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾.

ظل داود ينشر العدل، ويحارب الظلم والفساد، حتى قويت دولته.. يعاونه ابنه الأكبر سليمان، الذي قال الله عنه: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾، وأنزل عليه الوحي في حياة والده، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقد مارسا مهمة القضاء جميعًا، بل أحيانًا يترافع الخصوم عند داود ثم عند سليمان.

كانوا يأتون داود أولًا، ثم يترافعون عند سليمان، وكأنها عملية استئناف.

ففي أحد الأيام وفي البرية.. كان هناك امرأتان تتنزهان، وربما ترعيان الغنم، ومعهما طفلان صغيران.. كان الطفلان يلهوان، بينما انشغلت الأمان بأمر ما، وفي لحظات الانشغال تلك اقترب مخلوق مخيف من الطفلين.. دنا فإذا هو ذئب، قد كشر عن أنيابه.. هاجم الذئب أحد الطفلين واجتره بعيدًا.

التفتت المرأتان على الصراخ، فإذ بالفاجعة.. الذئب يجتر الصغير ويمزقه، ويمزق معه قلب الأم، التي صرخت وصرخت، ولكن بعد فوات الأوان.. فقدت الأم المفجوعة صوابها، لدرجة ذهبت معها لداود تدعي فيه أن ابنها لم يمت، وأن المأكول هو طفل تلك المرأة.

أم تفجع مرتين أيام داود

افترس الذئب أحد الطفلين واجتره بعيدًا، فكادت أمه أن تفقد صوابها، بل فقدته، حين توجهت نحو داود صلى الله عليه وسلم تدعي فيه: أن الطفل الذي افترسه الذئب هو ابن صاحبتها. فحكم داود لها، فاستأنفت الأم الحقيقية الحكم عند سليمان صلى الله عليه وسلم.

وقفت المرأتان أمامه، فتأمل تصرفاتهما في أثناء مرافعاتهما، فأصدر حكمًا مفجعًا.. هتف بحاجبه، وأمره بأمر اتسعت له عيونهما، وارتجف له قلباهما، وهو يقول: «ائتوني بالسكين أشقه بينهما».

سكتت المدعية، وانهارت الأخرى.. لا تريد له الموت.. ناشدته الرحمة، وهي تقول: «لا تفعل، يرحمك الله هو ابنها»[49] سكت الجميع، وإذ بسليمان ينطق بحكم مفاجىء.. أمر بتسليم الصغير للمرأة، التي ناشدته ألا يؤذي الصغير، لأن الأم لا يمكن أن تضحي بطفلها، ولو كان سيؤخذ منها.

وفي قضية أخرى حدثت ذات ليلة، حين أهمل أحدهم غنمه، فساحت في الأراضي المجاورة، حتى انتشرت داخل بستان عامر بالثمار.. نفشت الغنم في الزرع، وأكلت الثمار، وعاثت حتى أصبحت

المزرعة حطامًا.

أشرقت الشمس، واستيقظ صاحب المزرعة، فهاله ما جرى لمزرعته فهرع إلى داود يشكو صاحب الغنم، فحكم له حكمًا، جعله يتوجه نحو سليمان، الذي حكم له حكمًا آخر، فلم يعاتب الله داود على اجتهاده، بل جعل للقاضي المجتهد أجرًا وإن أخطأ، ما دام لم يحكم بهواه، أما إذا انحاز إلى طرف على طرف، فيكون القضاء وبالًا على صاحبه، فـ«القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة، رجل قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاض لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة»[50].

كانت مدة حكم ونبوة داود وسليمان حافلة بالعدل والعجائب والخوارق، وبالقوة الهائلة في جسد كل منهما وسلطته، لكن سنة الله ماضية.. كبر داود وشاخ، ثم مات، ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، ورثه في الحكم، وليس في المال، فالأنبياء لايورثون: ميراثهم يوزع صدقة على شعوبهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنا معشر الأنبياء لا نورث»[51] «لا نورث ما تركنا صدقة»[52].

تولى سليمان الحكم بعد وفاة والده، وسار على نهجه في العدل والقوة، واصطفاه الله نبيًّا، وآتاه ملكًا يفوق ملك والده، وحباه بمعجزات، خاطب شعبه عنها يومًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وفي أحد الأيام كان يتفقد خيله المحببة.. يتأملها معجبًا بها، لكن هذا الإعجاب أدخله في عالم من الحزن والندم.

توبة سليمان

سار سليمان صلى الله عليه وسلم على نهج والده في العدل والقوة، وآتاه الله ملكًا يفوق ملك والده، فذات يوم كان مشغولًا، بتفقد خيله﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾، معجبًا بجمالها وأصالتها وحسنها.. قد صفت أمامه.. يتأملها، ويتحدث لمن حوله عنها.. يمسح نواصيها وأعرافها.. ظل كذلك لا تشبع عيناه من تمليها والشغف بها، حتى توارت الشمس بالحجاب، وغابت خلف الأفق.

أفاق سليمان من عالمه، فإذا إحدى الصلوات المكتوبة آنذاك قد فاتته، فحزن حزنًا شديدًا، وأمر بإبعاد الخيل عنه، وهب للصلاة والدعاء والإنابة طويلًا، وبعد أن فرغ التفت لمن حوله، فباح لهم بذنبه، ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾.

كان ذكر الله زاد الأنبياء على كل حال وفي كل حين.. ذكر الله هو غذاء أرواحهم.. ذكر الله هو الشلال، الذي يغسل همومهم ومعاناتهم، ويخفف من ضغط المسؤوليات الثقيلة عليهم.

هدأ غضب سليمان، فطلب من الجند إعادة الخيل، وقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾، ظل يمسح قوائمها الرشيقة وأعناقها.. تلامس أنامله أعرافها الناعمة برفق، وكأنه يعاتبها، ويعاتب حبها.

لم تكن فتنة الخيل الفتنة الوحيدة، التي مرت بسليمان صلى الله عليه وسلم، ولكن لأنه ولد ملكًا ابن ملك.. كان شغفه وحلمه بدولة قوية، تخدم التوحيد لا حدود له.. كان يحلم بسلطة تذل لها قوى الشر، لذا دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، هكذا كان حلم سليمان.. ملكًا لا يدانى في نشر التوحيد والعدل.

لم تكن تلك الدعوة الوحيدة، فقد قام سليمان بإعادة بناء المسجد الأقصى، وبعد أن بناه سأل الله ثلاثة أشياء.. سأل الله:

«حكمًا يصادف حكمه، فأعطاه الله إياه.

وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه.

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه».

ولذا علق النبي محمد صلى الله عليه وسلم على دعوته الثالثة، فقال: فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطاه إياه»[53].

هطلت زخات الهبات الإلهية على سليمان.. لا تدري أصبح ملكًا في السماء أم ملكًا على الأرض، أم ملكًا في البحار؟.. إنها باختصار نفحة من كرم مالك الملك، الذي يقول: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، عطاء بلا حدود، وملك بلا مقاييس، ما زاد سليمان إلا تواضعًا للجبار سبحانه وتعالى.

عجائب مملكة سليمان

ناشد سليمان صلى الله عليه وسلم ربه ملكًا فريدًا.. ملكًا استثنائيًّا في قوته وهيبته، لا ليباهي به، بل لينشر به التوحيد، ويحقق به العدل.. دعا الله، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، وإذ بزخات الهبات الإلهية تهطل على سليمان، ففي السماء ﴿ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وكأن الآية تحدد أبعاد دولة سليمان بالمسافة، التي يقطعها المسافر تلك الأيام في مدة شهر.. كان سليمان يتحكم في الريح، ضمن تلك المساحة.

ليست الريح فقط.. الطير سخرت له أسرابًا وأفرادًا، ومن التسخير أن ألهمه الله القدرة على التواصل معها، وتوجيهها حيث يريد، أما على الأرض فلم يكن لسليمان من الجنود الكثير، نظرًا لقلة الإسرائيليين وتلكئهم، لذا عوضه الله بقوى خارقة.

سخر له الجن.. حتى الكفار ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾، أما مردة الجن فتم تقييدهم، وإرغامهم على الانقياد له، وأعطاهم الله القدرة على الظهور والبناء والتشييد له: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾، بل إن الجبار سبحانه حذرهم من التمرد على نبيه، وتوعدهم، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾، وكما ألان الله الحديد لوالده داود، فقد ألان الله لسليمان النحاس، بل أساله له كي يصنع به ما يشاء، فقال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾.

هذا هو ملك سليمان: عالم من العجائب والمعجزات، يمتد من لجج البحار إلى ذرى السماء.. قوى بسط سليمان من خلالها العدل والنظام ونشر التوحيد. لم يتعرض هذا النبي لما تعرض له بقية الأنبياء من الاضطهاد والتشريد والفقر والمعاناة.. كان مهابًا تجله الممالك المجاورة، وتخطب وده وتتودد إليه، فلا أحد يستطيع الصمود أمامه أو استفزازه، فما زاده ذلك إلا تواضعًا مع الصغير قبل الكبير، ومع الضعيف قبل القوي.

ذات يوم ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، ويتم ترتيبهم، بحيث لا يتقدم أحد، أو يتأخر عن موقعه، الذي وضع فيه، وفي أثناء الترتيبات رصد سليمان لغة لا تنتمي لعالم البشر.. لغة خائفة مرتبكة، تتوجس خشية جيشه المهاب، وما إن رصدها حتى انصدع قلبه خشوعًا وامتنانًا لله سبحانه.

سليمان غاضب

رصد سليمان صلى الله عليه وسلم في أثناء تفقد جيشه لغة خائفة، وحركة مرتبكة.. لغة لا تنتمي لعالم البشر.. صادرة من قرية للنمل قريبة من موقع الجيش.. نملة تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

انصدع قلب سليمان امتنانًا لله، وهو يرى ما حوله من عوالم، خصه الله بتسخيرها من بين جميع الأنبياء، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فالذي منحه هذه النعم قادر على أن يسلبها منه.

تفقد جيش الإنس وجيش الجن، ولما توجه للجانب المخصص للطير، الذي يبدو أنه قد حضر عن كل نوع من الطير طائر يتواصل معه.. رأى مكان الهدهد شاغرًا، فهتف غاضبًا: ﴿مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

لم يجبه أحد، فلا أحد وسط هذه المملكة مشغول بغير وظيفته، أما سليمان فكما هو أواب وشاكر.. هو حازم جدًّا، لأن مملكته تمتد من أعماق البحر إلى ذرى السماء.. مملكة تجمع المتناقضات.. إن لم يكن الحزم والعدل نهجها، تتفلت شظايا، لكن غضبه هدأ حين رأى الهدهد يرفرف نحوه بعد مدة.. يقبل بكل ثقة، ودونما ارتباك أو اعتذار، فقد وقع على مشهد شده وأشغله، وما إن هبط حتى قال مباشرة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، ثم استرسل، فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، ثم بين عقيدتها وعقيدة قومها الوثنية، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

لم يتوقف عند ذلك.. ظل يتكلم مبينًا استهجانه لوثنيتهم، وقائلًا: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

كان الحضور يحدقون بهذا الطير الجميل، وتاج الريش الملون، الذي يزين رأسه دون أن يفهموا شيئًا.. كانت لغة ثنائية بينه وبين سليمان صلى الله عليه وسلم، الذي لم يصدقه ولم يكذبه، بل قرر التحقق من أقواله قائلًا: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، هتف النبي الملك سليمان بخدمه طالبًا

إحضار قلم ورقعة للكتابة. ثم كتب فيها: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾.

بلقيس أحكم من وزرائها

استدعى سليمان صلى الله عليه وسلم كاتبه فأتى، ووضعت المحبرة والرقعة أمامه، فغمس القلم في المحبرة بانتظار ما يملى عليه. نظر سليمان إليه، وبدأ الإملاء: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾، سطر واحد فقط، لكنه يغني عن خطب لأنه من سليمان.

جف الحبر، فطويت الرسالة، ونظر سليمان للهدهد، وقال: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾، ثم وضعت الرسالة بطريقة تُمكن الهدهد من حملها وإلقائها.. رفرف الطير الجميل، أيامًا فوق الأودية والصحاري، بل وفوق الجبال، فقد أعطي القدرة على الارتفاع لمستويات شاهقة.. يتوقف لشربة عند نبع، أو يأوي لغصن فينام، حتى أشرف على معبد الشمس وقصر بلقيس.. يتنقل من بستان إلى فناء، حتى رأى الملكة التي تهادت، وحولها حاشيتها، ثم ارتقت الدرج العريض، نحو عرشها العظيم، المرصع بالأحجار والمعادن الثمينة.

رفرف الهدهد، فألقى الخطاب. فاهتزت الملكة من المشهد، وهي التي تعيش في بيئة لا تخلو من السحر والشعوذة.. مدت يدها نحو الرسالة، وحلت رباطها وفتحتها. ارتجف قلبها من سطر واحد.. من اسم المرسل.. من طريقة إيصاله، ثم هتفت بمستشاريها ووزرائها، وقالت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾.

تصفحت الوجوه المأخوذة والأعين حولها.. كانت امرأة عاقلة، وملكة حكيمة.. لا تنفرد برأيها، ولا تتعصب له.. كانت تقود شعبها عن طريق المشورة، لذا قالت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾، فإذ بردة فعل عنيفة، تصدر منهم.. أبدوا استعدادًا للقتال والحرب، قائلين: ﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾.

ثمنت بلقيس حماس وزرائها، لكن هذه المرأة التي خرجت للتو من غرفة تبرجها، ومن أمام مرآتها وأدوات زينتها وكحلها، كانت أحكم وأكثر اتزانًا من مستشاريها، فهذا الملك الذي استطاع إيصال كتابه بهذه الطريقة، قادر على أن يفعل بمملكتها العجائب، لذا فلن تقامر بحكمها وبشعبها أمام ملك كهذا، حتى مع افتراض أن قوتها مثل قوته، ففي الحرب يخسر الجميع حتى المنتصر، لذا قالت لهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾، حكمة أيدها الجبار سبحانه، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾.

تجاهلت بلقيس خيار الحرب، وقررت القيام بخطوة لجس نبض سليمان، علها تكتشف المزيد عن شخصيته وأهدافه وسر جرأته.

بلقيس في الطريق

قررت بلقيس القيام بخطوة لجس نبض سليمان صلى الله عليه وسلم واكتشاف شخصيته وأهدافه وسر جرأته. فقالت لوزرائها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

أمرت على الفور بإعداد هدية ملكية فاخرة، علها تشتري بها أمن دولتها. أحضرت الهدية لها، فعبرت عن رضاها عنها، فوضعت على راحلة أو رواحل، ثم انطلقت القافلة تحمل الهدية وسط حراسة عبر الجبال والأودية.. انطلقت شمالًا نحو الشام.. عبرت الأرض المقدسة الأولى في الحجاز، وظلت تسير وتتوقف، حتى حطت ببيت المقدس.. سأل قائد القافلة عن مقر الحكم، فدلوه، ولما أصبحوا أمام بواباته، كشفوا عن هوياتهم، وطلبوا مقابلة الملك.

سمح النبي الملك سليمان صلى الله عليه وسلم لهم بالدخول، فتهادى الرجال يحملون هدية فاخرة، ثم وضعوها بين يديه. قاموا بفتحها، وقلوبهم مفعمة بالسرور.. ظنًّا منهم أن سليمان طالب دنيا، وقد يطلب المزيد، وقد يبتزهم.. كل شيء وارد.. كل شيء مقبول.. المهم أن لا يشن حربًا.

حدق صلى الله عليه وسلم بالهدايا.. جالت عيناه بين بريقها، ومهارة صنعها وصياغتها، فإذ به يشتاط غضبًا، ويقول لمبعوث بلقيس: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ارتجف المبعوث، وتحولت نظرات الوفد المسرورة إلى نظرات خوف، وإذ بسليمان يزيدهم رعبًا، ويقول: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

ارتجفت القلوب، واهتزت الأيدي، وهي تغلق الصناديق، ثم تضعها على ظهور الدواب التي أحضرتها، ثم انثنت القافلة عائدة من حيث أتت.. مرت الأسابيع طويلة ومملة على القافلة الحزينة، حتى دخلت أرض سبأ.. توجهت نحو القصر، ولما وصلت طلب المندوب مقابلة سيدته.. كانت الملكة بلقيس تنتظره على أحر من الجمر، فإذ به يرعبها بجواب الملك سليمان وتهديده.

تماسكت الملكة، وظلت على رأيها في عدم المجازفة بمكتسبات دولتها.. فكرت وفكرت، فقررت تجنيب دولتها ويلات الحرب وخرابها، مهما كان الثمن الذي ستدفعه، لذا قررت اكتشاف عالم سليمان بنفسها، وعلى الفور بدأ الموظفون بإعداد الرواحل والمركبات، وحملت الصناديق المليئة بأزياء الملكة وعطورها وأدوات زينتها، وبعد أيام أصبح كل شيء جاهزًا.

الرواحل.. الزاد.. الجند. القافلة، كلها رهن إشارة الملكة، التي عينت من ينوب عنها في إدارة الدولة، ثم انطلقت نحو الشام.. هذا ما كان يحدث في سبأ، أما الأرض المقدسة.. في بيت المقدس فالحركة هناك أشد سرعة ورعبًا.

أسرع الجن وأقواهم

كانت ملكة سبأ في مركبها محفوفة بموكبها في طريقها للشام.. تحف بها قافلة مهيبة، محاطة بالجند المدججين.. سارت بين جبال الجنوب، وتجاوزت جبال الحجاز، وحاذت الساحل مرات.. هذا ما كان يحدث في الطريق، أما في بيت المقدس، فالوضع غاية في الاستنفار، فقد وصل الخبر لسليمان، لذا أراد أن يستقبلها بمشهد، يريها شيئًا من آيات الله المبهرة، التي تكرم بها سبحانه عليه، وسخرها له.

أراد أن يريها قدرة الله، الذي تركت عبادته، واتجهت هي وقومها لعبادة الشمس، التي لا تستطيع تغيير اتجاهها ولا مواعيدها.. لا تستطيع حتى التخفيف من حرارتها، التي تتفجر وتضطرم في جوفها. من أجل ذلك استدعى سليمان أقوى الجن وأسرعهم، وربما استعان بملك من الملائكة معهم، وهم الآن أمامه، ورهن إشارته.

حدق صلى الله عليه وسلم بتلك القوى الخارقة، المصطفة أمامه، والمسخرة له، ثم هتف بهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، هنا نطق عفريت من عفاريت الجن، مبينًا سهولة الأمر، وقائلًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، سكت سليمان بانتظار عرض آخر، فالخيارات أمامه في بداياتها، وهي عديدة، وإذ بشخص قد يكون من الملائكة يحسم الأمر.. شخص تتلخص قدرته في جملة واحدة، هي أن ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وقد عرض استعداده لإحضار عرش بلقيس في فترة زمنية قياسية، وهي أقل من مدة إرسال شخص إلى أقصى مكان يراه سليمان بوضوح، ثم عودته.

قال هذا الشخص: ﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾.

وفي دقائق معدودة رأى سليمان عرش بلقيس أمامه، فانصدع قلبه إجلالًا للجبار سبحانه وتواضعًا وشكرًا، فسليمان نبي وولي يشعر بالقرب من الله مع كل نعمة، ولذا لما رأى العرش ﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾، تأمل سليمان العرش، فبدت له فكرة قد تسهم في إيقاظ بلقيس من خرافة الوثنية، فطلب من خدمه أن يضعوا بعض اللمسات على شكل العرش للتمويه، قائلًا: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾.

أخذ العرش إلى ورشة ما.. وبدأ العمل عليه، بينما كانت صاحبته قد تجاوزت مدائن صالح ووادي القرى، حتى أشرفت على تلك التلة المقدسة.هنا توقفت القافلة، ونزل المسافرون، وعسكر الجند،

وضربت خيمة كبيرة للملكة.

وكشفت عن ساقيها

عسكرت قافلة الملكة بلقيس في الأرض المقدسة.. قرب قصر النبي سليمان صلى الله عليه وسلم، الذي كان يعد لها المفاجآت، وبعد أن استراحت، قامت بالاستعداد لدخول القصر.. اغتسلت من وعثاء السفر، وتزينت، ولبست أزياء ملكية فاخرة، وتهيأت للقاء أعظم ملك على الأرض، وقلبها ممتلىء بالهيبة.

أقبلت وحولها حاشيتها، والانبهار يلون وجوههم، مما يحيط بهم من تماثيل وجفان ضخمة، وحدائق ساحرة.. ظلوا يسيرون، حتى أصبحوا أمام بوابات القصر فتوقفوا، حينها نزلت وتهادت، فاستقبلها الخدم بكل احترام.. دلفت البوابة، فإذ بالفخامة تصدمها وتسحرها، وبعد تجاوزها للمر المبهر، أوقفوها بكل ذوق أمام عرش عظيم، وضعوه في مكان زاده عظمة.. التفت إليها الخادم، وقال لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾؟

تأملته، وقد حيرها المشهد، وأذهلها السؤال، ثم قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، ثم استأذنوها بالمواصلة، وبعد خطوات من الذهول، دلفت قصرًا آخر، أو بهوًا هائلًا، يسمى الصرح.. تأملته، فإذ بالمياه تتلألأ في سقفه.. تنساب في جدرانه، وتستقر على أرضيته.. أجواء تعصف بقلبها وعقلها، وهي ترى كل شيء يتلألأ فوقها وحولها ومن تحتها، ترددت في خوض النهر.. أبهرتها رؤية سليمان على عرشه في أقصى الصرح، وهي تتساءل: كيف تطفو قوائم عرشه على الماء، ولما همت بالتقدم، مدت يديها إلى فستانها السابغ، ورفعته بهدوء، وكشفت عن ساقيها، كي لا يتبلل الفستان بالماء.

وقبل أن تخطو قدماها توقفت.. أفلتت مقدمة فستانها.. حينها هتف سليمان طالبًا منها عدم الحاجة لرفع ثوبها، فهو لن يتبلل بالماء، لأنه لا وجود للماء أصلًا.. أذهلها صلى الله عليه وسلم حين قال لها: إنها أمام ﴿صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾، الجدران والممرات والسقف، وكل شيء حولها ممرد من زجاج.. فن أخاذ، يوحي للمشاهد بأن القصر مشيد من الماء.. براعة وإعجاز انهارت أمامه بلقيس.. تلاشت وثنيتها، ولمعت عيناها، إجلالًا للخالق الجبار.. للواحد الأحد، الذي منح عبده سليمان ذلك، ثم انصدع قلبها، حين علمت أن عرشها هو ذلك الذي رأته في مقدمة القصر.. تهدج صوتها، خشية لله، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

كان نبي الله يرقب المشهد، دون أن يتسرب الغرور إلى قلبه.. مشهد زاده إيمانًا وامتنانًا، وشكرًا لله، وعدلًا وتواضعًا مع خلقه، فهو الذي أعطاه، وهو القادر على سلبه إياه.. مملكة من يراها يظنها خالدة، لكنها مملكة عظمى، اختفت بلمح البصر.

مملكة سليمان مملكة استثنائية

حكم سليمان مملكة عادلة قوية، لكنها كانت استثنائية في كل شيء، لأنها لم تكن، ولن تكون لغيره.. كانت مختلفة تمامًا عن أي مملكة على الأرض.. مختلفة حتى عن مملكة والده داود، حيث إنه لم يكن للشعب أي دور في تمددها الخاطف والمبهر، أما سر هذا التمدد الكبير والخاطف لمملكة سليمان، فليس لقوة البشر دور يذكر فيه، فشعبه هم بنو إسرائيل وهم قلة.

السر كان في المعجزات والخوارق والجنود غير البشرية، التي سخرها الله لنبيه: الريح.. الطير.. الجن.. إسالة النحاس.. الإبهار في الصناعات المختلفة، حتى قصره المسمى (الصرح)، لم يكن لليد البشرية دور في بنائه.. كان عامرًا بزعماء الجن، لا برؤوس البشر.. كانوا مسخرين له.. يوكل إليهم المهام الشاقة في داخل مملكته، من أقصاها إلى أقصاها.. مهام صعبة، ليست ضمن طاقة البشر.. كانوا مذللين لا يجرؤون على التحدث، قبل أن يحدثهم.

تلاشت في عهده خزعبلات شياطينهم، التي يلقونها على السحرة، ويخدعون السذج بها، ومن تلك الخزعبلات ادعاؤهم علم الغيب.. اتضح كل ذلك حين جلس سليمان على عرشه، وهو يشعر بتعب شديد، وحوله خدمه من كبار الجن، وإذ به يغير من طريقة جلوسه، فانحنى على عصاه، التي تسمى المنسأة، واتكأ عليها، وفجأة شخص بصره، وسكن جسده.. صعدت روحه إلى بارئها.

مات سليمان، والجن تجول خارج القصر.. لا أحد ممن في الداخل، يستطيع الاقتراب منه أو مبادرته.. معتقدين أنه يفكر أو يتأمل، أو أنه سابح في مناجاة قلبية مع الله، ولا أحد ممن في الخارج يجرؤ على الدخول.. مرت الأيام تلو الأيام، وبنو إسرائيل خارج القصر منشغلين بدنياهم كالعادة، بينما كان الجن يعملون بجد دون توقف.. يعانون من تلك التكاليف، التي لا يدرون متى تنتهي، وفي أحد الأيام دبت إلى عصا سليمان حشرة الأرضة، التي تسمى دابة الأرض، التي تنخر الخشب.. تمدد نخرها ببطء، حتى تفتت أسفلها، وفجأة تردد في الصرح دوي ارتطام بالأرض.

حدق الجن بمصدر الصوت، فإذ بسليمان ممدد على الأرض.. نهاية قال الله عنها: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾، فتحت أبواب القصر، ودخل أبناؤه وزوجاته، وتفرق المردة والجن.. هنا بدأ تآكل الدولة العظمى، دون أن يسل عليها سيف أو ترمى بسهم.

انهيار مملكة سليمان

فتحت بوابات القصر المهيب، فدخل أبناء سليمان عليه السلام وزوجاته الصرح يبكون.. لم يعد الصرح مبهرًا كما كان.. أصبح خواءً بلا روح، فسليمان لن يعود إليه.. لن يتهادى بعد اليوم في ممراته الفاخرة، خلا عرشه من التسبيح والتهليل والامتنان لله الواحد القهار.. خلا من إلقاء الأوامر على الجن والطير والريح.

مات سليمان، فارتخت قبضته، وانفلتت خيوط الدولة الهائلة.. بدأت تتآكل.. تنهار بسرعة، كما ظهرت بسرعة.. ها هي أطراف مملكته تتفكك.. تنفصل عن العاصمة، فور معرفتها بموته، وليس لدى بني إسرائيل جيش قادر على حمايتها، أو قوة تستطيع بسط نفوذ خليفته.. رحل سليمان فبكاه بنو إسرائيل.. بكاه المؤمنون من الإنس والجن، وافتقدته الطير، وبعد أن انتهوا من دفنه، تفرق كل شيء.. تفرق المردة وكبار الجن، واحتفظ الهدهد ببقايا رسائله، وشعر الشعب بفراغ هائل.. فراغ لم يستطيعوا ملؤه، لأنهم لم يشاركوا يومًا في تشييده.

انهارت تلك المملكة العظيمة فجأة، لأنها لسليمان فقط.. هو من طلب ذلك، حين قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾، انهارت، لأن جندها ليسوا من البشر، وإنجازاتها ليست من البشر، ولا يمكن أن تكون لغير سليمان، حتى النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي مكنه الله يومًا من عفريت من متمردي الجن، سرعان ما أفلته، حين تذكر دعوة سليمان، وقال: «إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ فرددته خاسئًا»[54].

انكمشت مملكة سليمان داخل الأرض المقدسة، فخلفه ابنه رحبعام، وسرعان ما دب الخلاف بينه وبين أجنحة بني إسرائيل، فانقسمت الدولة الصغيرة إلى دولتين شمالية وجنوبية، حيث أصبح شمال فلسطين للأغلبية من بني إسرائيل، الذين حولوها إلى دولة وثنية، تتناوب الدول على غزوها، حتى محاها الآشوريون، بينما حكم رحبعام القدس، وجعلها عاصمة لدولة جنوب فلسطين. وقد تعرضت هي أيضا لعدة غزوات حتى محاها نبوخذ نصر فدمر الصرح، وبيت المقدس، وأحرقها، وأحرق التوراة معها، وأخذ بني إسرائيل عبيدًا، وكان من أسباب تلاشي الدولتين: فشو الشرك والظلم.. أي التخلي عن رسالة داود وسليمان: التوحيد والعدل.

أيوب والابتلاء

سُلب أحفاد داود مملكتهم، لأنهم تخلوا عن التوحيد والعدل، لكن نبيًّا من بني إسرائيل اسمه (أيوب)، لم يسلب الملك فقط.. سلب كل شيء.. خسر ماله، وجاهه، وكل ما يملك، ثم سلبه الله نعمة الصحة،

فبدأت الأمراض تدب إلى جسده، حتى ضعف، وأصيب بالهزال، وغدا ناحلًا جدًّا، وكأنه هيكل عظمي مغلف بجلد.. نفر منه أهله وأصحابه، ولم يعد أحد يطيق الاقتراب منه أو خدمته.

وحدها زوجته الوفية ظلت تحن عليه.. تطعمه وتنظفه وتعتني به، ظلت على ذلك أسابيع وأشهر وسنوات، حتى جاء ذلك اليوم، الذي كانت فيه شاردة الفكر.. مهمومة تفكر بحاله وبحالها، إذ بدا لها شيطان من شياطين الإنس أو الجن.. اقترب منها كالمشفق الحاني، ثم أخبرها أن بإمكانه شفاؤه مقابل أمر ينفذه زوجها.. عرض عليها أن يشفي حبيبها، مقابل أن يذبح قربانًا له.

كانت الزوجة في حالة اكتئاب شديد، وكأن أبواب السماء والأرض سدت في وجهها، وفي لحظات القنوط تلك تقبلت الفكرة الكارثية.. نهضت من مكانها تقتلع خطواتها، حتى أشرفت على مكان حبيبها.. أقبلت عليه، فإذا هو يفطر القلب.. منطو على آلامه وأوجاعه.. لا شيء فيه يوحي بالحياة.. لا شيء يغري بالبقاء معه ورفقته، سوى ماض جميل، ولسان يذكر الله ويناجيه، وكأنه لم يفقد شيئًا من جاهه، فالله جاهه ووجاهه.

اقتربت من إلفها المبتلى، وحيته وجلست بجانبه.. واسته، واعتنت به، ثم نظرت إليه بعين باكية، راجية ومحبة، وذكرته بشبابه، ونضارته السابقة، وسط استغرابه من هذه اللغة الجديدة، وإذ بها توقف استغرابه، باقتراح الذبح لغير الله.

صدم أيوب من هذه الدعوة الصريحة للشرك، وغضب رغم ما به من آلام، وكأن حبيبته تعلن انفصالها عنه.. عاتبها عتابًا شديدًا، فهي وإن كانت حبيبته، إلا أن الله أحب إليه منها.. فحلف رغم تلاشي قواه: أن يعاقبها على دعوتها للشرك. أدركت الزوجة الطيبة فداحة الأمر، فسكتت، ثم نهضت حزينة وغادرت، وكأن كل شيء بينهما قد هده ذلك الشيطان.

عادت تجر خطاها، ويقتلها الندم. نظر أيوب إلى حبيبته، وهي مقفية، وتأمل حاله، وقد أمسى وحيدًا، ليس له سوى الله، فتوجه إليه بقلب باك، وهو يقول: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، و﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، وإذ بالرحمة تنزل، والوحي ينزل، ويقول له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾.

جزاء أيوب

نزل الوحي على أيوب الناحل من شدة المرض، المنطوي ككومة من العظام، تلتحف الحزن والألم.. نزل الوحي يأمره أن يضرب برجله ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾، ضرب أيوب ببقايا قوة رجله الناحلة الهزيلة على الأرض، فإذ بالمعجزة تتفجر تحتها ماء.

ابتسم أيوب، وامتلأ قلبه بالسعادة، وهو يرى الماء يترقرق تحت قدميه.. قاوم ضعفه، وحاول الجلوس حتى اعتدل، ثم مد يديه المرتجفتين نحو الماء، وغرف غرفة، وغسل وجهه، فإذ بالمعجزة تسري مع كل قطرة تنساب على جلده الرقيق، والانتعاش يسري في كل عضو يغسله.. غرف بيديه وشرب. ويومًا فيوم شعر بقوة تنعشه.. تغسل آلامه وأوجاعه، وتذهب أنينه وصداعه.. بدأ جسده يعود للحياة شيئًا فشيئًا.. مرت أيام حتى شفاه الله وصح بدنه، وعادت له نضارته، لكنه لم يعد لبيته.. ظل في مكانه، وكأنه لا يريد ترك نبع الحياة هذا.

في أثناء ذلك كانت الزوجة الحانية تتململ.. تقتلها خناجر الندم على تركه وحيدًا.. قررت العودة لخدمته، حتى وإن رفضها، فحبه يملأ قلبها، رغم ما به من بلاء. نهضت وأخذت طعامًا وشرابًا، وأدوات للعناية به، كانت تأخذها عادة.. تهادت خلال الطرقات، تفكر بردات فعله، ومفاجآت استقباله.. متوجسة من صد الحبيب.. شرقت بها الهواجس وغربت، حتى أقبلت على المكان، فإذا هو غير المكان.. لا رائحة، ولا عفن، ولا أنين.. تغير المكان، فأين الحبيب؟

تلفتت فلم تجده، لكنها وجدت شخصًا غريبًا هناك.. اقتربت من الغريب، وسألته عن مالك قلبها، وهو ينظر إليها بعينين تفيضان بالعتاب. تساءلت عيناها عن سر نظراته، فعرفها بنفسه، فأجهشت بالبكاء، شكرًا لله وفرحًا وندمًا، لكن هل هي نظرات الوداع يا أيوب؟

كان عتابه بحجم حبه لها وحبها له، وإذ بالوحي ينزل عليه، ليعيدها إليه.. الرحمن الرحيم، يقول له: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾.

انطلق أيوب يبحث عن شمراخ.. عن مجموعة أعواد، يجمعها ضغثًا، ولما وجد مبتغاه، قبض عليها جميعًا بكفه.. كان أحد منها، ثم ضربها بها ضربة عتاب وكفارة وشوق، حتى لا يحنث بيمينه، ثم أخذ بيدها، وعادا لبيتهما، بعد أن تجاوز النبي المبتلى الامتحان، ونال شهادته من الرحمن، الذي أثنى عليه، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾، وبالقدر الذي كان فيه أيوب صبورًا، كان أحد الأنبياء في مكان آخر عاجزًا عن التحمل، فحلت به كارثة لا تطاق.

يونس غاضب

انتشر الشرك والظلم في مدينة نينوى، الواقعة في شمال العراق، فبعث الله فيهم نبيًّا منهم اسمه يونس بن متى.. يدعوهم للتوحيد والعدل، وترك الوثنية والخرافة، فالله خالق السماوات والأرض ومالك الملك، ولا يرضى معه شريكًا، لكن قوم يونس كبقية الأمم، ظلوا على تراث آبائهم وأجدادهم.. لا يريدون فتح عقولهم، والتأمل في تفاهة آلهتهم، التي يصنعونها بأيديهم.. أصنام لا تتكلم، ولا ترى، ولا تسمع.

طال الأمر بيونس، فيئس من قومه، وقرر الهجرة من قريته ومغادرتها.. فعل ذلك قبل أن يأذن الله له.. شاهده أهل القرية، وهو مقف قد بلغ به الحزن والغضب منتهاه، فانكسرت قلوبهم، وهم يرونه يختفي خلف السراب.

غاب يونس، ومرت أيام ولم يعد، فشعر أهل بلدته بحزن شديد، واجتاحهم خوف أشد، فهم يعرفونه جيدًا.. لم يكذب عليهم أو يغشهم يومًا.. تذكروا مصير الأمم التي حدثهم عنها: أقوام نوح وهود وصالح، فتعقلوا، ثم عقدوا اجتماعات دار فيها نقاش جاد وهادف.. توصلوا بعدها إلى أخذ الدرس من تلك الأمم، فيونس لم يتركهم إلا لأنه يدرك أن كارثة ستحل بهم، كما حلت بمن قبلهم.

قرروا العودة للتوحيد، ونبذ الوثنية والخرافة، وترك الظلم والجور، فإذ بالمدينة مع مرور الأيام تتغير.. أصبحت أكثر سعادة وأمنًا وألفة.. غدت مدينة للتوحيد والسلام والعدل.. لا ينقصها سوى شيء واحد.. هو درة تاجها ورأس مالها.. لا ينقصها سوى ابنها البار (يونس بن متى).

لكن أين هو يا ترى؟ لقد هام على وجهه أيامًا وليالي وحيدًا حزينًا، لا يؤنسه سوى ذكر الله، حتى حطت به قدماه ببلدة ساحلية.. لم يتوقف للتمتع بزرقة بحرها وأجوائها، التي قد تنسيه أحزانه.. قرر أن يقطع البحر بعيدًا.. رأى إحدى السفن الصغيرة مزدحمة تستعد للإبحار.. دنا منهم وسألهم أن يحملوه.. لا يهمه أين وجهتهم، ولا ما ميناؤهم اللاحق.. المهم أن يبعدوه عن ذكرياته المرة مع قومه. وافق ربان السفينة، فركب وانحشر في فراغ داخل المركب.

أبحر كما تبحر مراكب اللاجئين والمشردين.. لا مكان فيه للابتسام أو الاسترخاء أو حتى النعاس.. الكل خائف.. الكل متشبث.. تعلو الشهقات مع الأمواج وتنخفض.. الكل خائف متوجس في عالم أزرق، اتصلت فيه السماء بالماء.

قطع المركب الثقيل أميالًا في عمق البحر، وإذ بالريح تهب، والبحر يضطرب، فأدرك الربان أن مركبه غارق لا محالة، إلا إن تخلص من بعض الركاب.

يونس خارج المركب

ركب يونس صلى الله عليه وسلم السفينة ﴿أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، الذي يوشك على الغرق لثقل حمولته، فكلما مالت به الأمواج أو انخفضت، غمرته المياه.. تأمل الربان مركبه، وأدرك أنه غارق لا محالة، إلا إن تخلص من بعض الركاب.. هتف بهم، وواجههم بالحقيقة، فإذ بالوجوه المبللة تتجهم؟ وإذ بالأيدي تزداد تشبثًا بالمركب والحياة، فلا متبرعون على ظهر المركب، ولا فدائيون ولا حتى منتحرون.

هنا تقرر إجراء قرعة، ومن تصيبه سيقفز في الماء، أو يرمى في البحر. لم يكن هناك وقت، فالموت يطل عليهم مع كل موجة.. يبلل وجوههم مع كل طشة ماء.. أجريت القرعة بطريقة ما، وقلب يونس معلق بالله، ولسانه يلهج وهو يرى القافزين، وفجأة حدق الركاب به.. حاصرته عيونهم.. تأمل وجوههم، فأدرك أن القرعة وقعت عليه، فأصابه الفزع ونهض من مكانه ثقيلًا، والتف نحو حافة المركب، وسلم أمره لمن أنجا نوحًا وفلق البحر لموسى. قام على حافة المركب ثم قفز.. انغمس في الماء، ثم طفى، وحاول السباحة قرب المركب، لكن الموج فرق بينهما.. غاب المركب عن ناظريه، وهو يصارع الأمواج ويعانق الموت.

لم يعد يرى سوى الماء والسماء.. لا هو الذي يطال تلك، ولا هو الذي يستقر على هذا.. ظل يصارع، وفجأة انتزعته موجة.. رفعته، ثم هوت به داخل فوهة عملاقة وسط البحر.. انزلق نحو أعماقها، حتى ابتلعه الظلام، وكأنه داخل كهف وسط البحر.. لا يدري ما الذي حدث له، ولا أين هو.

الشيء الذي يعلمه هو: أنه حي غارق في ظلام دامس.. يتحسس بيده أرضية وجدرانًا لينة.. مر اليوم الأول وهو ينتظر الموت. مر اليوم الثاني كالأمس مظلمًا، لا شمس، لا أرض، ولا حتى بحر.. يتقلب بين خرير ماء، وأصوات نوافير ماء وهواء مخيفة.

ظل يونس جنين الظلمة، ثم أدرك أنه داخل جوف حوت مهول، أرسله الله ليريه قدرته عليه، حين ترك قومه، فعج لربه بالتسبيح والتقديس، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

ظل يناجي خالقه، ويبكي ويعتذر، ويردد: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، حتى أنهكه الجوع والعطش، وفجأة انفتحت البوابة العملاقة، وإذ بموجة من أعماق الحوت تقذف به على رمال الشاطىء.

رفع يونس رأسه منهكًا من الجوع والخوف والإعياء، فرأى الحياة من جديد.. رأى الشمس والنور، ولامس وجه الأرض.. وتأمل هذا المخلوق العملاق، وهو بعد أن أدى مهمته.. يلتف نحو البحر لينغمس فيه محدثًا تلاطمًا هائلًا.

وعاد يونس

كان يونس صلى الله عليه وسلم مقذوفًا على الشاطىء، بعد أن تلقى ذلك الدرس القاسي من الله.. كان في حالة إعياء من شدة الجوع وقلة النوم، وإذ بمعجزة إلهية، يراها قربه.. شجرة من يقطين، يقول الله عنها: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

استعاد يونس شيئًا من قوته ومعنوياته، فزحف نحو تلك اليقطينة، ومد يده، وبدأ يأكل.. نام ثم صحا، وتناول مجددًا منها حتى تعافى، ونهض على قدميه.. كان في خلوة مع ربه، على ذلك الساحل.. يناجيه يتوب إليه.. يعتذر عما بدر منه، وإذ بملاك الوحي يهبط عليه.. يأمره بالعودة لدياره وقومه، فهم قد تابوا من بعده، لكن توبتهم لا تكفي، فهم بحاجة إليه، كي ينشر الوعي والعدل بينهم.

نهض يونس ومشى على الساحل، وواصل السفر حتى أشرف على الديار.. أقبل عليهم، فإذ بالوجوه غير الوجوه، تلاشى التجهم والإكفهرار عن ملامحها، وإذ القلوب غير القلوب.

ابتهجت المدينة بعودة ابنها الحبيب، ونبيها الكريم.. التفوا حوله يعانقونه.. يحيونه، ويعتذرون إليه، ويعتذر منهم، ويقص عليهم قصته مع الحوت.. كان قومه حالة فريدة، قال الله عنها: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، انتشر التوحيد على أرضهم، وظلوا ينشرونه، وينعمون بالعدل سنوات وسنوات، في الوقت الذي تناسلت فيه ذرية سليمان، وبنو إسرائيل في الأرض المقدسة، تتناوب الأمم في غزوهم وتشريدهم، كلما أخلوا بالتوحيد، وتركوا العدل، وتطبيق شريعة ربهم.

غزاهم الأقباط الوثنيون والفرس، وكاد البابليون أن يبيدوهم، وأخيرًا اجتاحهم الروم الوثنيون، واحتلوا بيت المقدس وما حوله، فأرسل الله نبيًّا اسمه زكريا، يدعو للتوحيد والعدل، ويعاني صلف الوثنيين، لكنه لم يكن يعاني من الوثنيين فقط، فمعاناته الأشد كانت مع قومه، وبالتحديد من منافقي بني إسرائيل، كانوا عملاء للسلطة الرومانية الوثنية، لا هم لهم سوى المال وجمعه، بل إن بعضهم تحول لنصرة الوثنية على التوحيد.

كان المؤمنون قلة حول زكريا، وكان من تلك القلة صديق له اسمه عمران، وقد توجه عمران وزكريا إلى إحدى الأسر الإسرائيلية المؤمنة، ليخطبا فتاتين شقيقتين صالحتين.. اسم أحدهما حنة، والأخرى إليزابيث. تزوج زكريا من اليزابيث، وعمران من حنة. مرت السنوات فلم يرزق زكريا بذرية، بينما رزق عمران بولد سماه هارون.. ثم حملت زوجته وفي أثناء حملها توفي عمران.

شعرت حنة بالحزن على حبيبها وحملها، فتوجهت لربها تستودعه جنينها.

اليتيمة والصالحون

بعد وفاة سليمان صلى الله عليه وسلم وتفتت دولته بمئات السنوات، وبعد غزوات وثنية متكررة على فلسطين من الجنوب والشرق والغرب.. جاء الروم الوثنيون من الشمال، فاجتاحوا كل فلسطين، واحتلوا بيت المقدس، فرضخ لهم بنو إسرائيل.

وفي إحدى تلك السنوات المريرة تزوج النبي زكريا صلى الله عليه وسلم، وصديق له اسمه عمران من فتاتين إسرائيليتين مؤمنتين، يقال لإحداهما إليزابيث، ويقال للأخرى حنة.. مرت السنوات والشباب الأربعة يعيشون حياة سعيدة مع الله، ومعاناة من الوثنيين، لم يرزق زكريا وزوجته خلالها بأي مولود.

أما عمران وحنة فرزقهما الله ابنا سمياه على اسم نبيهما هارون عليه السلام، وبعد سنوات من ولادته حملت زوجته مرة أخرى.. كانت سعيدة بحملها، لكن الأقدار فجعتها بوفاة حبيبها وزوجها عمران، أشعرتها بآلام لا تقل عن آلام الحمل.. شعرت بغيمة اليتم، تخيم على حملها، فعاشت حزنًا ثقيلًا، لم يخففه سوى مناجاة الله، واللجوء إليه.

لم تجد أرحم منه سبحانه، لذا نذرت جنينها لله وحده، والقيام على خدمة دار العبادة.. ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾، وبعد تسعة أشهر من المعاناة، دوت صرخة بريئة في بيت عمران.. تأملت حنة مولودها، فإذا هي فتاة عذبة كالمطر.. تنازعتها المشاعر، فقد كانت تحلم بصبي، يخدم بيت الله، ويتفرغ لعبادته، وهي مهمة ليست للإناث.

ثم ما الذي ستفعله فتاة للدين، وقد أدخل الحاخامات في الكتاب المقدس، نصوصًا كثيرة تضطهد المرأة.. ما الذي ستضيفه مريم، والكتاب المقدس يحرم على الأنثى حتى الكلام في دار العبادة.. يحرم عليها حتى طرح السؤال.

تلاطمت أمواج الحيرة بحنة، فنادت ربها وهو أعلم بها، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، بعد تلك الدعوات الباكية، أشرقت مريم اليتيمة على دنيا حنة، فأمطرتها بالسعادة.. عوضتها فقد والدها عمران، كما أن توكل أمها على ربها سبحانه، انتشلها من حيرتها، وذلك حين ابتهجت ذات يوم، حين رأت زوج أختها النبي زكريا صلى الله عليه وسلم ومعه بعض أقاربها المؤمنين، يفدون على بيتها، يريدون كفالة يتيمتها، التي قال الله عنها: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا ﴾، كلهم يريد مريم ابنة له.. تنافس لم تحله سوى القرعة.

أفضل يتيمة على الأرض

كانت مريم عليها السلام طفلة كالقمر.. تملأ بيت أمها بالبراءة والجمال، اجتهدت في تربيتها، فألقى الله في قلوب الخلق محبتها، حتى تطلع الصالحون من أقاربها، وفي مقدمتهم النبي زكريا صلى الله عليه وسلم. إلى كفالتها. تحيرت أيهم أولى: كلهم أولى، وأمام هذا النقاء من الرجال الأتقياء، لم تجد أمها أعدل من القرعة.

اجتمع الكرماء في مكان واحد، وكتب كل واحد اسمه، ثم ألقوا أقلام قرعتهم في وعاء، أو مكان محدد، ثم أتى شخص، ومد يده دون تحديد إلى تلك الأقلام، فأخذ بطريقة عشوائية واحدًا منها. رفعه وقرأه، فإذا بعيني زكريا تلمعان فرحًا، وهو يفوز بكفالة أفضل يتيمة على وجه الأرض.

بدأ كفالتها، فواصل تعليمها، وخصص لها غرفة للتعبد، تسمى المحراب، فنشأت بين أم وخالة مؤمنتين، وزوج خالة نبي تقي. كبرت مريم، وشاخ زكريا، واشتعل رأسه شيبًا، وأصبحت مريم في ريعان شبابها، وبلغت سن الزواج، لكنها ظلت بتولًا، كثيرة المناجاة لله والأنس بذكره، وإذ بالكرامات تنهال عليها.. كرامات أدهشت زكريا وزوجته، وحيرتهم. رغم أن الله وصف زكريا، فقال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

اكتشف زكريا كرامات مريم ذات يوم.. حين مر بها، وهي في محرابها في حالة مناجاة لله، فإذ به يرى طعامًا عندها، لم يشتره، ولم تحضره زوجته أو أمها.. تكرر مشهد الطعام عدة مرات، ومريم لا تفشي أسرارها مع ربها، ولا تفخر على غيرها بكراماتها.. كانت مشغولة بما هي فيه من نعيم روحي، زادها تواضعًا. زادتها الكرامات شكرًا، فلم تنسب شيئًا لنفسها.

ازداد فضول زكريا، فتوجه نحو محرابها وحياها، فردت التحية.. نظر إلى الطعام، ونظر إليها وقلبه يرتجف، وقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ هنا أجابته إجابة الأولياء العارفين الشاكرين، فقالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أخذته الكلمات بعيدًا.. تعلم وهو المعلم من فتاة يتيمة يكفلها ويعلمها. أن السر في الله، وليس في العبد. السر في عطاء الله، الذي لا حدود له، لا في عبادات الإنسان المحدودة. أدرك أن سر الأولياء هو الثقة بالله، والاعتماد عليه، وعدم التطلع إلى ما في أيدي خلقه.

خرج من محراب مريم البتول، وقلبه يبكي، ويتمنى مثلها، ويقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، وإذ بصوت يناديه، يقشعر له بدنه.

زكريا يشكو لربه

خرج زكريا صلى الله عليه وسلم من محراب مريم البتول الطاهرة، بعد أن أيقظته إجابتها. توجه نحو محرابه. دخله وبقي وحيدًا، منزويًا عن العيون، منكسرًا بين يدي خالقه، ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، أفصح عن أمنيته، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدًا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، وإذ بصوت مهيب بين جدران المحراب، تقشعر له الأبدان، حوَّله إلى شخص آخر تمامًا.

نادته ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ذهل زكريا وارتبك، ومن شدة ارتباكه سأل سؤالًا هو من طرحه قبل قليل، فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، ما زال زكريا منذهلًا.. لم يكتف بنداء الملائكة وبشرياتهم.. أراد علامة زكريا بنداء الملائكة. أراد علامة أخرى، وإذ بالإجابة تصدمه. آية كالعتاب حين قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

خرس لسان زكريا، ولم يعد قادرًا على الكلام. وبعد مدة خرج من المحراب.. مشى في الأسواق يحييه الناس، فيرد بالإشارة.. يكلمونه، فيهز رأسه، ويحرك يديه، وسط استغرابهم. كانت علامة وآية ومعجزة خاصة به، لذا ظل الغموض يلتف حوله، حتى مرت الأيام الثلاثة، فانطلق لسانه، وواصل تعليم بني إسرائيل، ونشر التوحيد بينهم، وسط أجواء الاحتلال الوثني، وبعد أشهر شعرت زوجته بأعراض الحمل، فاجتاحته السعادة، وبعد تسعة أشهر داهمتها آلام المخاض، فزادت من ضعفها، ثم ولدت غلامًا جميلًا، سماه الله قبل أن يخلق.

كانت سعادة زكريا وزوجته لا توصف.. ملأ يحيى بيتهما بالحياة والأنس. احتفت به خالته، وحملته ابنة خالته مريم ودللته.. أصبح الرضيع يتقلب بين دلال ثلاث من أطيب نساء الدنيا.

مرت الأيام ومريم لم تتزوج، أشغلتها العبادة عن التفكير في الزواج، حتى جاءت اللحظة التي غيرتها، حين نهضت إلى غرفة مفتوحة باتجاه الشمس، دخلتها، ثم أسدلت ستر الباب. وما إن أصبحت لوحدها، حتى ارتجف قلبها خوفًا.. طيف غريب يدخل عليها دون استئذان. رجل لا تعرفه، يقتحم خلوتها بربها.. أصابها الرعب والهلع، فلاذت منه بربها، وخوفته بالجبار سبحانه، وقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.

مريم أفضل امرأة

اقشعر بدن مريم عليها السلام حين رأت رجلًا غريبًا، لا تدري من هو، ولا من أين أتى؟ يقتحم غرفتها. شعرت بالذهول، فلم تجد مهربًا وملاذًا سوى الله، وقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، وإذ بصوته المهيب، يزيدها قلقًا، ويقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، تحيرت: هل سيعتدي عليها، أم ماذا سيفعل؟

لم يعطها الغريب مهلة للتفكير، سرعان ما فاجأها بشيء آخر.. فاجأها ببشارة لم تتصورها يومًا.. بشرها بمولود وهي التي لم تعاشر رجلًا في حياتها، بل زاد على ذلك حين حدد جنس مولودها، ونسبه أيضًا، قائلًا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، ثم أذهلها حين أخبرها أن طفلها هذا سيحمل معجزاته معه لحظة ولادته، قائلًا: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

مريم الآن في أشد حالات الذهول.. كيف سيحدث هذا، وهي التي نذرت نفسها، ونذرتها أمها لله؟ كيف ستصبح أمًّا، وهي لم تتزوج، ومن سيصدقها؟

نظرت إلى جبريل بعينين باكيتين، خشية الفضيحة، وقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾، لكن الروح القدس أزال خوفها، وطمأنها وزادها إيمانًا، و﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾.

إذا فطفلها معجزة تحدث كما تحدث أي معجزة ربانية.. بكلمة (كن)، فيكون.. المسيح مخلوق بكن..

امتزجت المشاعر داخل قلب العذراء البتول عليها السلام، ثم ما لبثت أن رفرفت روحها في السماء مسرة، وشكرًا لله حين بشرها بأعظم بشارة، مرت بها امرأة في الدنيا قائلًا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هذا الاصطفاء لا تعني رفع التكاليف عنها.. إنها نعمة وابتلاء من الله لهذا النقاء، لذا طالبها الملاك بمواصلة التقرب من الله، فقال: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، بعدها نفخ الروح في رحمها عليها السلام، ثم صعد للسماء، أما هي فظلت على الأرض مذهولة.. تتلون جدران غرفتها بالفرح، بالهواجس، بقائمة التهم التي تنتظرها مستقبلًا حين يظهر حملها.

أمضت العذراء ليلتها في مناجاة، وشعرت بعد شهر بانقطاع الحيض، ثم مرت الأسابيع، وإذ بها تخفض رأسها، وتمد يديها نحو بطنها، وتتحسسه، فإذا هو قد كبر.. لم يعد خصرها نحيلًا، فشعرت بالخوف من نظرات كالخناجر، تنتظرها في الطرقات.

ضاقت القدس بمريم، وهي لا تضيق، وكأنها بلا شوارع.. فتوجهت نحو غرفتها ودخلتها، ومدت يديها نحو الأوتاد وخزانتها، فأخذت ثيابها ومشطها، وما تحتاجه، ثم وضعتها في مزودتها، وحملتها وخرجت، وهربت من المدينة.

البتول تهرب من بيت أهلها

مريم الطاهرة تهرب حياء من الناس، وخوفًا من سكاكين ألسنتهم، حين يعلمون بحملها.. غادرت تحملها الثقة بمعية الجبار سبحانه.. مشت بين جدران القدس الحبيبة، وطرقاتها المزروعة بجنود الاحتلال الروماني الوثني، حتى توارت عن الأنظار ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾، بحثت في ذلك المكان العامر بالبساتين والنخيل عن ملجأ، حتى وجدت.

ظلت هناك أشهرًا تعاني الغربة.. يقتلها الشوق لأمها.. لمربيها زكريا.. للأهل والديار، ولمحرابها وغرفتها الشرقية. وتحن إليها صديقاتها وقريباتها.. يستفسر الحاخامات عن سر اختفاء البتول سليلة الأنبياء.

أصبحت في الشهر التاسع، وأصبحت ثقيلة الحركة والخطوات، وذات يوم كانت تتهادى ببطء بين النخيل، وإذ بها تئن فجأة، وتضع يدها أسفل بطنها، وتتوقف من شدة الألم: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾.

مدت يدها نحو الجذع، واتكأت عليه، ثم ثنت ركبتيها بصعوبة، حتى لامست الأرض، واستقرت عليها وجلست، وما إن جلست حتى تفاقم وجعها، وارتفع أنينها.. تصبب عرقها، وفاضت عيناها من شدة الطلق. تلفتت، فلم تر أحدًا حولها. لا أم. لا أخت. لا صديقة، بل لا أحد من البشر يسعفها، فتمنت الموت من شدة الألم، وهي تبكي. تصرخ، وتقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴾، وفي غمرات الموت أشرقت الحياة.. أشرق حبيبها على الدنيا بلا صراخ.

أشرق الوليد المعجزة، فالتقطت أمه العذراء أنفاسها، والتقطته، وضمته، وأمطرته بدموعها وعرقها، وإذ بالصوت الذي بشرها بعيسى، يزيح حزنها، ويناديها: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا ﴾.

تلفتت الأم العذراء -صلى الله عليها وسلم- تبحث عن السري، فإذا المعجزة.. جدول ماء، يجري بجانبها. مدت يديها، وبدأت تغرف منه، وترتشف، وتغسل طفلها ووجهها، وإذ بالملاك الذي لا تنتهي بشائره، يسعدها بخارقة أخرى، فيقول: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًا ﴾، مدت يدها الناعمة المتعبة للجذع ودفعته، وإذ بالمعجزة:

الجذع الثابت يهتز بكف العذراء الضعيفة، والشماريخ فوقها تتأرجح، فتتساقط حبات الرطب الحلوة الملونة بين يديها. تبهرها الرحمة، فتلتقط الحلوى وتغسلها بماء السري وتأكل دون أن تنهض من مكانها، ثم تحني رأسها، فيتناثر شعرها المبلل على القمر، الذي يزين حجرها، فتزيح بعضه عن وجهه، وترضعه، فيقبل على نهر الحياة حتى يرتوي، ويغفو.

فتمهده بثوب من ثيابها، وتتأمله، فينسيها جماله كل ما مر بها من آلام، وبعد أيام تتذكر قول الملاك: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، فتنهض وهي تحمله لتهديه إلى القدس الحبيبة.

طريق الصمت

استردت مريم عليهما السلام بعض عافيتها ونشاطها، فخفق قلبها للقدس الحبيبة.. نهضت فجمعت متاعها، ووضعت خمارها على رأسها، وودعت جدول الماء ونخلتها، والمكان القصي الذي احتضن غربتها، ومهدت قرة العين، وحملته لتهديه للقدس.

ارتفعت مع الدروب، وانخفضت، وهي تتذكر قول الملاك لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، تهادت حتى أقبلت على مدينتها الحبيبة، فإذ بأمواج المشاعر تصطفق في قلبها.. الشوق والخوف.. الاتهام والبراءة.. مشت صامتة تتحاشى العيون والتجمعات، حتى صادفت أشخاصًا أو شخصًا لم تستطع تحاشيه.. تعرف عليها.. أأنت مريم؟ ومريم لا ترد. ما هذا الطفل؟ ومن هو؟ ومن هو أبوه؟ لم لا تجيبين؟ لم تستطع البتول التخلص من حصار الشك والقذف والاتهام ولا التفلت من حصار الأسئلة والعيون، فتوقفت: لم لا تجيبين؟ تداعى الإسرائيليون الفضوليون حولها، يتهمونها بالرذيلة، والوثنيون يتفرجون دون اكتراث.

أتى الحاخامات، فأخضعوها لمحاكمة علنية في طرقات القدس. هذا ما كانت تخشاه أفضل فتاة على الأرض:

بدأت المحاكمة: ما هذا الرضيع الملفوف يا مريم؟! نحن لا نعلم أن لك زوجًا.. أمك لا تعرف لك زوجًا.

فاضت عيناها، وهي تتلقى الطعنات حين ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾، كيف تشوهين سمعة آل عمران؟

رفعت مريم رأسها، واحتضنت رضيعها بيد واحدة، ورفعت الأخرى لتشير بإصبعها نحوه.. كلما طرحوا عليها سؤالًا أشارت إليه.. تعجبوا منها؟ هل جنت الفتاة؟

أجل.. نحن نسألك عن هذا الملفوف في المهد؟

وفجأة توقفت إشاراتها، وأصيب القاذفون بالخرس.

سكت الجميع. سكت كل شيء، ونطق الرضيع.. تكلم وهو بين لفائف المهد، وقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا

بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

اتسعت الأعين، وفُغرت الأفواه.. أسقط في أيدي المحاصرين.

وذهل القضاة.. زادت مريم طهرًا في عيونهم، ومكانة في قلوبهم، فأفسحوا الطريق لهذا الأمير كي يمر.. ساروا خلفه، وخلف أمه، كالحاشية، بعد أن أوقفوهما كالعسكر. ألجمتهم المعجزة المبهرة، وكأنها ذكرتهم بمعجزة أكبر منها.

فلئن خلق الله عيسى بلا أب، فإن أباه آدم خلق بلا أب وبلا أم.

الله يحدد هوية عبده عيسى

اتسعت أعين اليهود حول مريم.. خرس الذين قذفوها واتهموها بالخنا.. ابتلعوا ألسنتهم حين تكلم الطفل في مهده، وأفصح لهم عن هويته، وأنه عبد الله الذي خلقه ويميته ويبعثه،، فارتفعت مكانة مريم بين الناس، فأفسحوا لها الطريق، كي تمر مبجلة.

سار الحشد خلفها، وخلف رضيعها، وأدرك المؤمنون بأن خلق عيسى معجزة كمعجزة أبيهم آدم، الذي خلقه الله بلا أب وبلا أم، فقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، وحدد الله هويته، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

أصبحت مريم ملء السمع والبصر، واستأنفت تبتلها ورهبانيتها ومناجاتها، وعيسى يزين محرابها وحياتها بجماله وبراءته.. يكبر فيكبر حبه في قلبها، ويبدأ بالوقوف وهو ينتفض ويسقط، ثم ينهض ويدرج وهو يتأرجح ويتعثر.

تلاعبه ويلاعبها، يكبر عيسى فتأخذه إلى خالته، أو تزورهم خالته، فيلعب مع ابنها يحيى، وتزداد صداقتهما، وهما يمضيان سنين المراهقة، وسط إعجاب الناس بأخلاقهما، وبرهما لوالديهم خاصة يحيى الذي آتاه الله الحكم صبيًّا، ويبلغان سن الرجولة، فينشغلان مع نبي الله زكريا بنشر الوعي والتوحيد بين الإسرائيليين والوثنيين، فيضيق الروم المحتلون بالثلاثة، وتبدأ المضايقات، ويتم القبض على يحيى، ويودع السجن، ويتلقى ألوانًا من التعذيب.

وفي أحد أيام المعاناة تلك، يسمع يحيى وهو في زنزانته قرع أحذية من بعيد.. يرتفع الصوت شيئًا فشيئًا في الممرات الصخرية، حتى توقف أمام زنزانته، أدخلوا المفتاح في القفل وأداروه، وفتحوا الباب، ثم أقبل الجلادون عليه، وسحبوه عبر الممرات بعنف، ثم أدخلوه في مكان ملطخ بالدماء.

وضعوا رأسه على شيء صلب، ثم رفع أحدهم منشارًا، فوضعه على رقبته، وبدأ ينشرها حتى هوى رأسه على الأرض. مد أحدهم يده إلى رأس النبي الشاب، ثم التقطه يقطر دمًا، وأخذه نحو حاكم فلسطين الوثني. ابتسم الطاغية الوثني، وأمر بوضعه على طبق من فضة، ليقدمه هدية لعاهرة.

خيم الحزن على القدس.. رحل النبي الشاب يحيى بن زكريا شهيدًا، فبكاه الإسرائيليون الموحدون، وانفطر قلب أمه، وبكته مريم، وبكاه صديقه ورفيق دربه، وابن خالته عيسى عليه السلام، وعاد زكريا كما كان فردًا، أُنتزع ابنه البار منه.

لكن مهلًا؟ كيف يموت يحيى قبله، وقد استجاب الله دعاءه بأن يرثه يحيى؟

الحزن يخيم على القدس

أُنتزع يحيى الابن البار من أبيه زكريا، وهو في عنفوان شبابه.. حرمه الوثنيون رؤية أحفاده، فانفطر قلبه، وبكى حبيبه، وسلم أمره لربه، لكن مهلًا؟ كيف يموت يحيى قبله، وقد استجاب الله دعاءه، حين قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

أجل قد استجاب الله له، فورث يحيى والده وهو حي.. ورثه النبوة، فالأنبياء لا يورثون مالًا، حيث يقول النبي عليه السلام: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»[55].

لم يسكت زكريا.. احتج لدى السلطة الوثنية على تلك الجريمة بحق ابنه وفلذة كبده، فعلم الحاكم الوثني، فأصدر أمرًا بالقبض على الشيخ النبي الحزين.. خيم الحزن على تلك العائلة المؤمنة، وضاقت بها الأرض، حين سمعوا لغط الشرطة الوثنية، وهي تطرق الباب للقبض على الشيخ الحزين، لكنها لم تجده.. بدأ الجلادون بتمشيط شوارع القدس وأزقتها، وتفتيش بيوت اليهود الموحدين وبساتينهم، وكأن زكريا مجرم، أو قاطع طريق.

قلبت الشرطة القدس حجرًا حجرًا، وأخيرًا تمكنت من القبض على النبي الطاعن في السن، الذي وهن عظمه، واشتعل رأسه شيبًا، واحترق جوفه حزنًا على فلذة كبده وأمنيته. اقتادوا نبي الله للسجن، مصفدًا بالحديد.. يترنح وهو يقاد بعنف، وتردد ممرات السجن الحجرية صلصلة السلاسل، التي تثقل يديه وقدميه وشيخوخته.

أوقفوه أمام الزنزانة، وفتحوا بابها ثم رموه فيها، وبعد مدة نفذوا حكم الإعدام فيه.. استشهد الشيخ بعد استشهاد ابنه في ظل حكم روماني وثني، لا يطيق التوحيد ولا العدل، أعدم زكريا، وهل هناك أشد من قتل نبي، أو قتل آمر بالعدل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

سال دم نبيين يهوديين كريمين، والأشنع أنه قد شارك في سفك دمائهما حاخامات خدمة وتزلفًا لسلطة رومانية وثنية.. تغير بنو إسرائيل كثيرًا، فبعد أن مارسوا المناكفة والتحايل مع موسى وهارون وغيرهما.. سلط الله عليهم (البابليون والفرس وأخيرًا الروم)، وها هم يتورطون أكثر، فيسهمون مع الوثنيين في محاولة للقضاء على آخر نبي يهودي.

مطاردة آخر نبي يهودي

تغير بنو إسرائيل كثيرًا، فبعد أن مارسوا المناكفة والتحايل مع موسى وهارون وغيرهما.. ها هم يتورطون أكثر، فيسهمون مع الوثنيين في قتل نبيين إسرائيليين منهم.

جرائم كبرى أغضبت الجبار سبحانه، فحكم عليهم بالذلة والمسكنة، بحيث لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا التصدي لأعدائهم إلا بحبل من الله، أو عن طريق أمم أخرى، تحميهم أو تدافع عنهم، فقال سبحانه ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾.

وها هم يشعرون بنجم عيسى يرتفع بالنضال، ونشر التوحيد، ورفض الظلم، ليبدؤوا التخطيط لنحر آخر أنبياء اليهود عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم.. كان عيسى قد تجاوز الثلاثين، لكنه كبقية الأنبياء من قبله.. بدأ بأهله وأسرته، ثم بشعبه الإسرائيلي، الذي انحرف الكثير منهم، وأصبحوا في صف الوثنيين.. توجه إليهم في شوارعهم وأسواقهم ودكاكينهم، وداخل المسجد الأقصى.

هتف بهم، مبشرًا المؤمنين منهم بالجنة، ومبشرًا أيضًا ببعثة رسول، يأتي من بعده هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومؤكدًا على أنه يؤمن بكل ما جاء به موسى من التوحيد في التوراة، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾.

نظر بعض اليهود إلى بعض بتعجب، فهذا الشاب في نظرهم لا يستحق أن يكون معلمًا لحاخاماتهم الكبار، الذين يتاجرون بالدين، حتى اتخذهم الناس أربابًا من دون الله: يحرمون عليهم الحلال، ويحلون لهم الحرام، فيطيعونهم.. لم تعجبهم دعوة المسيح، لذا هددوه، وذكروه بمصير زكريا ويحيى ودمائهما، التي لم تجف بعد إن لم يتراجع، لكنه لم يتراجع.. مضى يقدم الدليل لهم تلو الدليل..

ذات يوم وقف أمامهم يناديهم، فلما تحلقوا حوله.. انحنى ومد يديه نحو التربة، فأخذ قليلًا منها، ثم سكب عليه بعض الماء، ثم بدأ يعالجه بأنامله، حتى تحول إلى طين، ولما أصبح الطين متماسكًا، قام بتشكيله على هيئة طير، ثم رفعه لهم، ولما ركزوا أبصارهم فيه، إذ بلون الطين يتغير، وإذ بالطين نفسه يتحول.. قربه من فمه، ثم نفخ فيه.. خيم الصمت على الحضور، ينتظرون نهاية المشهد.

المسيح والمعاناة

رفع المسيح ابن مريم صلى الله عليه وسلم تمثاله الطيني؛ ليراه الإسرائيليون والوثنيون، ولما غرزوا فيه أبصارهم.. قربه من فمه، ثم نفخ فيه، وفجأة تغير لون الطين.. تغير شكله.. كساه الريش، ثم دبت فيه الحياة، فانتفض ريشه، وتحرك رأسه، وفتح عينيه الصغيرتين، وبدأ يتلفت، وكأنه يقول للمتفرجين: آمنوا.

رفع المعجزة عيسى معجزة ربه بيديه أكثر، فإذ بالطير يرفرف بجناحيه ويطير.. يحلق بعيدًا، لتحلق خلفه عقول وأرواح، إلا عقولًا صدئة.. عقول حاخامات الظلام وسدنتها.. شعروا بزلزال يصدع دجلهم.. شاب صادق ونزيه، يفضح استغلالهم للدين وللناس، لذا رموه مباشرة بتهمة تتناسب والمشهد.. التفتوا لجمهورهم وصاحوا كما صاح فرعون من قبل: هذه خدعة قديمة.. هذا سحر مبين وواضح.

سكت المسيح.. أسكته الحزن، ثم غادر المكان ثقيلًا، فالقدس وساكنوها يشهدون أنه ما كذب يومًا.. طفولته تشهد وشبابه.. غادر عيسى المكان، لكن لم يكن لوحده.. أخذ معه بعض القلوب، التي هزتها المعجزة فآمنت.. أصبح له صحابة، وأصبح له أعداء، من تجار الدين.

بدأ المسيح صلى الله عليه وسلم يجدد التوحيد في نفوس أتباعه، ويأمرهم بعبادة الله وحده فقط، ويأمرهم بالقسط والعدل، فلم يتعرض له الوثنيون بداية.. الذين واجهوه هم من قبيلته بني إسرائيل، وبالتحديد هم حاخامات تربطهم بالسلطة البيزنطية الوثنية والنائب البيزنطي مصالح مادية، لذا شرعوا بالتخطيط، لتحطيم المسيح حين رأوا أتباعه يكثرون شيئًا فشيئًا، لأنه كلما آمن به رجل أو امرأة خسر هؤلاء الحاخامات أتباعًا ودراهم يأخذونها منهم بغير وجه حق.. بدؤوا تكرار المماحكات التي مارسها أسلافهم مع موسى والأنبياء قبله، بينما كان المسيح يفحمهم بالمعجزات.

ذات يوم مر على ميت ينوح أهله عليه، فمسحه ودعا ربه سبحانه، فإذ بالميت ينهض مجددًا.. مر بأبرص فشفاه الله على يديه، ناداه أعمى وسأله أن يدعو له بالشفاء فدعا الله، فإذ بالنور يمزق ستار الظلام عن عينيه، لينتقل إلى عالم تزينه الأشكال والألوان.

لم ينسب عيسى شيئًا من تلك الخوارق المعجزة لقدراته الذاتية.. بين لهم أن كل الذي يجري على يديه كان بأمر الله قائلًا: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أدهشت المعجزات طلبة المسيح الحواريين، بل أغرتهم بالمزيد، فتوجهوا يومًا إليه، طالبين منه معجزة تخرس الجميع، وتشمل الجميع، ويلمسها بنو إسرائيل بأيديهم.

مائدة من السماء

توجه الحواريون نحو عبدالله ورسوله عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فطلبوا منه طلبًا غريبًا، وكأنهم يريدون أن يغروا أهلهم اليهود بالتوحيد والإسلام لله، ولما وقفوا أمامه قدموا مطلبهم بصيغة مؤدبة. قدموه على صيغة استفهام: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟.

لم يقولوا: أنزل علينا، ولم يقولوا: اطلب من الله، ومع ذلك أغضب طلبهم عبدالله عيسى صلى الله عليه وسلم فنهرهم، وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وكأنه يقول لهم: أما يكفيكم ما رأيتم من الآيات والمعجزات، ما يثبت لكم أني عبدالله ورسوله، وأن التوحيد هو الحق. ألم تؤمنوا بعد، أم أنكم تنهجون منهج الحاخامات والكهنة المرتزقة، الذين يخشون الحق، لأنه سيوقف تدفق أموال المساكين والمغفلين باسم الدين إلى جيوبهم؟

غضب المسيح ابن مريم صلى الله عليه وسلم من هذا الطلب، فخاف الطلبة من غضب الجبار سبحانه، وقدموا اعتذارهم لله سبحانه، ثم لعبده عيسى ابن مريم، وبينوا أنهم لم يطلبوا ذلك شكًّا في أنه عبدالله ورسوله، ولكن لتقوية إيمانهم، ورفع معنوياتهم، وسط أجواء الإحباط، التي زرعها الروم الوثنيون، وتجار الدين من الحاخامات. قال الحواريون: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

سكت المسيح عبدالله صلى الله عليه وسلم. لم يجبهم، فالأمر ليس بيده، بل بيد خالقه ومرسله، لذا توجه إليه وحده، ودعاه وحده سبحانه، وناشده أن ينزل عليهم مائدة من السماء تسعدهم. ويجعلونها هم وذريتهم عيدًا يحتفلون بذكراها كل عام. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

لم تنزل المائدة مباشرة. نزل وعيد شديد من الجبار سبحانه، لكل من يكفر من اليهود والنصارى، بعد أن يأكل من تلك المائدة ثم يرتد. وعيد شديد يخلع القلوب، حيث قال سبحانه لعبده ابن مريم صلى الله عليه وسلم محذرًا: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وفي اليوم الموعود كان المسيح صلى الله عليه وسلم في المكان الذي حدده له خالقه، وحوله الحواريون وكلهم شوق لمعجزة ربهم، وحول هؤلاء تكدس النصارى المؤمنون واليهود الفضوليون، وفجأة ارتفعت الرؤوس نحو السماء. وارتفعت التأوهات والأيدي، وأشارت الأصابع نحو شيء مذهل يهبط عليهم.

ارتجفت القلوب وفاضت العيون، وهي تتملى مائدة ملونة فاخرة، بما لذ وطاب. مائدة لم تمسها نار، ولم تخرج ثمارها من بين التربة والسماد، ولم يقدد لحمها من ظهور البهائم. مائدة هضيم. ليس فيها عظام، ولا نوى، ولا قشور، ولا جلود، ولا شيء، لا يمكن أكله والتلذذ بطعمه.

مائدة من السماء. أبدعها الله وخلقها كما خلق عيسى ابن مريم. بكلمة واحدة: (كن فيكون).

استقرت المائدة على الأرض. لم يكن هناك تزاحم لاهتبالها. إنها فاخرة جدًّا، وكافية لأولهم وآخرهم، لذا لا داعي للهلع وخشية النفاد.

جلس الجميع حولها. يأكلون والطعم يسافر بهم مع كل لقمة. واللذة تحلق بهم مع كل مضغة، والهمهمات ترتفع، والالتفاتات تعبر عن الدهشة لا تتوقف. سكتت الأفواه المشغولة عن الكلام. تركت التعبير للحواجب التي ترتفع إعجابًا، وللعيون التي يبتسم بعضها، ويفيض بعضها. مائدة جعلت قلوب المؤمنين ترتجف. تثني على الكريم سبحانه على هذه اللوحة الأخاذة، وكان أكثرهم شكرًا هو عبدالله ورسوله عيسى صلى الله عليه وسلم، وكيف لا يكون كذلك، وربه يمطره بمعجزات لم تكن لمن قبله.

شبع الجميع وهم يودون لو لم يشبعوا، أما المائدة فلم ترفع، ولم يكن لها فضلات أو بقايا أو نفايات. تلاشت بعد أن شبع الجميع، وامتلأ الجميع، ثم نهض المسيح، وهو يشكر خالقه وخالق المائدة، وتوجه لقومه راجيًا إياهم أن يؤمنوا، ويلتزموا بتوحيد ربهم، ثم أخبرهم بمصير من يكفر بالله، بعد أن رأوا ولمسوا وأكلوا معجزة لم تكن لغيرهم، وكأنه يقول لهم: إن موائد الجنة أفخر وألذ. فأطاعه المسلمون النصارى، وانسحب الكثير من الإسرائيليين، وكأنهم يقولون: يا له من ساحر.

حزن المسيح لكفرهم، لكنه لم ييأس ظل يدعوهم للتوحيد، يفقههم في دينهم. لكن عيونًا كعيون الشياطين كانت تلاحقه وترصد حركاته.

المسيح وأمشاط الحديد

ظل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم يفقه شعبه الإسرائيلي في دينهم.. يأمرهم بتطبيق التوراة.. ينهاهم عن الشرك بالله وعبادة غيره.. ينهاهم عن صنع تماثيل للمخلوقات، التي تدب على البر، أو تسبح في البحر، أو تطير في السماء. حذرهم من عقوق الوالدين والربا والزنا وأكل الخنزير.

كان المسيح باختصار مصدقًا للتوراة، متبعًا لأحكامها، فبدأ التضييق عليه، حيث لاحظ الحاخامات تزايد صحابته، وانتشار دعوته.. لم يكونوا ضد انتشار التوحيد.. كانوا ضد تفعيل أحكام التوراة، التي تنهى عن الزنا والربا والمكوس وأكل أموال الناس بالباطل، لأنهم يتعايشون على جيوب المغفلين والأتباع السذج، لذا قرروا إزاحة المسيح عن طريقهم.

اتهموا أمه، وقذفوها فلم يفلحوا.. شوهوا سمعته فلم يفلحوا.. لم يبق لديهم سوى حل واحد، هو استعداء الحاكم البيزنطي الوثني السفاح، الذي قتل زكريا ويحيى، ولما بدأت المضايقات قرر المسيح أن يشكل من أصحابه فريقًا، يعتمد عليه بعد الله في نشر الدعوة، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟

سكتت الأغلبية خوفًا، ونطق اثنا عشر رجلًا، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لم يكتف هؤلاء الحواريون بذلك.. توجهوا نحو الله، يشهدونه على بيعتهم،

ويقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾، لكن عيونًا كعيون الشياطين كانت تلاحقهم، وترصد حركاتهم وتدرسها، ثم تتوجه لنائب الإمبراطور البيزنطي، لتقدم تقاريرها الشيطانية له.. قدموا تقارير تدين المسيح صلى الله عليه وسلم، وتتهمه بالسعي للسلطة، وإذ بالحاكم الوثني يصدر أمرًا بالقبض عليه لإعدامه.. انتشر العسكر يستجوبون أنصار المسيح الموحدين، فخلت شوارع القدس من عيسى.. اختفى المسيح صلى الله عليه وسلم وتوارى عن أعين الحاخامات وسياط العسكر.. لم يعد يراه أحد.. فقد جمع تلاميذه الحواريين وأخبرهم بعزمه على الانسحاب من المشهد، ريثما يخف الضغط، أو يجد بلدًا بديلًا، فهو بشر، ولا طاقة له بهذا البطش الوثني، لذا أخذ تلاميذه، وصعد بهم مرتفعًا يتناوبون في النزول والتزود بالطعام.

بكت القدس أطهر شبابها، وبكت مريم حبيبها وابنها، فلم يرف للجند جفن، ولم تلن قلوب الحاخامات، التي وصف الله أسلافها، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، ظل الأشرار يراقبون ويبحثون، حتى عثروا على خاصرة رقيقة، يمكن تسديد طعنة للمسيح من خلالها.

التلميذ الخائن

مر عبدالله ورسوله المسيح صلى الله عليه وسلم باضطهاد، مر به الموحدون قبله، اضطهاد بلغ درجة مفزعة لا تطاق، وهي كشط الجلد واللحم بأمواس على شكل أمشاط، حتى قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم إن المؤمن منهم «ليمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه»[56].

اختفى المسيح لكن الوثنيين لم يقبضوا على تلاميذه، فهم الوسيلة الوحيدة للوصول إليه.. ظل الأشرار يرقبون بعض تلاميذ المسيح، يتسوقون هنا أو هناك.. حاولت إغراءهم وتهديدهم، فلم تجد آذانا صاغية، وفي أحد الأيام صادفوا تلميذًا من تلاميذ المسيح، اسمه يهوذا الإسخريوطي.. اقتربوا منه.. هددوه فلم يلن للضراء، وأغروه فانهار للإغراء.. سال لعابه للمبلغ الذي قدموه له، فوافق بعد إلحاح على أن يدلهم على مكان المسيح.

لم ترق فكرة الوصف والإحداثيات للحاخامات والروم الوثنيين.. أرادوا خطة لا تثير التلاميذ، ولا تلفت انتباههم. فطلبوا أن يقودهم (يهوذا) بنفسه نحو المسيح، بحيث يدخل الغرفة التي يختبئ بها، فيداهمونها بعده، فوافق تحت إغراء بريق الذهب أو الفضة، وفي اليوم المحدد تجهزت فرقة المطاردة العسكرية، فجاء يهوذا، وطلب منهم أن يسيروا خلفه، بمسافة حتى لا يراهم التلاميذ، ثم بدأ بالمشي في ساعة من الليل متأخرة.

سار وسار والجنود يرصدونه.. تسللوا كالحيات بين الصخور والأغصان.. يكمنون هنا، ويتهامسون هناك.. ظلوا يصعدون، ولما أشرفوا على المكان كان المسيح ابن مريم وأصحابه عليه السلام قد ناموا.. لم يدر بخلدهم أن صاحبهم قد وقع ضحية إغراء المال.. لم يدروا أنه الآن في الطريق يقود فرقة مطاردة، للقبض على نبيهم المسيح، وتسليمه للسلطة الوثنية.

دبت الوحوش الشريرة نحو الغرفة كالعناكب السامة. هنا تقدم يهوذا وحده كي لا يثير ذعرهم.. تقدم ليعانق نبيه، فيدخل الجند، فيقبضون عليه، أما المسيح ساعتها فكان على الأرض، لكنه كان في عالم آخر. لم يكن نائمًا. كان عالمًا من المشاعر.

اختلطت لديه مشاعر الحزن على فراق أمه الحبيبة، وصحابته المخلصين، وأتباعه المضطهدين.. بمشاعر مختلفة تمامًا.. مشاعر السعادة والاستعداد لرحلة المعراج النورانية المذهلة، فقد هبط الملاك، الذي بشر أمه والعالم به.

هبط جبريل دون أن يشعر به التلاميذ.. نظر إلى المسيح نظرة من يقول: حان موعد الرحلة يا ابن مريم، ونظر المسيح نظرة المودع لأحبابه النيام، ثم اقترب منه جبريل، وأخذه، وعرج به عاليًا نحو السماء، وفجأة استيقظ التلاميذ وهم في حالة خوف وفزع.

وداعا أيتها الأرض

استيقظ التلاميذ واحدًا واحدًا على وقع أقدام شخص، يمد يده نحو وجوههم، يتصفحها واحدًا واحدًا، على وميض السراج. لكن الذي أصابهم بالذهول هو أن المسيح كان ينادي نفسه بصوت منخفض.

لم يكن المسيح.. إنه يهوذا، والتلاميذ ينظرون إليه باستغراب. لا يدرون ما سر تأمله لوجوههم وهمسه لنفسه. تصفح كل الوجوه، إلا وجه المسيح، لم يعثر عليه.. لم يدر أنه في الملأ الأعلى في السماء، وبين الملائكة، وأن الله أنقذه من كيد الحاخامات وسيوف الوثنيين.

انتهى يهوذا من تصفح الوجوه، بعد أن استيقظ الجميع.. لكن التلاميذ حدقوا به باستغراب.. لا يدرون سر تأمله لوجوههم، وهو قد رقد معهم قبل قليل.. كان الوضع مرتبكا.. ساد الصمت، وتكلمت العيون.. هم يحدقون به، دون أن يتكلموا إجلالًا له وهيبة، وهو يتساءل عن سر صمتهم.

وفجأة علا الضجيج.. داهم الجلاوزة الوثنيون المكان.. تصحبهم صلصلة السلاسل والسلاح والصراخ، يبحثون عن يهوذا الذي سيعانق المسيح المطلوب الأول للإمبراطورية البيزنطية.. علا صراخ قائد الجند، وهو ينادي يهوذا، ويبحث عنه فلا يجده، ويهوذا ينظر إليه وهو يكاد يجن، والتلاميذ ينظرون إلى يهوذا، فيزداد جنونه، وهو ينصت لصراخ التلاميذ، يقولون له: اهرب يا رسول الله، اهرب. اهرب يا عيسى، ويهوذا يقول: لست المسيح.. أين ذهب المسيح أنا يهوذا؟

تعقد المشهد، فهناك أحد عشر شاهدًا يشيرون إليه على أنه المسيح، فأين اختفى يهوذا الخائن؟

قبض الجند على المسيح الذي أمامهم، وهم لا يدرون أنهم يقبضون على دليلهم الخائن (يهوذا الإسخريوطي)، الذي عاقبه الله، فألقى عليه آخر معجزات نبيه عيسى صلى الله عليه وسلم.. ألقى عليه صورة المسيح، فتم اعتقاله، على أنه المسيح، أما المسيح الحقيقي، فعرج به جبريل عليه السلام، ورفعه نحو السماء، ليبقى هناك حتى الموعد المحتوم.

حزنت أمه مريم البتول، لكن الله سبحانه ربط على قلبها، ولا بد أنها قد علمت بحقيقة ما جرى فأخفته، لكن شوق الأم لحبيبها ظل حتى ماتت.. تتذكره كلما رأت محرابه وغرفة نومه.. كلما رأت ثيابه وبقايا طفولته.. كلما مرت بغرفتها الشرقية، أو بتلك النخلة التي تساقطت عليها رطبًا جنيا في ذلك المكان القصي، حيث ولدته.

عبر هذا الطريق حملته، وفي هذا الطريق المقدسي حاصرتها الألسن والاتهامات، وهنا نطق رضيعها، فانقشعت عنها غمامة الظلم والاتهامات.. هنا كان يلعب المسيح مع يحيى، وهنا كان يدرسهم زكريا.. من هنا كان يصحبها إلى بيت المقدس، وهنا فاضت عيناها، وهي تراه نبيًّا ينشر التوحيد ويدعو للعدل.

رحل عبدالله ورسوله عيسى.. توفاه الله، لكنه لم يمت، فما الفرق بين الوفاة والموت؟

المسيح بين الوفاة والموت

رحل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم.. رفعه الله إلى السماء.. توفاه الله، لكنه لم يمت، فما الفرق بين الوفاة والموت؟

الوفاة حالة من الغياب تشبه النوم أو الإغماء، أما الموت فحالة مفارقة تامة للروح للجسد الذي يتحلل بعدها، فخالق الأنفس والأرواح سبحانه، يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾، ثم يبين الفرق بين الحالتين، فيقول جلَّ وعلا: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

اختفى عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عن وجه الأرض، وبكاه تلاميذه المخلصون، وبكاه أتباعه، وأُسدل الستار على آخر أنبياء اليهود بني إسرائيل، بينما كان الجنود يسحبون يهوذا الخائن، نحو السجن على أنه المسيح.. أدخلوه في زنزانة بانتظار الحكم عليه، وبعد أيام صدر الحكم بإعدامه صلبًا.

وفي اليوم المحدد أخذ نحو الموقع، ثم شد على الصليب، ودقت المسامير في يديه وقدميه، ثم أنزل في اليوم اللاحق، ثم وضع في غرفة تحت الأرض على أنها قبر، ليكتشف الناس أن جثته اختفت.. هنا تحيروا.. أين ذهبت جثته؟

هل اكتشف الرومان أنه الرجل غير المطلوب، فأخرجوه خشية الفضيحة.. لا أحد حتى اليوم يستطيع إثبات شيء من ذلك.

اختفى عيسى عن الأرض، واختفى معه الإنجيل، فهو لم يحدد تلاميذًا يكتبون الإنجبل والوحي، كما فعل النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع القرآن، والمسيح أيضا لم يأمر بحفظ الإنجيل في الصدور والسطور، كما فعل النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع القرآن، كما أن المسيح لم يجعل للحافظ الأولوية في إمامة الصلاة، كما فعل النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

اختفى عيسى صلى الله عليه وسلم وهو يعبد الله وحده، ويصلي ويصوم لله حده لا شريك له.. ويعترف أن معجزاته منه سبحانه.

كان مختونًا، ولم يأكل الخنزير، كما نهى أتباعه عن صنع التماثيل والأصنام، فما الذي حدث بعد رحيل المسيح وجعل النصارى يكدسون التماثيل في الكنائس ويأكلون الخنزير؟ من الذي أمرهم بترك الختان؟ وقبل ذلك كله، والأخطر على الإطلاق: من الذي أمرهم بعبادة المسيح نفسه وعبادة جبريل معه؟

أسئلة يجيب عليها ذلك المخبر والسفاح اليهودي الذي تقطر يداه دما، وهو يسوق مجموعة من الأبرياء النصارى، ليعدمهم بأمر من الدولة الرومانية الوثنية.. مجرم أزعجه انتشار التوحيد النقي.. لم يشف غليله اختفاء عيسى، والهدف من اختفائه قد فشل، فها هو التوحيد ينتشر، والمتآمرون يشعرون بالإحباط.. هنا لا بد من الانتقال للخطة البديلة.

الخطة البديلة وشيطانها

اختفى المسيح، ومع ذلك ظل التوحيد ينتشر، والمتآمرون يشعرون بالإحباط بعد فشل مخططهم.. هنا كان لا بد من الانتقال للخطة البديلة، وهي خطة، لا تستهدف الأشخاص، فقد ثبت أن استهداف الأشخاص واضطهادهم، يكسبهم شعبية وأتباعًا جددًا، ويحرض الناس على السؤال والاستقصاء عنهم، ثم اعتناق أفكارهم.

الخطة البديلة كانت من إبداع مجرم من شعب المسيح.. من بني إسرائيل أنفسهم اسمه (شاءول)، وهو عميل للروم، وكانت مهمته هي التجسس وملاحقة الحواريين وبقية المسلمين من أصحاب

عيسى صلى الله عليه وسلم.. يتتبعهم في فلسطين.. يلاحقهم في القدس.. في أي مكان يسمع بهم، ثم يقبض عليهم، ويشحنهم ليتم إعدامهم في دمشق، ثم ماذا؟

تعب شاءول، فكلما أعدم نصرانيًّا موحدًا على دين المسيح أسلم عشرة.. ضاعت جهود شاءول، فاجتمع مع أسياده، وقرر تنفيذ خطته البديلة، وهي نسف دين عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم من الداخل، ولن يكون ذلك إلا بنسف التوحيد، وسينفذها على خطوات:

الخطوة الأولى مرحلة يمارس فيها النفاق والتظاهر بالتقوى والورع لمدة أشهر، حتى صدقه بعض النصارى، فأقبلوا عليه يسألونه: ما الذي غيرك يا شاءول؟ ما الذي حولك من مجرم سفاح إلى ملازم للمحراب؟

هنا بدأ شاءول بالخطوة الثانية، وأزاح الستار عن مسرحيته، التي غيرت العالم.. وأطلق كذبته التي دمرت التوحيد في نفوس الملايين من المسيحيين.. قال لهم: إنني كنت ذات ليلة في الطريق إلى دمشق، أسوق مجموعة من أتباع عيسى الموحدين الأبرياء لإعدامهم، وفجأة دوى هزيم رعد، وبرق أصابني بالعمى، وزلزلني، وشلني عن الحركة، فسقطت على الأرض، وإذ بصوت يصيح بي: يا شاءول.. يا شاءول لماذا تضطهدني وأنت نبي؟

رفعت رأسي نحو مصدر الصوت، فإذ به يطلب مني أن أذهب إلى قس اسمه حنانيا.. نهضت خائفًا، ومشيت حتى وجدت من يدلني عليه، فذهبت إليه، وأخبرته بما جرى لي، فمسح عيني، فسقط منها مثل القشور، وعاد لي بصري!

انطلت هذه الكذبة على الجهلة والسذج، بينما ظل كثيرون متشككين مرتابين، هنا.

بدأ شاءول بممارسة النفاق، أي التظاهر بالتخلص من ماضيه الأسود، وكان أول ما تخلص منه هو اسمه. استبدل اسم (شاءول) باسم جديد هو (بولس الرسول). خطوة تعاطف البعض معه بعدها، وصدقوا أنه رسول.

بعدها.. بدأ بتنفيذ خطوته الثالثة، وهي الأخطر، لأنها دمرت العقيدة المسيحية حتى اليوم.

الخطوة الأخطر لشاءول

في أحد الأيام دعا شاءول النصارى المصدقين له، والمرتابين منه للاجتماع، فانطلقت الخطوات نحوه.. كانت العيون مشدودة، والقلوب تخفق بانتظار جديده، وإذ به ينطق كفرًا بكل رسالات السماء.. كفرًا بكل رسالات الأنبياء.

بصق (شاءول بولس) أمام الجمهور المتحلق حوله أكبر أكذوبة في التاريخ، فقال لهم: إنه مر بطريق دمشق مرة أخرى. ذلك الطريق الذي ادعى أن المسيح ظهر له فيه، وكان الوقت ليلًا أيضًا، وإذ بالرعد يقصف في الأجواء كتلك الليلة أيضًا، وإذ بالمسيح يظهر أيضًا ويقول له:

يا شاءول.. يا شاءول. اذهب لأتباعي وأخبرهم أني نسيت، وأن كل الأنبياء قبلي نسوا أيضًا. كلنا نسينا أن نخبر العالم أنني ابن الله.

انفجر المكان بالاحتجاج.. بصيحات الاستهجان على هذه الوثنية، ودبت الفوضى حول الدجال، وكفر الحواريون بهذا الإفك، الذي﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴾، لكن النصارى كبقية شعوب الأرض.. منهم المؤمن قوي العقيدة، ومنهم الساذج والأبله، الذين صدقوا هذا الأفاك المدعوم من الوثنيين، وحاخامات اليهود، فأصبحوا أتباعًا له.

مرت الأيام فبدأ (بولس. شاءول) الدجال يواصل تنفيذ مخططه في غيبة الإنجيل الصحيح.. بدأ بالعبث بأحكام التوراة والإنجيل.. أباح لأتباعه أكل الخنزير.. أباح لهم ترك الختان، وفي النهاية تمكن شاءول من تصميم دين جديد.. صمم دينًا أقرب للوثنية، فهو متعدد الآلهة.. دين لا يبالي بالذبح باسم الله، ولا بأكل الخنزير، الذي حرمه المسيح نفسه، ولم يبال بسنن الأنبياء منذ إبراهيم عليه السلام وهي الختان، لا سيما والكتاب المقدس كثيرًا ما يعير الوثنيين بأنهم (غلف).

ظل (شاءول. بولس) يتوسع في البدع لدينه الجديد، ليخترع لهم إلهًا جديدًا، ويضيف إلهًا ثالثًا هو الملاك جبريل عليه السلام، بل وتتكاثر الأناجيل يومًا بعد يوم من إنجيل واحد إلى أكثر من مائتي إنجيل متناقضة.

الكارثة هنا أنها تحتوي على أكثر من عشرين ألف خطأ باعتراف القساوسة اليوم[57].

استمر الحواريون تلاميذ عيسى الأنقياء على منهجه بعد رحيله.. استمروا بنشر التوحيد هم وتلاميذهم، وقد كانوا يشكلون الأكثرية النصرانية الساحقة لأكثر من ثلاث مئة عام، حتى جاء ذلك اليوم الأسود، الذي حكم فيه إمبراطور بيزنطي، اسمه (قسطنطين)، وهو الذي بنى القسطنطينية،

وسميت المدينة باسمه، فقد كانت أمه المسماة (هيلانة) قد اعتنقت عقيدة (شاءول بولس)، وإذ بابنها قسطنطين يقلب المسيحية، ويغيرها بحد سيفه.

الدين الذي أطفأ الأنوار في أوروبا

ظل (قسطنطين) على عقيدته الوثنية، يعبد آلهة وأصنامًا متعددة.. إلهًا للحرب، وإلهًا للمطر، وإلهًا للخصب، وهكذا، لكنه تعاطف مع عقيدة أمه وهي عقيدة (شاءول)، وبدأ يناصر اتباعها، لأنها لا تتناقض مع وثنيته ذات الآلهة المتعددة.

وفي أحد الأعوام، وبالتحديد في عام ثلاث مئة وأربع وعشرين (٣٢٤م)، وبعد أن انتشرت النصرانية الإسلامية التوحيدية (عقيدة المسيح وعقيدة كل الأنبياء) انتشارًا كبيرًا قرر هذا الإمبراطور أن يفرض عقيدة أمه (الأرثوذكسية) بالسيف، ولكن بطريقة ذكية توحي بالإنصاف، لأنه يشعر بالقلق تجاه الأكثرية المسيحية، التي تؤمن أن الله واحد أحد، سبحانه لا شريك له.. لم يلد ولم يولد، وأنه ليس كمثله شيء.

قرر قسطنطين أن ينصر عقيدة أمه، لذا أصدر أمرًا بجمع قساوسة الأرض في مدينة (نيقية) الواقعة على بحيرة نيقية على أرض الأناضول، ليتباحثوا ويدرسوا ويتناقشوا، ثم يقرروا أي العقيدتين أصح: عقيدة المسيح، أم عقيدة بولس الدجال؟ انطلق رسل الدولة البيزنطية.. يعبرون الفيافي والقفار، ويشقون البحار والأنهار.. يحملون رسائل الإمبراطور إلى كبار قساوسة ورهبان العالم في ذلك الوقت.

وصلت الرسائل، فرحب بها القساوسة النصارى، وشدوا الرحال نحو نيقية ظنًا منهم أن مؤتمرًا علميًا حرًا في انتظارهم.. أمضوا أيامًا وأشهرًا للوصول.

وفي شهر مايو من عام 325 للميلاد، وصل أكثر من ألف ومئتين من قساوسة الأرض، فبدأت جلسات المؤتمر في العشرين من مايو، وأدلى كل عالم وراهب بدلوه في أخطر قضية مسيحية وهي هل المسيح إله أم بشر؟

تكلم أتباع (شاءول بولس) وهم الأرثوذكس وكان ق بثرثرة عجزوا فيها عن تقديم دليل على ألوهية المسيح، ثم تكلم أتباع عيسى ابن مريم فأفحموهم، وأثبتوا أن المسيح مجرد نبي ورسل كريم، ولا يتميز عن بقية الرسل إلا بمعجزة خلقه. وكان إمام هؤلاء الموحدين هو العالم والقس (إريوس).

ظن الجميع أن المسألة قد حسمت للتوحيد، ولكن.

صُدم قسطنطين بنتائج المؤتمر، فقد كان ألف قس، وهم الأغلبية الساحقة على دين المسيح، يقولون: إن الله واحد أحد، لا شريك له، ولا ولد له، وأن عيسى نبي من الأنبياء، وخلق من مخلوقاته، وكان إمام هؤلاء الموحدين قس اسمه (إريوس)، أما الأقلية فكانوا على دين (شاءول بولس) الأرثوذكسية، أي يقولون: إن عيسى ابن الله. وكان قائدهم هو بابا الإسكندرية، واسمه (الكسندروس الأول).

صدم قسطنطين الوثني بنتائج مؤتمر نيقية.. تلفت فوجد أن الأغلبية الساحقة عكس توقعاته.. كلهم موحدون على دين التوحيد.. دين عيسى ابن مريم، وحدق بالأقلية، فإذا هي على دين شاءول، الذي اخترع فكرة أن عيسى ابن الله، وسمى نفسه (بولس الرسول).

غضب الإمبراطور وهو يرى دين أمه دينًا للأقلية، وبعد انتهاء المؤتمر قرر إرغام الأكثرية على دين (بولس)، وكأن النصرانية اختراع بشري، يخضع لمزاج الحاكم.

أصدر أمرًا بملاحقة الأكثرية، الذين لا يعترفون بألوهية المسيح، وأشهرهم القس (إريوس)، فانطلق الجند لمطاردتهم، وبدأت محاكم التفتيش الفظيعة، تبحث عن كل من يقول: لا إله إلا الله. لتبطش به سحلًا ونحرًا، وطالت المطاردات والتصفيات اليهود والفلاسفة أيضًا؛ لتدخل أوروبا عصور ظلمات وقمع، لا مثيل لها، حتى في العصور الوثنية.

عصور لم تفق منها إلا على يد محمد صلى الله عليه وسلم.

عصور أوروبا المظلمة

على يد الطاغية الوثني (قسطنطين) ولدت أول دولة مسيحية شاءولية، وبقوة السيف بدأ فرض دين (شاءول بولس) الأرثوذكسي، ومعه بدأت عمليات إحراق الكنائس المخالفة للأرثوذكسية، ونفذت الإعدامات بحق المثقفين والفلاسفة، وسالت دماء الأبرياء، فقسطنطين هو أول حاكم لأول دولة تحكم باسم المسيح. هي أول دولة تنفذ أمر المسيح الذي يقول في أحد الأناجيل: (أعدائي هم الذين لا يرضون أن أكون ملكًا عليهم. هاتوهم واذبحوهم قدامي).

بل إن قسطنطين قام عام (335م) ببناء عاصمة مسيحية أرثوذكسية على أنقاض مدينة (بيزنطة) الوثنية، وسماها (القسطنطينية) حيث هدم كل المعابد فيها، ولم يسمح إلا ببناء الكنائس الأرثوذكسية، التي تدين بدين أمه، وهو دين (شاءول بولس).

في هذا التاريخ بالتحديد، وانطلاقًا من القسطنطينية. قامت هذه الدولة بإدخال أوروبا في عصور الظلام، التي تسمى القرون الوسطى. عصور امتدت لألف عام، فاضطر المسيحيون الموحدون إلى الانزواء في الصوامع والانكفاء على الذات، أو الهروب، أو التظاهر بالأرثوذكسية.

ظل هذا الحكم مرعبًا للمسيحيين الموحدين ولليهود وللفلاسفة، حتى بعث الله النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، حيث اعتنق الكثير من الموحدين الشرقيين الإسلام، وشعر اليهود بالأمان. أما في أوروبا، فأوروبا ظلت غارقة في الظلام، ولم ترفع رأسها منه إلا بعد عام ألف وأربع مئة وثلاث وخمسين للميلاد (1453م) على يد حملة القرآن.

هذا العام بالضبط هو الذي حدده المؤرخون، والمثقفون الأوروبيون لبدء عصر النهضة الأوروبي، وهو بالتحديد تاريخ تحول القسطنطينية، من أول عاصمة للمسيحية، إلى عاصمة إسلامية، حيث تحولت إلى منار لكل أوروبا، بعد أن كانت قبوا لمحاكم التفتيش الأرثوذكسية.. كانت نفقًا كنسيًّا قبعت فيه أوروبا أكثر من ألف عام.

ولذا أرخ المؤرخون الأوربيون عصر النهضة بدخول القرآن للقسطنطينية، حيث انطلقت ثورة على المسيحية للمسيحية نفسها. ثورة قادها قس ألماني يدعى (مارتن لوثر)، والذي تأثر بتعاليم الإسلام.

تأمل (لوثر) الإسلام فلم يجد فيه رجال دين. لا بابا ولا حاخامات أو كرادلة أو بطارقة أو قساوسة، أو حتى رجال دين يبيعون صكوك غفران. أو كهنة يغفرون لمن يشاءون ويحرمون من يشاءون.

هنا تمرد لوثر على رجال الدين، فرفض وجود بابا.. رفض أن يكون للقس الحق في أن يغفر للناس، بل أراد أن تكون قراءة الكتاب المقدس متاحة للجميع، كما يتاح القرآن للجميع، وليس حكرًا على القساوسة.

لكن هذا الإنجاز العظيم كان ناقصًا.. كان قاصرًا على نقد آلية عمل الكنيسة، لكنه لم يصل إلى أعماق الدين المسيحي. لم يحاول البحث عن الإنجيل الأصلي، أو الأقرب للصواب، فالله أنزل إنجيلًا واحدًا، وهم الآن لديهم أكثر من مائتي إنجيل، يناقض بعضها بعضًا، وكل إنجيل منسوب لمؤلف من البشر غير الآخر. فسبحان من حفظ القرآن بنفسه، وقال:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

إنه القرآن الذي أيقظ أوروبا، فتخلت عن سلطة رجال الدين والتخلف. الذين يأكلون أموال الشعوب باسم الله سبحانه وتعالى عما يقولون، وحاشا المسيح الذي عاش مناضلًا أن يكون كما يصوره هؤلاء.

المسيح هو أخو محمد عليهما السلام، وربهما واحد، ودينهما واحد، وهو التوحيد، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾، ورسالتهما بعد التوحيد هي العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

محمد صلى الله عليه وسلم بعد فترة من الرسل

على يد الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين) وبقوة السيف، بدأ فرض دين (شاءول بولس) الأرثوذكسي، ومعه بدأت عمليات إحراق الكنائس المخالفة للأرثوذكسية، كما نفذت الإعدامات للمثقفين والفلاسفة، وسالت دماء الأبرياء على يد أول دولة للمسيحية، ولم يسمح إلا ببناء الكنائس الأرثوذكسية.

في هذا التاريخ بالتحديد، وانطلاقًا من القسطنطينية.. قامت هذه الدولة بإدخال أوروبا في عصور الظلام، التي تسمى القرون الوسطى.. عصور امتدت لألف عام، فاضطر الموحدون إلى الانزواء في الصوامع والانكفاء على الذات، أو الهروب، أو التظاهر بالأرثوذكسية.. ظل هذا الحكم مرعبًا للمسيحيين الموحدين ولليهود وللفلاسفة، حتى بعث الله النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، حيث اعتنق الكثير من الموحدين الإسلام، وشعر اليهود بالأمان، وذلك بعد فترة من الرسل، أي بعد فترة دامت أكثر من ست مئة عام من رفع آخر الأنبياء الإسرائيليين إلى السماء، وهو المسيح صلى الله عليه وسلم.

وقد كان ذلك بعد أن بشر أصحابه وشعبه الإسرائيلي بنبي يأتي من بعده، هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

رفع المسيح وهو حزين لجحود قومه وتكذيبهم له.. بعده خلت الأرض من الرسل، وازداد تشظي الديانات السماوية، حتى اختلط بعضها بالوثنية.. نسي أهل الأرض خالقهم العظيم.. خالق السموات والأرضين، وتعلقوا بأخشاب وأحجار وأشجار وفئران وحيات وأبقار، يعبدونها من دون الله،

كانت الجزيرة العربية قد تحولت إلى الوثنية بالكامل.. حتى مكة معقل التوحيد.. أصبحت أسيرة للوثنية، أما كعبتها التي بناها إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فكانت تئن من الشرك، حيث قام الوثنيون بتحويلها إلى طاولة، توضع على ظهرها أصنامهم، التي بلغت ثلاث مئة وستين صنمًا.

في تلك الفترة كان في مكة فتاة حزينة على فراق حبيبها، وزوجها الذي توفي وتركها وهي في أشهر حملها الأول، مما جعل حزنها يزداد على جنينها الذي سيولد يتيما، ولن يرى في هذه الدنيا أباه، لكن وفي إحدى لياليها تلك رأت في نومها شيئًا أبهجها.

رأت نورًا عظيمًا ينبعث منها، وكأنه شمس، أشرقت على الجزيرة العربية، حتى أضاءت قصور الشام وقلاعها[58].. استبشرت الفتاة (آمنة بنت وهب) بتلك الرؤيا، واطمأن قلبها على حملها، ولما أصابتها آلام المخاض القاتلة.. أذهلها الألم عن الدنيا، ولم يخفف تلك الآلام إلا رؤية طفلها الجميل محمد بن عبدالله بن عبد المطلب.. يوضع بين يديها الحانيتين.

من المولد إلى التكذيب

انزاحت آلام (آمنة) بجمال محمد، كما انزاحت آلام مريم عند نخلتها، وكان من عادة بعض بيوت مكة استرضاع أطفالهم في البادية، فأرسلوه مع مرضعة طيبة اسمها حليمة السعدية، حيث بادية هوازن الجميلة، ثم عاد إلى آمنة ليؤنس وحشتها، لكن فرحته بها لم تدم.

ماتت آمنة مخلفة جرحًا في قلبه لم يندمل، فتولى رعايته جده عبد المطلب، ليتجاوز سن المراهقة دون أن يعرف بطيش أو سفه أو وثنية.. اشتغل برعي الغنم في شبابه مقابل دراهم معدودة، ومارس في شبابه السفر للتجارة.

لكن سفره الأبعد، والأطول، والأجمل، فكان عبر معارج التأمل، والسياحة في الكون، والتفكر في خلق الله سبحانه. كان محمد موحدًا ينفر من الأصنام، ويأبى عبادتها، ولما تجاوز العشرين بسنوات، أعجبت به أعقل امرأة في
قومه.

امرأة اسمها خديجة بنت خويلد، وكانت أكبر منه سنًّا، فعرضت عليه الزواج أو عرض عليها، وتحققت أمنيتها فرزق منها بأربع زهرات: رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة.

اقترب محمد من الأربعين، فأصبح أكثر تأملًا، وحبًّا وتوقًا للخلوات بربه.. يبث مناجاته لله وحده، بعيدًا عن ثقافة الأصنام، وإذ به يرى أشياء، ويسمع أصواتًا لا يجد لها تفسيرًا، مما حدا به إلى البحث عن مكان يمارس فيه مناجاة خالقه، بعيدًا عن لوثات الوثنية.

وجد غارًا في جبل اسمه حراء، فجعل منه مكانًا للتعبد، يقضي فيه أيامًا وليالٍ، وفي ليلة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين قبل الهجرة، وبينما كان في الغار، إذ به يرى طيفًا يدخل عليه، ويعانقه، ويأمره قائلًا: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.

كررها هذا الزائر الغامض ثلاث مرات، ومحمد ساكت لا يدري ما يقرأ، ثم تلا الشخص الغريب عليه كلام ربه قائلًا: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، ثم أفصح له عن هويته وعرفه بنفسه وأخبره أنه الملاك جبريل، ثم بشره بالنبوة!.

انحدر محمد صلى الله عليه وسلم خائفًا من الجبل، يتصبب عرقًا وحيرة، ولما دخل على حبيبته، طلب أن تغطيه، وأخبرها الخبر، لكن الزوجة العاقلة استبشرت خيرًا، وقدمت له أكبر دفعة معنوية. حين بشرته بأن الله لن يخزيه، لأنه رجل فذ في أخلاقه. صادق في حديثه. يكرم الضيف، ويغيث الملهوف، ويعين الناس على مصائبهم. قائلة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[59].

غفا محمد صلى الله عليه وسلم على تلك الوسادة الفاخرة من الخلال، والصفات الحميدة، لكن خديجة لم تكتف برفع المعنويات، فقد نهضت في الصباح، وأيقظت زوجها وطلبت منه أن يصحبها، فوافق فتوجهت به إلى شيخ كبير من أقاربها، وكان من العباد النصارى الموحدين، واسمه ورقة بن نوفل، فأخبره محمد صلى الله عليه وسلم بما جرى له، فبشره ورقة أن الذي هبط عليه.. هو الملاك الذي نزل على النبي موسى صلى الله عليه وسلم.

بعد أيام. ظهر الملاك جبريل ثانية لمحمد، وبشره بالنبوة مجددًا، فانطلق صلى الله عليه وسلم إلى بيته، وأخبر زوجته الطيبة خديجة فأسلمت ، وأسلمت بعدها بناته، وابنه بالتبني زيد بن حارثة، وصديقه أبو بكر الذي سمي بالصديق لتصديقه مباشرة، فهو لم يعرف عنه كذبًا، وبعد أسابيع نزل الملاك جبريل فأمره بإعلان نبوته والبدء بقبيلته، وتلا عليه قول الله تعالى له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

نهض النبي محمد صلى الله عليه وسلم مباشرة وتوجه نحو المسجد الحرام، لكنه لم يذهب للكعبة، بل توجه إلى جبل صغير على ضفاف المسجد اسمه جبل الصفا، ثم صعده وأشرق عليه كالشمس، وبدأ يهتف بفروع، وأسر قبيلته قريش ويقول:

«يا بني فهر.. يا بني عدي». إلخ. إلخ.

أنصت الناس للصوت المرتفع، فتداعوا نحوه وأقبلوا، فإذا هو صوت الرجل الصادق الذي كانوا ينادونه بلقب انتزعه من احترامهم وقلوبهم.. لقب الأمين، وما دام الأمين هو من يهتف، فلا بد أن الأمر خطير، لذا أقبلوا وكلهم شوق لخبره، وتحلقوا حول الجبل، لدرجة أن (الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولًا لينظر ما هو) وعندما اصطك الجبل بحلقة من العيون المفتوحة والقلوب المرتجفة والآذان المنصتة. لم يخبرهم محمد الأمين بالأمر؟

بل طرح عليهم أولًا سؤالًا، لينتزع من إجابته اعترافًا موثقًا بمئات الشهادات أنه أصدقهم على الإطلاق، فهتف بهم وقال: «لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟».

عندها هتفوا جميعًا: (نعم)، ولم يكتفوا بنعم.. قدموا لابنهم محمد سبب ثقتهم به. قدموا له تزكية بالإجماع قائلين: «ما جربنا عليك إلا صدقًا».

هنا أعلن النبي محمد صلى الله عليه وسلم خطورة رسالته والأمانة التي يحملها، فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». وإذ بعمه الشقي أبي لهب، والذي زكى قبل ثوان ابن أخيه محمدًا أعظم تزكية. إذ به يصرخ كالأحمق، ويقول: «تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟»[60].

انتفض بعده عشاق الظلام وسدنة الأصنام فرفضوا التوحيد، وأولهم عمه هذا. صاحب الاسم الوثني: (عبد العزى بن عبد المطلب) الملقب بأبي لهب، وتابعه حاقد من أقرانه، يكنى بأبي جهل، لكنه صلى

الله عليه وسلم لم يكف عن الدعوة.. أمضى معهم ثلاث سنوات مريرة من الدعوة والمعاناة، لم يسلم خلالها إلا عشرات.

حينها أدرك صلى الله عليه وسلم أن بيئة مكة الوثنية طاردة، فتوجه في دعوته للخارج.

أول شخص يشيد دولة بعقد

أدرك النبي صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث سنوات مريرة من الدعوة للتوحيد والعدل: أن بيئة مكة الوثنية طاردة، فتوجه بدعوته للخارج عن طريقين.

إما التوجه بنفسه للمدن القريبة من مكة كالطائف.

أو انتظار القادمين من خارج مكة، لأداء الحج أو العمرة.

كان عليه السلام يبصر الجميع بالتوحيد.. ينشر الوعي بينهم، لكن عمه (أبا لهب) لم يتركه، ولم يكتف بتكذيبه.. ظل يلاحقه كظله.. يشوش عليه.. يكذبه، ويؤذيه بألفاظ بذيئة، وهو لا يلتفت إلى ذلك الظلامي الحاقد.

يئس أبو لهب وأمثاله من الطغاة من إيقاف دعوته، فعرضوا عليه المال والمنصب والنساء، كي يتراجع، لكنهم كمن يطلب من الشمس أن تعود من حيث أتت.. ظل صامدًا، حتى تفاقم حقدهم؛ لدرجة أن حاول طاغوت اسمه عقبة بن أبي معيط أن يقتله خنقًا بثوبه، وهو ساجد لربه عند الكعبة، فأنقذه أبو بكر، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾.

ومرة أراد الطاغوت الآخر (أبو جهل) إهانة النبي صلى الله عليه وسلم، فطلب إحضار مشيمة ناقة، ليلقوها على ظهره وهو ساجد داخل المسجد الحرام، فعلمت ابنته فاطمة بذلك، فأقبلت حزينة حتى أزاحتها عن ظهره[61].

هكذا أفقدهم حقدهم احترام ميزتهم بين العرب وهو المسجد الحرام، وبعد عشر سنوات من المعاناة والتكذيب كثر أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه لم يشكل منهم ذئابًا منفردة، ولا كتائب للانتقام، وتصفية الخصوم، ولم يحاول القفز على السلطة.. ظل يستخدم سلاحه الوحيد.. الكلمة.. القرآن.. الإقناع.

بعد عشر سنوات ظهر النور في نهاية النفق الوثني.. قدم رجالات من مدينة يثرب للحج بعد عام أسود كبدتهم الوثنية فيه خسائر فادحة.. جراء الشحناء بينهم والثارات، وكانوا قد رفضوا التوحيد على مدى العشر سنوات الماضية، لكن جراح الجاهلية جعلتهم ينصتون للنبي صلى الله عليه وسلم

هذه المرة بقلوبهم، فوجدوا رسالة الإسلام رسالة تصالحية ستلتئم بها جراحهم النازفة.. رسالة تدعو للتوحيد والعدل والسلم الاجتماعي، مما جعلهم يبايعونه، ويعقدون معه اتفاقًا ملزمًا له ولهم.

اتفاق بنى محمد صلى الله عليه وسلم على أسسه دولة الإسلام، ليكون أول شخص في التاريخ يشيد دولة بالكلمة.. بالعقد بالمواثيق، دون أن يحمل حتى سكينًا.

بايعه أهل يثرب على أن يكون زعيمهم، ولكن بشرط أن يهاجر إليهم، واشترط عليهم أن يدافعوا عنه وعن دينه ورسالته، التي لم تكن للتوحيد فقط، بل رسالة للتوحيد والعدل والسلام الاجتماعي.

وبعد عامين من ذلك اللقاء.. جرى أعظم حدث بعد البعثة.

الإسلام يجعل يثرب الثارات مدينة للحب

عاد زعماء يثرب إلى يثرب، بعد اتفاقهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، وخاطبوا قومهم بالاتفاق والمعاهدة معه، فاقتنع أكثرية أهل يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج ووافقوا على استقباله ونصرته، فقام النبي القائد محمد صلى الله عليه وسلم بإعداد الخطة والترتيبات لمغادرة مكة، برفقة صاحبه أبي بكر الصديق، وبشكل سري، لأن طواغيت قومه الوثنيين علموا بأمر الهجرة، فقرروا اغتياله قبل أن يهاجر، لكن خطة الهجرة العظيمة كانت خطة بالغة الإحكام، طاشت بسببها ضربات قريش في الهواء.

في البداية انتقى صلى الله عليه وسلم جبلًا يقال له جبل ثور للاختباء.. انتقاه بطريقة ذكية، فطريق يثرب يقع في الشمال، والجبل في الجنوب، ولما انطلق لم يسلك طريق القوافل، بل سلك طريق السواحل، وهكذا حتى وصل، ولما وصل استقبله المسلمون بالسلاح تعبيرًا عن الفداء، لكنه ظل متمسكًا بسلاح الكلمة، ورسالة التسامح.

بداية غير اسم يثرب الكئيب إلى اسم صار علمًا على كل المدائن.. سماها (المدينة)، لم يبدأ ببناء قصر له، بل بدأ ببناء المسجد.. منبع التوحيد، ومنارة الوعي.. يجتمع فيه الرجال والنساء خمس مرات، بعد أن يتطهروا، ويطهروا ثيابهم.. يتلقون فيه دروسًا عقدية وأخلاقية وتربوية واجتماعية واقتصادية، بل كان المسجد بيت من لابيت له، ومأوى من لا مأوى له من المهاجرين الفقراء.

كان النبي صلى الله عليه وسلم بلا زوجة بعد رحيل خديجة لأكثر من سنتين، لذا بنى له غرفة متواضعة ملاصقة للمسجد.

قام النبي عليه السلام بعد ذلك بخطوة غاية في الرحمة والعظمة، وهي المؤاخاة بين أهل المدينة والمهاجرين.. إخوة فاقت إخوة النسب، لدرجة أن المهاجر يرث الأنصاري، والعكس، فهل كان ذلك

يعني إهمال بقية الشعب من الوثنيين واليهود، وإقصاءهم؟

إطلاقًا، فتلك إخوة عقيدة، أما بقية الشعب فكانوا محط اهتمامه، حيث قدم صلى الله عليه وسلم ثقافة تسامحية، تجاه مكونات شعبه المتنوعة، فهناك أقليات وثنية، وقبائل يهودية عديدة، متحصنة في حصون منيعة.

وإذ بالنبي صلى الله عليه وسلم يشكل منهم نسيجًا وطنيًّا متناغمًا ومتآلفًا، ليقدم ولأول مرة في التاريخ مفهوم (المواطنة)، حتى قال أحد الصحابة: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهلها أخلاط: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون،.. فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم)، لكن ذلك أجج غضب طواغيت الوثنية الإقصائيين في مكة.

حكمة قيادية لا مثيل في احتواء الآخر

قال أحد الصحابة: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهلها أخلاطًا: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون،.. فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشرك)[62].

أراد القائد الحكيم صلى الله عليه وسلم استصلاحهم لا تفريقهم.. استصلاحهم لا زرع العداوة بينهم، بل كان النبي القائد محمد صلى الله عليه وسلم. يتعامل مع اليهود في شأنه الشخصي بطريقة بالغة الود، لدرجة أنه كان يسرح شعره على طريقتهم، ومع ذلك قابله هؤلاء الوثنيون واليهود بالأذى والسب والتطاول، حتى قال أحد الصحابة: (كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جل ثناؤه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

بل بلغ القرآن درجة غير مسبوقة في بث روح التسامح بين شعب دولة القرآن، وذلك حين أمر نبيه بالصفح، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثقافة رائعة، أشرقت على يثرب.. أنستها دماءها، التي فجرتها الثارات الوثنية الجاهلية لقرون، من أجل كلمة أو بعير أو حصان.

إنجازات راقية ومتمدنة، أصابت زعماء قريش بالجنون.. خاصة حين تجاهل صلى الله عليه وسلم مراراتهم وقمعهم له على مدى ثلاثة عشر عامًا، فمنذ أصبح قائد دولة لم يفكر يومًا بالانتقام ممن ظلمه، بل قابل صلف قريش بالتسامح.

حمى قوافلها، وسمح لمواطنيه باستقبال طواغيتها، الذين اضطهدوه، واضطهدوا أصحابه: كأمية بن خلف، وأبي جهل، الذي دخل المدينة فلم يمس أحد منه شعرة، بل لبى صلى الله عليه وسلم طلبه، وحصل على مراده، ورجع لمكة آمنًا.

جن جنون قريش، فحاولت إفساد هذا الإنجاز الحضاري في المدينة.. قرر طواغيت مكة خلق جيوب خيانية، وخلايا إرهابية وثنية، داخل جسد دولة النبي صلى الله عليه وسلم.. أرسلوا رسالة سرية لزعيم الأقلية الوثنية، ويدعى (عبدالله ابن سلول) يهددونه فيها أنه إن لم يطرد محمدًا وصحبه فستغزوهم قريش بجيش لا قدرة لهم على صده، فجهز ابن سلول كتيبته، وتسلحوا واستعدوا، لكن تلك الرسالة والتحركات وصلت لقائد الدولة صلى الله عليه وسلم.

إبداع النبي صلى الله عليه وسلم لمفهوم (المواطنة)

حين تكون القيادة عادلة وحكيمة، يصبح الشعب عيونًا للوطن.. علم النبي صلى الله عليه وسلم برسالة طواغيت قريش الوثنيين التحريضية، واستجابة الشريحة الوثنية من شعبه لها، وعزمهم على الخيانة والتمرد، فلم يستبشر بما حدث، ويستغله لتصفية ابن سلول وبقايا الوثنيين.

كان أرقى من ذلك بكثير، لدرجة أن ابن زعيم الوثنيين عبد الله ابن سلول جاء غاضبًا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعارضًا قتل أبيه المشرك، والتخلص منه، نظرًا لخياناته، وقائلًا: (يا رسول الله، والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه؟).

وإذ بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم يكشف عظمة القيادة ورحمة النبوة.. لم يفرح بتلك الكلمات، للتخلص من رأس الخيانة، بل حول حياة ذلك المنافق إلى ربيع داخل دولة القرآن.. حين هدأ ابنه المؤمن، وقال له: «لا، ولكن بر أباك، وأحسن صحبته»[63]، ثم توجه صلى الله عليه وسلم إلى ابن سلول وكتيبته الخيانية، فخاطبهم من منطلق المواطنة الراقية، وقال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا)[64].

فشلت محاولة طواغيت قريش الوثنيين، فانتقلوا للخطة البديلة وهي تحريض القبائل اليهودية، وأرسلوا لهم رسائل تهديد، قالوا فيها: (إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن

كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء)[65]، فعلم صلى الله عليه وسلم بوصول تلك الرسالة، وترحيب اليهود بها.

هنا اختلف موقف القائد صلى الله عليه وسلم، فاليهود ليسوا أهل البلد، بل هم ضيوف لاجئون، ومع ذلك لم يستغل الفرصة لطردهم، أو اضطهادهم كما فعلت بهم الأمم التي لجأوا إليها على مدار التاريخ، بل تعامل صلى الله عليه وسلم معهم كما تتعامل الدول الراقية مع اللاجئين، بل وأرقى.

توجه إليهم قبيلة قبيلة، ولم يتركهم حتى وقع معهم وثيقة مواطنة تكفل كافة حقوقهم وتحافظ في الوقت نفسه على سيادة الدولة التي يقيمون فيها.. وثيقة ملزمة للطرفين.

هكذا أفشل النبي القائد صلى الله عليه وسلم كل خطط الوثنيين لشق اللحمة الوطنية، فلم يبق أمام طواغيت قريش سوى محاولة كالانتحار.

أكبر جريمة لقريش بعد الشرك

جريمة لم يجرؤ عليها أحد قبلهم، وذلك حين أصدر أبو جهل قرارًا بمنع أهل المدينة وأي مسلم من حقهم، وحق كل إنسان على الأرض منذ إنشاء مكة.. هذا الحق هو أداء الحج والعمرة.. هنا ارتكبت قريش أكبر جريمة بعد الشرك، وهي الصد عن المسجد الحرام، فأصبح السكوت عن ممارسات الوثنيين مستحيلًا عند أهل المدينة، لذا أصدر أحد الوزراء النافذين، وهو سعد بن معاذ قرارًا مماثلًا.

أصدره وهو في مكة، حيث منعه الطاغوت الوثني أبو جهل من أداء العمرة، فأصدر قرارًا بمنع قوافل قريش من المرور نحو الشام، فأقره صلى الله عليه وسلم من باب المعاملة بالمثل.. هنا شعر الوثنيون بالفشل، فقرروا شن الحرب.

نبي يصنع دولة قوانين ووثنيون يؤججون الحروب

فشلت كل محاولات طواغيت قريش الوثنيين في إشعال حرب أهلية، وفتنة طائفية داخل دولة النبي صلى الله عليه وسلم، لذا قرروا غزو المدينة، وقد حدث ذلك في أشهر وأهم معركة، وهي (بدر)، ففشلوا فشلًا ذريعًا، وخسرت قريش أهم طواغيتها جملة واحدة.

عاد بعدها النبي القائد محمد صلى الله عليه وسلم لاستئناف بناء دولته وشعبه، حيث نزلت عليه أحكام الزكاة، ليتكافل المجتمع، ويحنو الغني على الفقير، ولو كان الفقير يهوديًّا أو مسيحيًّا أو مشركًا، ثم شرع الصيام تلك العبادة التي تشع روحانية وصحة وتكاتفًا بينهم، ثم نزلت أحكام القضاء، وحق الترافع لحفظ الحقوق في نظام قضائي راق، طبقه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه، وهو قائد الدولة، وكان خصمه في ذلك أعرابي وثني غريب، لا ناصر له.

فذات يوم دخل هذا الأعرابي سوق عاصمة دولة القرآن (المدينة)، ومعه فرس يريد بيعها.. كان قائد الدولة محمد صلى الله عليه وسلم حينها في السوق بين شعبه، فرأى الفرس فأعجبته، فاقترب من صاحبها وسامها.

وافق الوثني وتمت الصفقة، فطلب قائد الدولة صلى الله عليه وسلم من الأعرابي أن يلحق به ليعطيه الثمن، لكن نظرات رجال جاءوا متأخرين، حاصرت الوثني وفرسه، فصاروا يسومون الفرس، فطمع الوثني، وأبطأ الخُطى، فلما زادوا السوم ازداد طمعه، فصاح بالنبي صلى الله عليه وسلم: (إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته)؟

استغرب قائد الدولة وقاضيها صلى الله عليه وسلم تلك الكلمات، فالصدق والأمانة أبرز صفاته، حتى قبل أن يكون نبيًّا، لذا عاد نحو ذلك الوثني، مستفسرًا.. لا مهددًا ومتوعدًا، فقال: «أو ليس قد ابتعته منك؟» فأنكر الوثني، وحلف كذبًا، وقال: (لا والله، ما بعتك) فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بلى، قد ابتعته منك».

هنا تداعى المواطنون حول قائدهم، غاضبين من وقاحة هذا الغريب، لكن الغريب لم يخف، ولم يأبه بمشاعرهم، لأنه أدرك لأول مرة أنه لا يتواجد داخل قبيلة أو عشيرة قد تنحاز لشيوخها، بل داخل دولة يحكمها نظام يسري على الجميع.. نظام يحتكم له حتى قائدها، لذا طلب الوثني من قائد الدولة محمد صلى الله عليه وسلم إثباتًا قائلًا: (هلم شهيدًا يشهد أنى بايعتك؟)[66] عندها أكد النبي القائد صلى الله عليه وسلم لشعبه مبدأ استقلال القضاء في الإسلام.

فامتثل للنظام وهو نبي الله، وامتثل وهو قائد الدولة، وهو القاضي أيضًا، فصار يبحث عن شاهد عيان، أما المواطنون فتفاقم غضبهم من هذا البائع الذي بلغت به الوقاحة تكذيب نبيهم صلى الله عليه وسلم، وبخسه حقه داخل دولته، لكنهم لم يمسوه بسوء، لأن لدولتهم قانونًا يكفل حماية حقوق المواطن وغير المواطن.

مواصلة التحضر الإسلامي وتواصل الحقد الوثني

نزلت أيضًا على النبي صلى الله عليه وسلم أحكام جنائية، لضبط الأمن، والحفاظ على الأرواح والممتلكات، جعلت الأمن يسود في دولة القرآن.. أمن أثار جنون قريش مرة أخرى، فكررت الاعتداء في غزوة أحد، ففشلت، أيضًا رغم تحقيقها لنصر معنوي، جراء استشهاد بعض المسلمين العظماء، أمثال حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم.

كانت بدر وأحد بالنسبة للمسلمين دفاعيتين.. لم يسعوا لهما، ولم يبدأوهما، أما الغزوة الثالثة (الخندق)، فكانت أشنع غزوة وثنية على دولة القرآن، لكن المحير أن الذي خطط لهذه الغزوة بالغة الخطورة لم يكن طواغيت قريش، فقد تعبوا وملوا من الفشل.

كانت هذه الغزوة المرعبة للأسف من تخطيط مواطنين ينتمون لأقلية من دولة النبي صلى الله عليه وسلم هم قبيلة بني النضير اليهودية، فهذه القبيلة قررت ذات يوم اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك عن طريق استدراجه لمناظرة مع حاخاماتها، ثم قتله في أثناء الحوار، لكن مواطنة يهودية أمينة، سربت الخبر لقائدها صلى الله عليه وسلم وهو في طريقه للمناظرة، فرجع هو والوفد المرافق له للمدينة مباشرة، ثم حشد كتيبة، وتوجه بها نحو الخونة لا ليبيدهم، ولكن ليلزمهم بتوقيع اتفاقية ووثيقة مواطنة أخرى، لا خيانة فيها ولا تآمر.

اتفاقية ملزمة للجميع، وتضمن أمن الجميع، لكن بني النضير رفضوا المواطنة، وفضلوا الجلاء إلى مدينة خيبر، فوافق النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعاملهم حسب شريعتهم، التي تحكم على المدن الخائنة بقتل شيوخها وشبابها ونسائها وأطفالها، كما تأمر بتنجيس بيوتها.

سمح النبي القائد صلى الله عليه وسلم لهم بالمغادرة بسلام إلى خيبر، حتى إن بعضهم صار يقتلع أبواب بيته ويأخذها، خشية أن يستفيد المسلمون منها، ولما وصلوا خيبر بدأ زعيمهم حيي بن أخطب يخطط لحشد أكبر جيش عرفته الجزيرة العربية، لسحق دولة القرآن.. تم تشكيله من معظم القبائل العربية الوثنية، وقد أقنعهم هذا الحاخام بشن هجوم خاطف على المدينة، والقضاء على النبي والإسلام، ودولته في ساعات قليلة.

كانت المعركة سهلة على الخريطة، وكانت أعظم خطر مر على المسلمين ودولتهم، حيث ضاقت بهم الأرض، وهم يرون الآلاف تصطك حولهم، لا سيما والتوقيت كان في الشتاء، حيث يشتد البرد، ويقل الطعام، لكن دهاء النبي القائد صلى الله عليه وسلم العسكري أفشل غزوة الأحزاب تلك، فقد كانت المدينة محصنة بالجبال من ثلاث جهات، لذا أمر صلى الله عليه وسلم بحفر خندق في الجهة المكشوفة، التي لا جبال فيها، فلما وصلت الجيوش الوثنية، صعقت بالخندق، وتلاشت أحلامها، لكنهم رابطوا لأسابيع، انهارت بعدها عزائمهم، جراء الانتظار والملل والبرد، وعدم القدرة على الاقتحام، ثم أكملت الريح المعجزة المهمة، فاقتلعت خيامهم، ونثرت طعامهم.. بعدها أصبح وثنيو قريش في حالة ضعف لا أمل معه.

دولة القرآن موجهة للإنسان والسلم والبناء

انسحبت جيوش الأحزاب الوثنية تجرجر أذيال الفشل، بينما واصل النبي صلى الله عليه وسلم نشر الوعي والثقافة، فأدرك الكثير من الوثنيين أن محمدًا نبي، بعد أن رأوا المعجزات وسلمية التعامل.

كثر المتأثرون بحسن خلقه صلى الله عليه وسلم وإدارته وتعامله مع الضعفاء والفقراء والعبيد من شعبه ومن غير شعبه، لدرجة أنه كان يومًا بين رجال دولته، وإذ بطيف امرأة من شعبه في عقلها شيء.. تقبل من بعيد نحوهم، فيخفق قلبها له وحده، وتناديه من بينهم، فيقبل رأس الدولة وسيد حقوق المرأة.. تاركًا عظماء الرجال نحو مواطنة مسكينة، ولما اقترب منها، قالت: (يا رسول الله، إن لي إليك حاجة؟).

فبشرها أن كل الشوارع تؤدي لقلبه، وأن كل الدروب في خدمتها، قائلًا: «يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك»[67]، فأخذته كما شاءت، ثم نحتت في مسامعه حاجتها، ولم تنصرف حتى حصلت عليها.

النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي يصفه أعداؤه بقاطع الطريق.. يشاهد يومًا مجموعة من الوثنيين الجياع الحفاة، ليسوا من شعبه.. كانوا شبه عراة من شدة الفقر.. يدخلون عاصمة دولته، فلم يشتمهم، أو يهنهم، أو يشمت بهم، بل تغير وجهه حزنًا ورحمة وشفقة بهم، لأنهم بشر، ثم فز من مكانه، وانطلق نحو بيته.. يبحث عما يسد جوعهم، ويكسوهم، ويخفف ما بهم، فلم يجد، فانطلق صلى الله عليه وسلم نحو مركز التثقيف والتنوير والشعور بالآخر.

انطلق نحو المسجد، فرقى منبره وخاطب شعبه، وقال ملغيًا كل الفوارق الدنيوية بين الشعوب بآية من القرآن، تفيض رقيًّا، وقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، ثم حثهم على الصدقة فقال صلى الله

عليه وسلم: «تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة».

وإذ بالمشهد داخل المسجد يتلألأ رحمة، حتى قال أحد الحضور: فجاء رجل من الأنصار بصرة، كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب. ثم يصف مشاعر النبي صلى الله عليه وسلم وتأثره وسروره بهذا المشهد الإنساني فيقول: رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[68].

تهلل وجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كسا وأشبع وثنيًّا فقيرًا مُعدمًا غريبًا، ليس من مواطنيه، وليس على دينه.. أشرق وجهه صلى الله عليه وسلم لأنه كسا إنسانًا فقيرًا، وطيب خاطره، ولم يسأله قبل أن يطعمه عن دينه، ولا عن ولائه، بل قرأ فيه إنسانًا كرمه الله، وأمر برحمته.

نبي الرحمة والعدالة

لم يأمر أرحم الراحمين جلَّ وعلا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يكون رحمة للعالمين فقط، بل جعله رحمة لهذا الكوكب ومن عليه، وما عليه.. كان محمد صلى الله عليه وسلم يرقق قلوب أتباعه على الحيوان، بل يخيفهم من أذيته، فيقول: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلًا»[69]، دخلت النار رغم عباداتها بسبب ظلمها لهرة، بينما «غُفر لامرأة مومسة، مرت بكلب على رأس ركي يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك»[70].

كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم جنّة من المشاعر.. ينعم بها الشعب، حتى ضعاف العقول.. حتى العصافير والطيور.. كان صلى الله عليه وسلم جدول حب يشرب منه الجميع فيرتوون.. يشاهد طيرًا مفجوعًا فيخفق قلبه رأفة به، فيهتف بأصحابه في مشهد رآه، ورواه أحد الشباب، فقال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش. فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»[71].

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم أنه قام بغرس وكبس ثلاث مئة نخلة لوحده، وبيديه.. فعل ذلك من أجل تحرير عبد اسمه سلمان الفارسي من سيده اليهودي، الذي اشترط عليه ذلك، ولو كان صلى الله

عليه وسلم يظلم اليهود، كما يتهمه أعداؤه لحرر العبد، واسترق اليهودي، فهل تعرف الدنيا قائدًا يلطخ يديه بالطين والسماد كرامة لعبد.

إنه نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم.. يفعل ذلك بعد غزوة الأحزاب، التي مرت بسلام، فأصبحت دولة القرآن مهابة، ولا أحد يستطيع منع شعبها من التوجه لمكة لأداء العمرة.

لذا أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالاستعداد لذلك، فأوقفته قريش، وهي في حالة لا تستطيع منعه، لكنها رجته أن لا يدخلها هذا العام، لحفظ كرامتها بين العرب، فوافق صلى الله عليه وسلم.

ولأنه بنى دولته على المواثيق، فإنه لم يرجع إلا بوثيقة موقعة تضمن حق شعبه في زيارة مكة بعد عام، متى شاءوا مثلهم مثل غيرهم، وبعد نقاش وحوار في مكان يسمى (الحديبية)، قدم القائد صلى الله عليه وسلم تنازلات، وأبدى مرونة كبيرة، لدرجة أنه سمح لمن أراد أن ينضم لمعسكر الشرك من شعبه أن يفعل.

بل وقع على شرط مرير، وهو أن يلتزم برد أي مسلم أو مشرك من مكة، يريد الالتحاق بدولته، كما كفلت الوثيقة السماح لأي قبيلة بالدخول في حلف مع دولة الإسلام، أو حلف مع معسكر الشرك القرشي، وأن تتوقف المعارك بين الطرفين لمدة عشر سنوات.

شروط كشفت مدى التسامح الإسلامي أمام الصلف الوثني، مما دعا بعض القبائل الوثنية للدخول في حلف مع دولة القرآن، أو التخلي عن الوثنية، والدخول في الإسلام، واعتناق التوحيد، لكن رغم ذلك.. قامت قريش بخرق المعاهدة بعد عامين، فدفعت الثمن غاليًا.

الفتح العظيم

خرقت قريش معاهدة الحديبية رغم أنها مجحفة بحق دولة الإسلام وشعبها، وهنا طفح الكيل، فالصبر على هذا العبث الوثني غير مجد.

فقد حدث ذلك حين غزا الوثنيون قبيلة (خزاعة)، التي دخلت في حلف مع دولة القرآن، فطالبت قبيلة (خزاعة) نبي الله صلى الله عليه وسلم بتفعيل الاتفاقية الموقعة بينهما، مما نتج عنه فتح مكة، وزوال سلطة الوثنية للأبد.

المدهش هنا أن فتح مكة كان دون قتال! كما أنه لم يكن جهاد طلب ولا جهاد دفاع. كان قمة في التحضر، لأنه يعرب عن مدى رقي دولة الإسلام حين استجابت. ملتزمة بمعاهدتها لقبيلة وثنية مظلومة. تمت خيانتها والاعتداء عليها، من قبل طواغيت قريش الوثنيين.

تم فتح مكة، فاستسلمت زعامات مكة الوثنية كلها وهي صاغرة، أما المبهر هنا، فهو أن النبي القائد صلى الله عليه وسلم لم ينتقم منهم، ولم يذكرهم بجرائمهم بحقه، واضطهادهم له ولأصحابه، وقمعهم له لأكثر من عشرين عامًا، بل تهادى نحو الكعبة، ولما أصبح أمامها صلى، ولما فرغ من صلاته نهض ليلقي خطاب النصر. في وقت كان الطواغيت يرتجفون داخل بيوتهم، وبعضهم دخل الكعبة خوفًا من سيف الفاتح العظيم.

كان المسجد مزدحمًا، لأنه قد أعلن أنه من دخل المسجد فهو آمن.

انحشر الوثنيون داخل المسجد ورائحة عرقهم وخوفهم تزكم الأنوف، والقلوب ترتجف. خيم السكون بانتظار بيان النصر الأول، ورفعت الرؤوس المنكسرة، نحو هذا القائد المنتصر عليها، وهو يمسك بخشبتي باب الكعبة، فإذ به عالم مهيب من التواضع والخضوع لربه سبحانه، الذي فضله واختاره لرسالته.

بدأ النبي القائد محمد بن عبد الله بحمد الله الواحد الأحد لا شريك له.

أثنى عليه سبحانه، ثم جال بطرفه، ونظر للجموع الوثنية التي كانت تقلب اسمه محمدًا، فتسميه بعد بعثته: (مذممًا)، وتصفه بالساحر، والكاذب. جال بطرفه نحو قوم اضطهدوه وقتلوا أحبابه وطردوه من مدينته، وقاتلوه وحرضوا عليه ومنعوه من بيت ربه لأكثر من عشرين عامًا. نظر للجموع الوثنية ثم هتف بها وهو يمسك بعضادتي الباب، ثم قال:

«يا معشر قريش ما تقولون؟».

وإذ بالطغيان يتلاشى وهم يردون بكل أدب ويقولون: نقول ابن أخ، وابن عم رحيم كريم. ثم كرر سؤاله: «يا معشر قريش ما تقولون؟». قالوا: نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم. ثم قال: «يا معشر قريش. ما تقولون؟». قالوا نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم.

هنا تفجرت شلالات الرحمة. تطهرهم من دنس الحقد الجاهلي، والغل الوثني. هنا تألق محمد صلى الله عليه وسلم كالبدر. في سماء الوثنية المعتمة، ليزيل سوادها ويلهج بكلمة كادت تقتلهم فرحًا، حين هتف بهم فقال: «فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[72].

بعد هذا الخطاب المحلق في سماء الرحمة والتسامح. امتلأ المسجد بصراخ الفرح والابتهاج والتهاني، ليحتل هذا القائد القلوب، لدرجة أن دخلت قبائل الجزيرة العربية كلها في الإسلام دون قتال، وانضمت لدولة القرآن. بعد هذا الخطاب المتسامح للغاية. هذا يعني شيئًا واحدًا. هو أن الحلف الوثني كان حلفًا هشًّا. كان حلفًا عاطفيًّا لا عقل له. كان حلفًا غير مقنع على الإطلاق. حلف عصبية يقوده طواغيت وثنيون.

لم تكن لديهم قضية أو قناعات. مجرد عصبية جاهلية عمياء.

بعد دخول القبائل العربية في الإسلام. انتهى الخطر الوثني العربي، وبرز خطر أكبر منه. ظهر الخطر العالمي على دولة النبي صلى الله عليه وسلم.

بدأت إمبراطوريتا الروم وفارس بالتوجس من هذه الدولة الناشئة، لذا بدأتا التحرش، من خلال بث الجواسيس، وحشد الجيوش، بل والاعتداء على دولة الإسلام، فقد شنتا حربين على دولة الإسلام. هما: (ذات السلاسل) و(مؤتة). بل وصلت النبي القائد عليه السلام أنباء عن تحركات إمبراطورية الروم باتجاه دولة القرآن.

هنا حشد النبي صلى الله عليه وسلم جيشًا هائلًا بعد أن وصلته الأخبار بأن الروم سيغزون دولته. سار بجيشه وسار حتى وصل منطقة تبوك ثم عسكر هناك، ليبقى في تبوك قرابة الشهر.

ترى لو كان هدفه التوسع في المناطق المجاورة، والاعتداء على دولها. هل يتوقف، ثم يعود للمدينة؟

بعد تلك الغزوة أصبحت الجزيرة العربية آمنة برسالتي الأنبياء (التوحيد والعدل)، ولما حان موعد الحج. أدى النبي القائد صلى الله عليه وسلم الحج. هو والمسلمون في حجة تسمى (حجة الوداع).

الوداع المرير

الختام..

وبعد الفراغ من الحج عاد النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة، وبعد أشهر أصابه مرض ألزمه الفراش. بعدها ضعف الحبيب عليه السلام ضعف الموت، ثم رحل عن الدنيا، بعد أن أخذ معه القلوب والذكريات والأشواق.

أهالوا عليه التراب والحب والدموع صلى الله عليه وسلم، وبكاه من في المسجد، ومن في الطرقات والمنازل. بكت أمهات المؤمنين، وبكت النساء، وبكى الرجال والأطفال، وبكته المدينة.

احترقت القلوب على ساكن القلوب. بكى الشعب ذلك النبي، الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.

بكوا محمدًا الذي هداهم الله به، ووحدهم به، وبنى لهم دولة مهيبة، ومجدًا شاهقًا، لكنه لم يبن لنفسه قصرًا، ولا لشعبه سجنًا.

مات الحبيب دون أن يترك في منزله دينارًا أو درهمًا، أو يترك بعده عبدًا أو أمة، فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئًا لغد، فكل ما يأتيه يقسمه بين شعبه، ولذا كانت مصيبة موته تخفف كل المصائب، التي تمر بهم.

فارق محمد صلى الله عليه وسلم الحياة جسدًا، لكنه بقي سنةً ومنهجًا، فنهض الصحابة من عند قبره مثقلين بالحزن واللوعة. محملين بسنته وقرآن ربه وربهم.

نهض الصحابة بعد أن دفنوه في غرفة زوجته عائشة ، فلم يعكفوا عند قبره، أو يبنوا على قبره قبابًا، أو مباني، أو حتى يكتبوا عليه شيئًا.

لم يحولوا ذلك القبر الكريم إلى بناء مرصع بالجواهر، أو مطلي بالذهب، بل إن عائشة استمرت في السكن في بيتها، ولم تفارقه. أما الصحابة فلم يمضوا أوقاتهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات، بل ولا حتى بقراءة القرآن.

لقد علمهم محمد كيف يصنعون الحياة. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال. نهضوا من عند قبره، فحملوا رسالته (التوحيد والعدل) إلى العالم؛ لينقذوه بها، كما أنقذهم هو قبل ذلك بها. فـ صلى الله عليه وسلم عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وجزاه عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وجمعنا به وبأنبيائه في جناته في الفردوس[73].

◂محمد الصوياني

Notes

[1←]
رواه مسلم (2611) وابن حبان (6163) واللفظ له.

[2←]
صحيح البخاري (3335)، ومسلم (1677).

[3←]
سنده صحيح، رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم 548)، وغيره من طرق عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن عمرو قال: كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعطاء وزيد عالمان ثقتان، والصقعب ثقة أيضًا.

[4←]
هو جزء من الحديث السابق.

[5←]
سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق.

[6←]
صحيح البخاري (2217).

[7←]
جزء من الحديث السابق.

[8←]
جزء من الحديث السابق.

[9←]
صحيح مسلم (2371).

[10←]
صحيح البخاري 2217.

[11←]
صحيح مسلم (2371).

[12←]
صحيح البخاري (3371).

[13←]
صحيح البخاري (3364) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[14←]
صحيح البخاري (3364) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[15←]
صحيح البخاري (3364) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[16←]
صحيح البخاري 3364 موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[17←]
المرجع السابق.

[18←]
صحيح البخاري (3364) عن النبي صلى الله عليه وسلم.

[19←]
صحيح البخاري 3364 موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[20←]
المرجع السابق.

[21←]
المرجع السابق.

[22←]
صحيح البخاري 3364 موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[23←]
المرجع السابق.

[24←]
صحيح البخاري 2899.

[25←]
صحيح البخاري 3364 موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[26←]
صحيح البخاري 3364 موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[27←]
أخرجه البخاري (4/142-144 رقم 3364) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

[28←]
صحيح البخاري 3372.

[29←]
صحيح البخاري (3371).

[30←]
صحيح مسلم (162)، أما حديث : (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن) فرواه ابن أبي شيبة (31920) بسند قوي حدثنا عفان حثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سند مسلسل بالأئمة الثقات على شرط مسلم.

[31←]
صحيح مسلم (162).

[32←]
صحيح البخاري 3390.

[33←]
صحيح البخاري (3372).

[34←]
صحيح البخاري (3239)، حيث قال النبي محمد : «رأيت موسى ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم طوالًا جعدًا، كأنه من رجال شنوءة».

[35←]
صحيح البخاري (2004) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم»، فصامه، وأمر بصيامه.

[36←]

صحيح مسلم (178).

[37←]
صحيح مسلم (2577)، وهو حديث قدسي.

[38←]
صحيح مسلم (2663).

[39←]
صحيح البخاري (122).

[40←]
صحيح البخاري (122) وما بين الأقواس من القصة هو جزء منه.

[41←]
صحيح البخاري (122)، وما بين الأقواس من القصة هو جزء منه.

[42←]
صحيح البخاري (122).

[43←]
صحيح البخاري (6502).

[44←]
سنده قوي رواه أحمد (20398)، وغيره من طرق عديدة عن عيينة بن عبدالرحمن الغطفاني، وهو صدوق، عن أبيه وهو ثقة، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله العقوبة لصاحبه في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم».

[45←]
صحيح البخاري (3420).

[46←]
صحيح البخاري (2072).

[47←]
صحيح البخاري (7544).

[48←]
صحيح مسلم (2749).

[49←]
صحيح البخاري (6769).

[50←]
سنده قوي رواه الترمذي (1322) وغيره من طرق عن سليمان وعبد الله ابني بريدة عن والدهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال. وابني بريدة ثقتان.

[51←]
سنده صحيح رواه أحمد (9972) حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكيع وسفيان إمامان ثقتان، وأبو الزناد وشيخه عبد الرحمن بن هرمز ثقتان أيضًا. والحديث في الصحيح كما في الحديث الذي يليه.

[52←]
صحيح البخاري (4033).

[53←]
سنده صحيح رواه أحمد (6644) وغيره من طرق عن الثقات ربيعة بن يزيد و أبي زرعة السيباني وغيرهم عن الثقة عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا.

[54←]
صحيح البخاري (٣٤٢٣).

[55←]
سنده صحيح رواه أحمد (9972) وقد مرمعنا وهو عند البخاري لفظ آخر.

[56←]
صحيح البخاري (3612).

[57←]
أجل (20000 خطأ) في كتاب يُفترض أن يبقى نقيًّا كما أقرت بذلك هيئة من الخبراء الإنجليز قامت عام (1720) بإحصاء عدد الأخطاء في (الكتاب المقدس)، فقدرتها بأكثر من عشرين ألف خطأ. ذُكر ذلك في مقال نشر في مجلة (Awake) عدد سبتمبر من عام 1957م. انظر تفاصيل أخطر حول تلك الأخطاء في كتيب: (خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس).

[58←]
وهو حديث قوي، له عدة طرق، رواه أحمد (22261)، وغيره بألفاظ منها: «رأت أمي أنه يخرج منها نور، أضاءت منه قصور الشام».

[59←]

صحيح البخاري (3).

[60←]
صحيح البخاري (4770).

[61←]
قصة أبي بكر رواها البخاري (4815)، وقصة فاطمة رواها مسلم (1894) والبيهقي (2-28).

[62←]
سنده صحيح. أرسله البيهقي (3/197)، ووصله أبو داود (رقم3000)، ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، عن أبيه. والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (3000)، فالزهري وعبدالرحمن تابعيان ثقتان وشعيب ثقة ثبت من أثبت الناس في الزهري. التهذيب (4/351): وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين. التقريب (176)، وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور (الذهلي).

[63←]
سنده قوي رواه البزار (7978): حدثنا محمد بن بشار وأبو موسى حدثنا عمرو بن خليفة حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وابن عمرو بن علقمة حسن الحديث من رجال الشيخين وابن خليفة قال عنه البزار ثقة، والبقية ثقات.

[64←]
صحح إسناده الإمام الألباني في كتابه صحيح سنن أبي داود (2/582 رقم3004)، فقد قال: صحيح الإسناد. ولمزيد من التفصيل راجع كتابي الصحيح من أحاديث السيرة.

[65←]
هو جزء من الحديث السابق.

[66←]
أخرجه أبو داود (3/340 رقم 3609)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (5/127)، سنده صحيح رواه أحمد (رقم21883)، وغيره من طرق عن شعيب بن أبي حمزة عن الزهري، قال: حدثني عمارة بن خزيمة الأنصاري: أن عمه، حدثه وهو من أصحاب النبي. وشعيب من أثبت تلاميذ الإمام الثقة الزهري. وشيخ الزهري ثقة، وثقه ابن سعد والزهري.

[67←]
صحيح مسلم (2326).

[68←]
صحيح مسلم (1017)، والنسائي الصحيح (2- 539).

[69←]
صحيح مسلم (2619).

[70←]
صحيح البخاري (3321).

[71←]
سنده صحيح رواه أبو داود (2675) وغيره من طرق عن أبي إسحاق الشيباني عن الحسن بن سعد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه.. الشيباني ثقة وكذلك شيخه وشيخ شيخه، وقد روي مفرقا على قصتين بالسند نفسه.

[72←]
سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى (11234)، وغيره من طريق الثقة سلام بن مسكين عن شيخه الثبت ثابت البناني، عن عبد الله بن رباح وثقه ابن سعد والنسائي، عن أبي هريرة. وله شواهد قوية عن ابن السني وغيره.

[73←]
للمزيد من التفاصيل الصحيحة حول سيرته عليه السلام، راجع (كتاب السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة)، ومختصره (مختصر السيرة)، وهما للمؤلف.